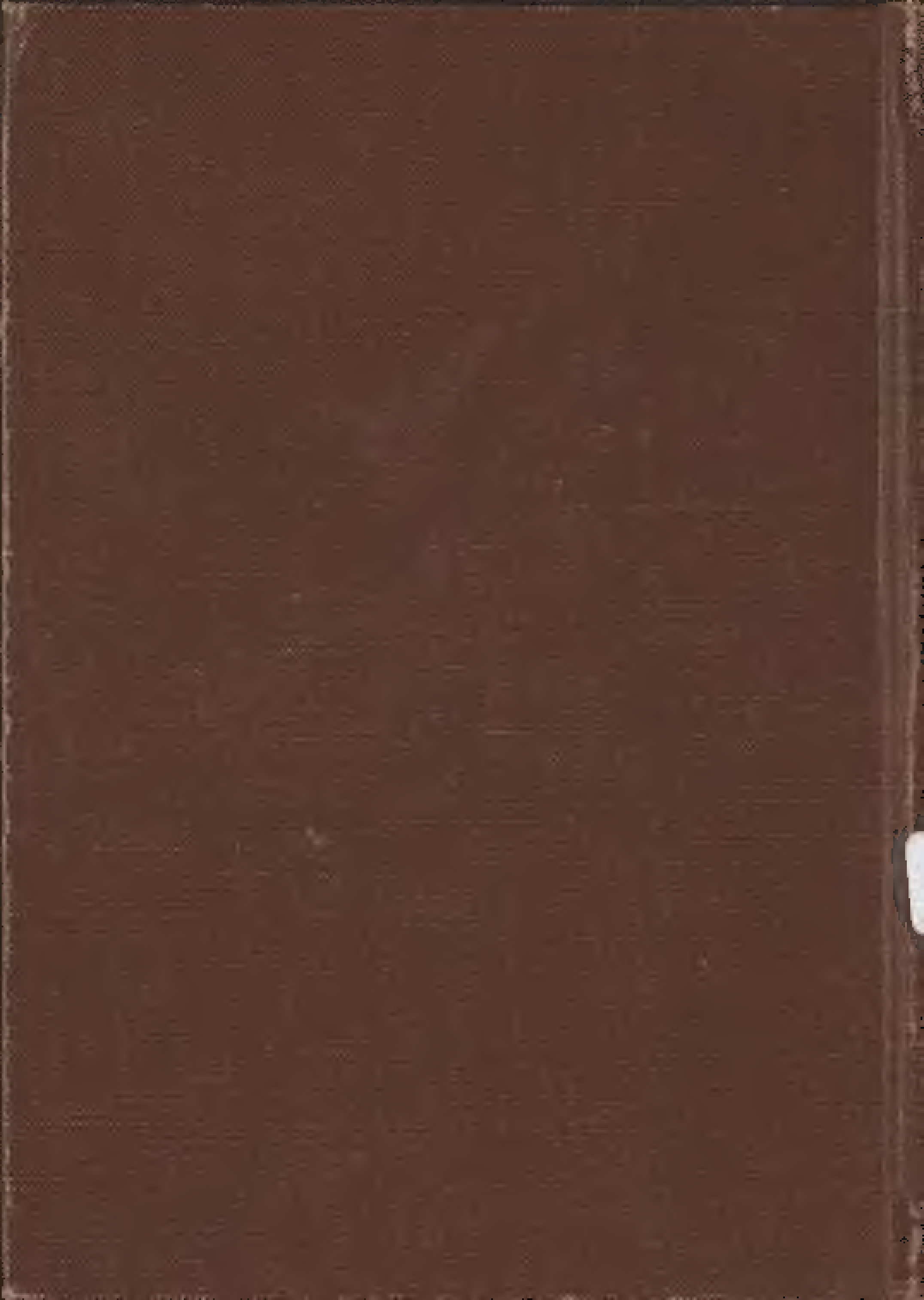


1798
.465
.14

1798.465.14
Hitti
Al-'Arab

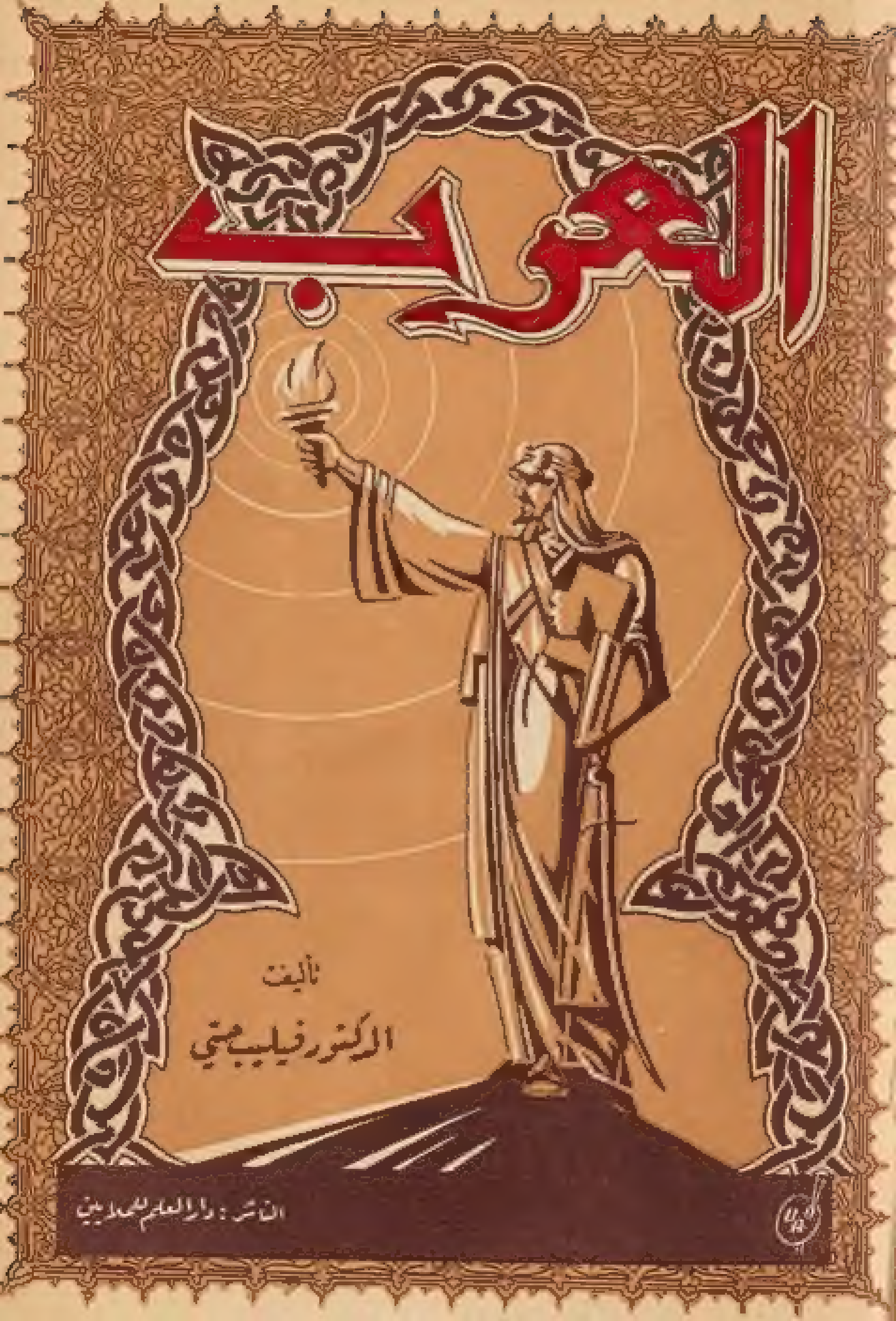
DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE
SEP			
NOV	NOV 15 '49		
MAR 14 1987			


32101 085174173








العرب
تأليف
الدكتور فيليب حتي
الناشر : دار العلم للملايين







العرب

تاريخ موجز

تأليف

الدكتور فيليب حتي

استاذ آداب اللغات السامية

ورئيس دائرة العلوم الشرقية بجامعة برنستون

الناشر: دار العلم للملايين

بيروت ١٩٤٦

طبع من هذا الكتاب

خمسة آلاف نسخة من ورق هوزفراى

جميع الحقوق محفوظة
لدار العلم للملايين

فاتحة

منذ ما لاقاه كتابي المطوّل الموسوم بـ «هستوري أوف دي أربز» History of the Arabs (مكملان، لندن ١٩٣٧ و١٩٤٠ و١٩٤٣) حدا مطبعة جامعة برنستون إلى أن تقترح علي وضع موجز في تاريخ العرب بالانكليزية. وما لبث أن ظهر هذا الموجز بعنوان «دي أربز، اي شورت هستوري» The Arabs-a Short History (برنستون ١٩٤٣ و١٩٤٤) حتى أقبل عليه القراء إقبالاً اقتضى إعادة طبعه أربع مرات منها طبعة خاصة بالقوات الاميركية المسلحة، وانتشرت منه عشرات الآلاف من

النُّسخ . ولقد تمت ترجمته الى الاسبانية في الارجنتين . والمخابرة جارية بشأن نقله الى البرتغالية وغيرها من اللُّغات .

وقد استعنتُ بثلاثة من رفاقي الذين ساهموا معي في منهاج التدريس الخاص بالجيش الاميركيّ في جامعة برنستون وهم السادة شكري خوري وفرحات زيادة وابراهيم فريجي على ترجمة هذا المُختصَر الى العربية . وهم بدورهم استعانوا بترجمة كتابي المطوَّل التي كان قد ساهم في وضعها زميلي الدكتور ادورد جرجي ولم تُطبع بعد . فكان من نتيجة جهودهم هذا الكتاب « العرب : تاريخ موجز » . وأخيراً كلَّفتُ زميلي الدكتور نبيه امين فارس ان يتعهد مخطوطة هذا المُوجز بعنايته ويُشرف على طبعها ويصلح مسوداتها ويضع خرائطها وفهرسها . فيستحقوا جميعاً خالص شكري .

عن جامعة برنستون في ١٥ اب سنة ١٩٤٥

فيليب حتي

مكانة العرب في التاريخ

لم تمض على وفاة النبي محمد مئة سنة حتى أصبح العرب أسياد دولة أعظم من دولة الرومان في أوج عزها، دولة امتدت أرجاؤها من بحر الظلمات غرباً الى حدود الصين شرقاً ومن جبال أورال شمالاً الى حدود السودان جنوباً. ورفرف المؤمنون في كل حي الشهادة باسم الله والرسول من رؤوس المآذن في جنوبي أوربة وشمالي أفريقيا وأواسط آسيا، فرجّعت جبال الأندلس وسهول الهند والصين ومجاهل الصحراء الكبرى صداها. ودخل في دين العرب وفي لسانهم ودمهم من الشعوب والفئات والأجناس ما لم يعهده التاريخ من قبل، حتى في أعصر اليونان والرومان.

ولقد دوّنت يد التاريخ أخبار البابليين والآشوريين والكلدانيين والآراميين وغيرهم ممن ترعرع آباؤهم في مهد الجزيرة العربية ثم

نزحوا منها الى البلدان المجاورة حيث شادوا دولاً عظيمة [illegible]
[illegible] في الدهر [illegible] آثارها واندرست . [illegible] العرب فكانوا
ولا يزالون منتشرين في مركز من اهم المراكز الجغرافية [illegible]
شرق هي [illegible] الوصل من [illegible]

ومنذ وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها [illegible]
العرب [illegible] في [illegible] من ثروة [illegible] و [illegible] شعورهم
الوطني [illegible] فهذه مصر [illegible] استقلالها [illegible]
[illegible] وهذا العراق بلاد الرافدين [illegible] متمسك في [illegible]
[illegible] وهذا [illegible] على الحرية [illegible] على واسط
الجزيرة [illegible] متمسك [illegible] وهذا [illegible]
[illegible] في الاقطار العربية [illegible]
[illegible] هذا النوع من الحكم الشعبي [illegible] لا [illegible]

[illegible]
من عصور الجاهلية [illegible] والاسلام [illegible]
منتشر اليوم في [illegible]
[illegible] واصوات المؤذنين [illegible] من [illegible]
[illegible] في جميع [illegible] في كل [illegible] من ساعات الليل والنهار
[illegible] الأجنبية [illegible]

وقد [illegible] العرب في تاريخ العصور على [illegible]
[illegible] ذلك الى الثقافة والعمران [illegible]
التي ارتفعت [illegible] على شواطئ الرافدين وعلى شواطئ البحر
الأبيض المتوسط [illegible] وفي وادي النيل [illegible]

واروبا [illegible] من [illegible] الى [illegible] [illegible] ومن

ثم [illegible] الى اوربا في عصورها المظلمة و[illegible] [illegible] فكانت من

[illegible] ذلك [illegible] في اوربا [illegible] [illegible] التي لم [illegible]

العالم العربي، ومنها الى امريكا [illegible] حتى اليوم [illegible].

وليس من [illegible] في القرون الوسطى [illegible] [illegible]

في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] على [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible].

ومن كان [illegible] العرب [illegible] [illegible] [illegible] كانت

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ومن كان

[illegible] العرب في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] في [illegible] والأدب

[illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] الأسلام

[illegible] من [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] العرب [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ثالث

الأديان الموحّدة [illegible] من [illegible] [illegible] هو [illegible]

الذي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] هذه الأديان

[illegible] في [illegible] [illegible] في [illegible] الروح [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] والعكس بالعكس.

[illegible] العرب في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] الى [illegible] [illegible] محمد [illegible] التوحيد [illegible] التي لا [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] من [illegible] [illegible] هذه

على حرب في ميادين القتال كالأكراد والمغول مثلاً . ومن ثمّ حقق التاريخ الواقعة في عصره هذا ان الاسلام لا يزال قوة فعالة في حياة الملايين من البشر من مراكش غرباً حتى اقصى الصين شرقاً ، بل لا يزال ديناً حياً يدين به نحو ثمن البشرية جمعاء .

إن اللغة العربية هي لغة وسيلة للمعرفة وتفاهم بين حوالي مليون من الناس . وقد كانت في اثناء بعض القرون الوسطى لغة العلم والثقافة والتقدم والعمران في العالم قاطبة . فكانت عدة المؤلفات الفلسفية والطبية والتاريخية والدينية والفلكية والجغرافية التي كتبت في خلال المدة الواقعة بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر للميلاد [illegible] باللغة العربية [illegible] ولا يزال أثر اللغة العربية ظاهراً في لغات اوربا [illegible] في اسماء عدد معروفات [illegible] وقد تحولت حروفها [illegible] الحروف انتشاراً بعد اللاتينية

والعرب اليوم احد عناصر في السلالة السامية ، [illegible] متقلدها من غيرهم من الساميين . فقد احتفظ العرب اكثر من سواهم على مميزات الأرومة السامية من جسدية ونفسية واجتماعية . وعلى الرغم من ان اللغة العربية هي احدث اللغات السامية من حيث الأدب المدون فقد حفظت اكثر من غيرها وشقيقاتها من اللغات السامية جميعها على خصائص اللغة السامية الأم

والاسلام هو ثالث الكتب [illegible] في مصدقه [illegible] السامية . على ان لفظة "سامي" [illegible] في اوربا وامريكا معنى غير معناها الصحيح ، و[illegible] استعمالها للدلالة على اليهودي دون سواه من

الشعوب السامية . ولا يميز هذا الخط سوى الجهل بما يحسبه الأوروبيون والأميركيون من «الملامح السامية» . كالأنف اليهودي مثلا — ليس هو سامي على الإطلاق بل هو ما يميز اليهودي من غيره من الساميين . وقد ورثه اليهود عن الحثيين والحوريين الذين اختلطوا بهم فيما بعد على طول التاريخ .

وتنحدر الأنساب إلى نمط عربي وعلى الأخص البدوي أخص ممثل للأرومة السامية ، مولوحاً ونسباً واجتماعاً والعرب في عزلته الجغرافية في الصحراء ، وعيشه بالتنقل ومسالك الحياة فيه وبه طرق عيش على ما كانت عليه منذ البدء وقد أبقاه النسب وحرر السلالة عن الهجرة والاختلاط لا سيما العزلة والانقطاع في وسط منه محروم وعيش ضيق كما هي الحال في واحة الجزيرة . والدليل في جزيرة العرب ، مثل قرب البداوة والطريقة تكاد الأنساب تحسب مقتضب الاسم الذي عاش فيه والتربة التي نتج عنها ولم يخرج منها إلا بعض شعوب هاجرت إلى جزيرة العرب وتوطنت مختلطة وواحات واختلطت بسكانها الأصليين كما هاجرت شعوب مجتمعة إلى بلاد أخرى مثلا واليونان ومصر وبلاد الانكليز والولايات المتحدة واقتصر ذلك ظهراني السكان الأصليين واختلطت بهم . ولم يذكر لنا التاريخ خبر شعب جنس فيه شعوب ما على الجزيرة وتغلبت على حصونها الرئيسة ، واستقرت فيها فسكان الجزيرة وعلى الأخص البدو بقوا على ما كانوا عليه منذ بدء التاريخ . وفي جزيرة العرب نشأ

أو لأحفاد الشعوب السامية من بابليين وآشوريين وكلدانيين وعموريين وآراميين وفينيقيين وعبرانيين وعرب وأحباش . وقد مضوا برهة من الزمن قبل ان يرحلوا عنه وصاروا الى ما صاروا اليه .

العرب الأصليون : البدو

البدو موضوع هام لكافة جميع الشعوب المتعلقة بالبدو في الجزيرة وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن والعراق وفي إيران أيضاً وتوجد في الصحراء المعروفة . وفي مصر وبرقة وتونس والمغرب الأقصى وفي صقلية والأندلس في أيام ازدهار الحضارة العربية فيها . ولا بد لنا أولاً من الوقوف هنيهة لندرس أحوال العرب الأصليين ، وهم البدو .

ليس البدوي رحالة أو ... يهيم على وجهه لا غاية له ولا قصد . إن البدوي أفضل من كيّف الحياة البشرية طبقاً لأحوال الصحراء الطبيعية . وحيث ينتهي المرعى يرحل ، وحيث ينزل فهو سيد حياته وزعيمها . والبداوة في الصحراء هو من عامة لا يعمل شيئاً ، في وسعه وسلطته ، عن قوانين الحياة الطبيعية في جواهر

المدن . وهي ضرب من المعيشة صدق راصدٌ يحوي بيئةً عسيرة
مُقِلّة . فمعظم بلاد العرب صحراء قاحلة ، والسكنى لا تصلح إلا في
قطع من أطراف محاورة للبحور المحيطة بها ، وفي عدد من الواحات
المنتشرة في أنحائها . وقد أطلق العرب على بلادهم اسم « الجزيرة » .
وهي كالجزيرة حقاً إذ تحيط بها البحور من جهات ثلاث وتكتنفها
الرمال من الجهة الرابعة .

وعلى الرغم من سعة البلاد ، إذ هي أكبر شبه جزيرة في العالم ،
فلا يزيد عدد سكانها على بضعة ملايين . ويقول علماء طبقات الأرض
إن الجزيرة كانت في ماضي من العصور متصلة بالصحراء الكبرى
الافريقية ومنطلقة برمالها الممتدة في عرض آسيا من أواسط إيران
حتى صحراء غربي الصين . ثم انفصلت عنها بفعل خسوف أرضي لا
تزال آثاره ظاهرة في وادي النيل والبحر الأحمر وخليج فارس .
وبلاد العرب أشد قطر في العالم حرارة ، وقلّما يجري على الرغم من
وقوعها بين بحرين هما البحر الأحمر وخليج فارس . وذلك لأن
هذين البحرين ضيقان ولا يؤثران في تعديل الاقليم والأجواء الحارة
المطلة على الأراضي المقابلة لمصر في القارتين الافريقية والأسيوية .

وقد يعود هذا الجفاف الشديد إلى الجنوب بفضل البعث على
الجزيرة ، إلا أن الريح الموسمية التي تسقي البلاد كلّ عام لا تترك
وراءها إلا القليل من الرطوبة في داخل الجزيرة . فلا عجب إذ
إذا تغنى شعراء العرب بنسيم الشمال وهبّاته الشرقية الخفيفة ، وهي
المعروفة عندهم بريح الصبا .

ولا يزال البدويّ يقطن بيوت الشعر كما قطنها أجداده من

من ، ويتجه بمواشيه إلى المراعي التي انتجعها أسلافه منذ عهد بعيد .
وهو يتخذ ثروته الحيوانية من الغنم والإبل والخيل غالباً ، ويتعاطى
القنص والغزو ولا يحترف ما سوى ذلك لأن هذه وحدها هي التي
تليق به ، ولأن الزراعة والتجارة والصناعة على اختلاف أنواعها
هي في عرفه دون مقامه شرفاً . والمناطق الزراعية التي تصلح
للفلاحة من أرض الجزيرة قليلة ، وإن الحنطة تكاد لا تزرع فيها ،
ومن هنا عدّ البدوي الخبز من كماليات الغذاء .

وقد نبت في الجزيرة بعض الشجر كالنخيل والكرمة . والبن
الذي جلبه المسلمون من بلاد الحبشة في القرن الرابع عشر أصبح
وغيرها . وتنمو في الواحات الموز وقصب السكر والقمح . ولا
يزال التمر واللبان والبخور والتوابل كما كان مصدر غنى في بلاد عرب
الجنوب معروفين هنالك .

ومناخ الجزيرة حار ، وهواؤها جاف ، وتربتها قاحلة مجدبة .
وليس في طول البلاد وعرضها نهر جار واحد يصب في البحر صالحة
للملاحة . وليس فيها غير سيول [illegible] للملاحة . فكل ما هنالك أودية
مشتركة تتدفق فيها السيول عندما تمطر ، وهذه الأودية صالحة
أخرى إذ تسير فيها القوافل وتسلك طريق الحج ولا يزال الحج
منذ فجر الإسلام حلقة الاتصال بين الجزيرة وسائر البلدان .

وقد رغب في احتلال الخصب الذي يكتنف الجزيرة من الشمال
دون أن [illegible] البدوي [illegible] وبقي على ما كان عليه منذ
البدء ، واستمر مع شريكته الناقة والنخلة في الحياة الصحراوية حاكم
الصحراء المطلق وواحداً من ثالوث القديم ولا يشارك هذا الثالوث

في أمر الجزيرة سوى [illegible] وتعلم البدوي من شدة المراس

والصبر على الشدائد استطاع أن يشب خشناً يكاد لا يقوى شيء على

إسقاطه. وقد جلبت رقعة الجزيرة [illegible] وعن ضروريته [illegible] وعلى

قومه. و[illegible] له في خلاصة [illegible] العامة [illegible] تحاور

[illegible] بعض تقسيمه من الأمور [illegible] التعليم [illegible] شرائع وطاعة

والخضوع للسلطة [illegible] من بعد [illegible]

وكانت [illegible] السمعة في الواجبات [illegible]

وقد قامت على [illegible] من [illegible]

الحجر الأسود [illegible] في الإسلام [illegible] في العهد [illegible] من

الموت [illegible] الشعور الديني في قلب البدوي [illegible]

أعراب [illegible] ذلك [illegible] قوله : « الأعرابُ أشدُّ

كفراً ونفاقاً » (سورة التوبة) [illegible] الأمر كذلك حتى

يومنا هذا [illegible] البدوي [illegible] الاعتراف [illegible]

ويظهر في عقلية البدوي [illegible] صحرائه القاحلة وجدبه

الصخري [illegible] وعظم وعضل وعصب وطعامه

مقتصر على التمر ولحم الإبل في حالات [illegible] شرابه الرئيسي لبن

النوق. وهو يصنع [illegible] من عصير التمر [illegible]

محروساً. [illegible] الأسودين أي التمر

والماء.

« الأسودان [illegible] والتمر [illegible] »

أما لباس البدوي فبسيط مثل قوته. وهو لا يتعدى قميصاً

طويلاً [illegible] يشده على [illegible] وعباءة [illegible] وكوفية وعقالاً

على أنه هذا السودان فكلمة بدوي لا عرب ، وأما الأحمدية
فسدوه او وجود قلة الاستعمال .

وأهم حيوانات جزيرة العرب الإبل والخيل . وقد يصعب على العقل
أن يتصور الصحراء صالحة للعيش بدون الإبل ، فهي قوام حياة
البداوة ، ومطية تنقلهم ، ووسيلة معاملاتهم . لحمها غذاء ،
ولبنها شراب ، ووبرها لباس ، وبعرها وقود تشعل كل أولئك تحصل
بفضل الإبل . والإبل هي رفيقة البدوي التي لا تفارقه وحده ،
وقد يشرب لبنها بدلا من الماء الذي يحرم منه بعضه ويواره
[illegible]
[illegible]
[illegible] من الحشرات . والإبل أحب للبدوي نفسه الصحراء
فحسب [illegible] من أمه [illegible] من أبيه .

وفي يوم هذا [illegible] يعترفون بدعوة [illegible]
الوبر » [illegible] في الخصب ، [illegible] من أهل الوبر و [illegible]
وذكر [illegible] الرحالة [illegible] المشهور في [illegible]
عن [illegible] الرولا أنه لا يكاد يوجد فرد من أفرادهم شرب مرة ماء
من كرش الجمل . [illegible] ويدفع عصا في جوفه
حتى [illegible] ويستخرج [illegible] . وقد يصح هذا
[illegible] أن [illegible] على [illegible] الجمل له يوم أو يومان .

وقد كانت بلاد العرب مركز تربية الإبل الرئيسي في العالم
[illegible] الإبل أهم مواردها . ويدلك على مكانة الإبل في حياة البدو
ومعاملاتهم [illegible] في اللغة العربية ، على ما يقال ، ما يقرب من اسم

للابل بأنواعها المختلفة وألبانها وجلودها وأصوافها وأوبارها . وهو عدد
لا يضاهيه سوى عدد رؤوس الغنم . ويقول علماء الجيولوجيا إن
موطن الجمل الاصلي هو البلاد الاميركية ومنها تسرب في
العصور السابقة للتاريخ الى آسيا الشرقية ، فالوسطى ، فبلاد العرب
وأول ذكر للجمل في التاريخ يرتقي الى القرن الحادي عشر قبل
المسيح عندما غزا المديانيون فلسطين ودخلوها بالجمال ، على ما ورد
في سفر القضاة ٦ : ٥ .

أما الخيل ، وأصلها أيضاً أميركي ، فليست من ضروريات
الحياة في الصحراء ، ومن هنا لم يكن يتملكها منهم غير ذوي اليسر .
وعلى الرغم من شهرة الخيل في كتب العرب وظهورها في الحروب
فهي متأخرة . فقد جاءت هذه البلاد عن طريق سورية الى كانت
ملوك آرامية قد أدخلوا اليها الخيل في القرن الثامن عشر قبل
المسيح . وتوفرت للخيل في الجزيرة الاسباب لاحتفاظ نسبها خالصاً
بعيداً عن الاختلاط . وقد اشتهرت الخيل العربية بجمالها وقوتها
على تحمل الشدائد وذكائها ووفائها نحو صاحبها واخلاصها له . والخيل
العربية الاصيلة هي مثال ما يحسبه الفرنسيون أفضل صفات الخيل .
وقد أدخل العرب الخيل الاصيلة الى الاندلس في القرن الثامن
للميلاد ، ولا تزال خصائصها ظاهرة في الخيول الاندلسية والمغربية
حتى يومنا هذا . حتى اذا كانت الحروب الصليبية امتزج دم الخيول
الانكليزية بدم الخيول العربية الاصيلة .

وأهم ما يحصل العربي من النخل ثمره ، وعند البدو لا يصح
غذاء وهي تستخدم أيضاً في السقف والعصي ، وإذا عزّ الماء في

يحمر احـــدى القبائل وضيع الابل ونقلا عن بعضهم من يعطش لم
يكترث رب البيت به بل أصرّ على تقديم شاة للضيف ، ولا ، ولما
بقي منه شيء دفعه الى الحاشية .

ويعتبر الغزو ضرباً من ضروب اللصوصيـــة ، وان شئت .
ولكنه تحكمه عوامل عدة : البداوة الاقتصادية والاجتماعية وتدفعه من
وضعهم ودركهن من ركائب في الصحراء ، حيث انقلب غريزة
ملازمة لطبيعـــة الفرد ، فصار الغزو حسبه بالرحال وسعيه من
سبل الرحلة وهو يقتصر ذلك على فريق دون آخر بل شمل العرب
جميعاً من نصارى وغيرهم .

والغزو عند العرب ناحية من نواحي اللهو البدوي والعرف
الشائع يقضي بأن لا يسفك الدم ، وانه لا يستعمل الا عند الضرورة . وقد
نص الغزو على ... ان ... غير انه
لا يرد في ... في البلاد من الاموات ، وكثير ما ... بعض
القبائل لجمعه او الاموال الدارجة في الحدود التي ... فيها مقاتل
الغزوة ... في حب امه

على ان ... من ... الغزو ... فيها ندى
بدوي في ... جواد اصيلاً
على الخوار ... ، ... شعراء ... الحماسة
ولقد ... هذه الظاهرة ... افضل ... الا ... ، لا
شرك في ذلك سوى ... البدوي ... الى
... ودواعي ... من سكان ...
الى ... في سبيل الاستيلاء عليها ، ... الوعي عن

الفرد . فعلى هذا الاساس نجد قوى الطبيعة القاسية التي تستولي على الصحراء يولد في نفسه الشعور بضرورة الصداقة فيحب واحداً مقابلاً . واذا ابى البدوي ان يحمي صديقه الغريب أو ردّه حتف أو لحق به أذى فقد ان احترامه وانه يحدث لا يسيء الى العرف الشائع وان شرفه يتحسس من يسيء اليه انه يمسه .

ويقوم نظام المجتمع البدوي على العشيرة . والعشيرة هي مجموعة افراد تجمع واحد وانه ينوب من الشعر يعطي كل عائلة واحدة منهم . ويكوّن العشائر المتقاربة النسب قبيلة واحدة . ويعتبر افراد العشيرة انهم من دم واحد ، ويخضعون لسلطة الشيخ وحده . وهو اكبر رجال العشيرة سناً . وقرابة الدم هذه اكثر جسمية وعصبية الاجتماعي وانه ان يعني التحمل على القبيلة شيئاً من دم احد افرادها . ولا شك في ان هذه العصبية هي العامل الاكبر في توحيد شعور الافراد في العشيرة .

ولا يملك الفرد إلا بيت الشعر ومحتوياته . غير ان الماء والمرعى والارض التي تصلح للفلاحة هي ملك مشاع للعشيرة بأجمعها .

واذا قتل البدوي آخر من عشيرته لا يجري الدفاع عنه بحد فاذا هرب اصبح طريداً خارجاً عن نطاق العشيرة . اما اذا قتل أحداً من عشيرة ثانية فحكم الثأر بين العشيرتين حتى تستوفي الواحدة ثأرها من الاخرى بقتل احد افرادها .

فالدم في عرف الصحراء لا عوض عنه إلا بالدم ، ولا جزاء لمقترفه غير القتل . والتبعة الاولى تقع على عاتق الاقربين . وقد يتطاول الثأر حتى يستغرق اربعين سنة . وحدث ان ذكر هنا ان

الثأر كان سبباً هاماً في الحروب القائمة في الجاهلية المعروفة بأيام العرب وهو يضاف الى العوامل الاقتصادية في ذلك. والعصبية تمكن الفرد البدوي الذي هي حصن له، وخروجه عن عصبيته لقبيلته وخروجه عن جماعتها، يجعله شريداً طريداً لا حامي له ولا مجير.

فالعصبية القبلية تتطلب ولاء مطلقاً لأفراد القبيلة كلها. وهذا الولاء هو روح الفردية في البدوي مكبّرة بحيث يشمل سائر افراد العشيرة. فيشعر الفرد بأن قبيلته حرة مستقلة وانها وحدة لا تتجزأ. ولا يرى مانعاً يردّه عن الاعتداء على غيره من القبائل وسلب ونهب افرادها. وقد استغلّ الاسلام هذا النظام القبلي في الفتوحات المتعددة. فقسم الجيش الى وحدات على اساس قبلي. واستوطنت بعض القبائل البلدان المفتوحة على مراحل على هذا الاساس نفسه، وأطلق المسلمون على غير العرب [illegible] من الداخلين في الاسلام من الشعوب المقهورة فسمّوا الموالي. والمولى في الاصل هو من ينحاز لاحدى القبائل عن رغبة في حمايتها فيصبح أحد افرادها. وبقيت هذه المميزات غير المستحبة [illegible] أي مميزات الفردية والعصبية القبلية ترافق الخلق العربي حتى بعد الاسلام فكانت من اهم عوامل الضعف والانحلال التي طرأت على الدول الاسلامية المختلفة.

ويمثل شيخ القبيلة في جميع شؤونها، وتتألف زعامته بصفة رئيسة في المجلس القبلي، وبكرمه وشجاعته ... في الشؤون القضائية والحربية وغيرها من الشؤون العامة فليس له سلطة مطلقة،

بل عليه ان ينظر فيه مع زعماء القبيلة [illegible] في [illegible] علي
ويبقى الشيخ شيخاً ما دام حافظاً على رضى قومه ، ولا فقد مركزه .

[illegible] العربي عامة والبدوي خاصة ديمقراطي بالطبع والنزعة فهو يحترم نفسه [illegible] الشيخ القبيلة ، وهو ينظر الى الامور بعين [illegible] [illegible] كلمة [illegible] ، إلا اذا اشار الى الملوك الاجانب . غير انه من ناحية ثانية ارستقراطي [illegible] لا ابعد [illegible] وبعد الامة العربية اشرف [illegible] [illegible] الجنس البشري دونه قيمة وسعادة وهو فخور [illegible] وشعره وفصاحته ونسبه وحسبه [illegible] اجداده . وقد يعمد الى إرجاع نسبه الى آدم .

[illegible] المرأة البدوية سواء كانت اسلامية ام جاهلية ، فقد كان [illegible] [illegible] خيرة [illegible] [illegible] اذا كانت قد عاشت [illegible] في [illegible] حدثت [illegible] وكان الرجل [illegible] في [illegible] زوجها وفي [illegible] [illegible] [illegible] حتى [illegible] الشخصي

ومن [illegible] البدو مقدرتهم على [illegible] الاخرى [illegible] [illegible] القوى العقلية التي كانت [illegible] اجل [illegible] قوى متحركة [illegible] لا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الخصب [illegible] في [illegible] ، وموسى في [illegible] في مصر ، [illegible] في [illegible] ، و[illegible]

الرشيد في بغداد، وبنت أمهات المدن، كمصر وبخارى، التي لا تزال آثارها تدهش العالم بأجمعه. ولكن لا شك فيه أن ازدهار الدولة الاسلامية في أوائل عهـــدها يرجع بعض أسبابه الى تلك القوى الكامنة في سمو الدين عندهم، كما في تطور الحضارة، واحساس العرب بوحدة الاسلام.

قبل فجر الإسلام

مع أن التنقيب [illegible] حروب العرب من [illegible] حملات في حتى يكشف [illegible] من الواقعات . لكن هذه مقتصرة على الأعلام الخارجية و[illegible] من اهتمامه وأول إشارة محققة على العرب وردت في رقيم شلمنصر الآشوري الذي دونه سنة ٨٥٤ ق م حملته على ملك دمشق وحلفائه . وكان من هؤلاء الحلفاء شيخ عربي . ومما يدل على روح ذلك العصر وحوادثه قول شلمنصر « قرقر مدينة مملكته دمرتها وهدمتها وأحرقتها بالنار ١٢٠٠ عربة ١٢٠٠ فارس ٢٠,٠٠٠ جندي من هدد عزر ملك آرام (دمشق) .... ١٠٠٠ جمل لجندب العربي » وجدير بالاعتبار أن أول ذكر عربي في التاريخ المدون جاء مصحوبا بذكر الجمل . وكان موقع قرقر بجوار حماه في شمالي سورية

لقد طغت صفة العربي ، فيما بعد ، على جميع سكان الجزيرة الى الآن ، فيجب ان نميز بين عرب الشمال : فهم عرب نجد ، وبين عرب الجنوب . فكما ان الجزيرة مقسمة الى قسمين جغرافيين تتوسطهما صحراء بينهما ، كذلك سكانها مقسمون الى شماليين وجنوبيين . ويسمى عرب الشمال خصوم البحر المتوسط اما عرب الجنوب فينتسبون للجنس السامي ، ويسمى ايضاً الارمني او الحثي او العبري . ومن مميزاته البنت العربي ، والانف الاقنى ، والخد المستدير ، والشعر الكثيف . وقد سبق عرب الجنوب عرب الشمال في الثقافة والحضارة ، ثم ظهر عرب الشمال على المسرح العالمي حين بزوغ الاسلام في العصور الوسطى . ولا بد من هذا التمييز بين عرب الشمال وعرب الجنوب . والاختلاف بينهم لا يزال على الرغم من محاولة الاسلام توحيد الامة العربية . وقد كان لهذا الاختلاف شأن كبير في اضعاف مقومات الدولة العربية .

وقد كانت الجزيرة منذ زمن بعيد [illegible] الاولى لاغتراب بينهم ، فلاحقت الى غرب عند شبه جزيرة سيناء موقع الطور المشهور - في الشمال . وانحدرت طرق من هنالك الى الجزيرة الى شرق الجزيرة فحدث الشيء ، ومن ثم انقطعت عند خليج العقبة والبحر الاحمر . وفي ايام السلالة الفرعونية الثامنة عشرة حوالي ٣٠٠٠ ق . م . ، وصلت قوة الفراعنة الى الساحل الشرقي لبرزخ البحر الأحمر ومن ثم غزت عسيراً ومن حتى عدن سنة [illegible] ، وابحرت عدد من السفن [illegible] الغرب وبناء اسطولهم حتى اكتشف الطريق البحرية للهند حول

رأس الوحدة الصحية سنة ١٤٩٧ أما في الجنوب فتقع الجزيرة عن [illegible]
[illegible] درب الأربعين ، وعرضه خمسة عشر ميلا .

ولم يكن للعرب قبل الإسلام أهل حرب وشدة بل أهل تجارة وأسفار . فكان [illegible] في الجنوب كانت حلقة الوصل بين [illegible] وافريقيا . وفي الشمال ازدهرت [illegible] عظيمتان كانتا تقومان على طرق القوافل وهما [illegible] و [illegible] المدن [illegible] في [illegible] ولا تزال خرائبهما [illegible] تجذب السياح من أقاصي الأرض . وكانت [illegible] الصحراء [illegible] أوج عزها وثروتها [illegible] في العصر [illegible] الأول [illegible] وموقعها في الصحراء [illegible] امبراطوري الرومان والبارثيين الفرس [illegible] ذات الغنى والطموح التي اتخذت لنفسها لقب ملكة الشرق ، ووضعت [illegible] الامبراطورية الرومانية فضمت مصر وآسيا [illegible] كثيرا من [illegible] الصغرى . ولما هزم الامبراطور [illegible] في معركة قرب حمص سنة ٢٧٢م [illegible] الصحراء على [illegible] . غير أنها أسرت [illegible] بسلاسل ذهبية حسب عادات ذلك الزمن

ومن الحوادث الأخرى ذات الشأن في تاريخ الخارجة [illegible] العمالقة [illegible] في [illegible] من [illegible] فلسطين ، حوالي سنة ١٢٢٥ ق . م [illegible] مديان وهي [illegible] من [illegible] الأراضي الواقعة شرقي [illegible]

اله بني اسرائيل وهناك تزوج [illegible] موسى من امرأة عربية
كان ابوها كاهن مدين (خروج ٣ : ١ و ١٨ : ١٠ – ١٢) . وقد
كان هذا الزواج من اهم حوادث التاريخ . كانت زوجة موسى
ابنة كاهن مدين يثرو ، وهو الذي صار يعرف [illegible] فيما بعد
وكان يعرف الصحراء جيداً وخبيراً في الوقت نفسه . فمكنه
[illegible] [illegible] لا يتصدى [illegible] الصحراوية
والمتاعب [illegible] . والغالب ان موسى وجد هذا [illegible] الذي
[illegible] [illegible] من [illegible] [illegible] [illegible]

ويمكن [illegible] في عهد [illegible] [illegible] ان [illegible] من
الصحراء [illegible] [illegible] [illegible] يسكنون في [illegible] التي
كانوا يعيشون في شبه الجزيرة او الصحراء السورية ، ويشبهون الى
حد ما [illegible] [illegible] [illegible] كانوا على الارجح عرباً
من [illegible] . والواقع [illegible] [illegible] في شعر في [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ومن الممكن ان [illegible] من
المشرق [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] يكونوا [illegible] من فارس
على [illegible] [illegible] [illegible] من صحراء [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] في العهد [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] كان
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] "الاقوام" [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] فوق كل شيء هو ظهور الاسلام [illegible]
الاسلام [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] التي كان [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الشمس كما [illegible] [illegible]

قوم رعاة يقضون بلاداً حارة ويستلذون برودة الظل [illegible]
قطعانهم ، في حين يستنكرون حرارة الشمس . والشمس لا تدخل
في صفوف آلهتهم [illegible] لا بعد دخولهم في طور الزراعة وإدراكهم
فاعلية الشمس فيها . وأخيراً بعد عبادة الأجسام في حقول الحرية
وعرضها درجة [illegible] تحدث القوة الروحية وكانت
قد ظهرت آراء دينية [illegible] في شكل طقوس
دينية ، وأحدثت بعض المؤثرات [illegible] ولكن
الفكرة [illegible] العرب [illegible] الأدب
[illegible] لظهور [illegible] .

و[illegible] المسلمون العهد [illegible] الظهور [illegible] غير أن
هذه التسمية لا [illegible] على الواقع [illegible] بعض الأعصر
[illegible] الجزيرة [illegible] عرب [illegible] طريقة
[illegible] في [illegible] لكن
[illegible]

والعرب [illegible] شعوب [illegible]
[illegible] ولا
يكون [illegible] في [illegible]

[illegible] دمشق والقاهرة اليوم [illegible]
[illegible] أو [illegible]
[illegible] والموسيقى [illegible] في
النفس [illegible] السحر الحلال .

والعرب [illegible]

أصبحوا لطبعهم لسنة العرب في مجرى واحد، هو فن الكلام

قد تمكّن اليوناني بمثله وبسطه [illegible] محمد العربي بقصيدته ولغة القرآن

موروثه، ووجدوا فيه طريقة أخرى لتعبير أعلى، وفي مثل

العرب «حمل أمره في فصاحة [illegible]» وزعمهم يعدّوا الشعر

[illegible] بحكمه، وأهل [illegible] [illegible]، والأعراب ببلاغه

المتحقق. وقد عدّ عرب [illegible] لفصاحته وإرادته وأعروسه

[illegible] [illegible] ببلاغة. والعربية [illegible] تركيبها [illegible]

[illegible] وكثير [illegible] [illegible] [illegible] الإسلام [illegible]

[illegible] كما [illegible] [illegible] [illegible] معجزة في

أسلوبه وتركيبه [illegible] [illegible] الإعجاز [illegible] يستطيع [illegible]

على صحته [illegible]. [illegible] [illegible] الإسلام [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] كتب.

[illegible] [illegible] في [illegible] إلى الشعر [illegible] إليه كان

[illegible] [illegible] [illegible] شعرهم [illegible] [illegible] في

[illegible] الاجتماعية. [illegible] في معركة كان [illegible]

[illegible]. أما في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الاضطراب

والإشفاق. وقد [illegible] [illegible] كما [illegible] [illegible] الناس

في [illegible] [illegible] والاجتماعية في [illegible] [illegible] ولما كان الشاعر

[illegible] في يومه [illegible] [illegible] الأمراء [illegible] [illegible] [illegible].

فشعره الذي [illegible] [illegible] [illegible] الأسى كان أداة [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] وكان [illegible] العطاء

على الشعر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الناس.

ولم يكن الشعر ترفاً وهدفاً وحصناً ومثلاً للعناية فحسب ،
بل كان عتاباً ومؤرخاً ايضاً . وكان الشعر مقدساً [illegible] عند
البدو على حدّ قول احدهم . ومن شعر في من [illegible] يرثي في حي
عامر بن صعصعة [illegible] أشعراء وعدداً [illegible] . والقصيدة
كانت تتوقف على احسن صوت الخيمة وذكاء افرادها وعددهم
والشعر الجاهلي دون طرافته ورشاقته في اخذه [illegible] حقاً
اذ يحتوي على الكثير من المعلومات [illegible] عصر [illegible]
ويكاد يكون المرجع الوحيد لمعرفة [illegible] في جميع ادوار
وأطواره . حتى ان « الشعر ديوان العرب »

ولم يكن [illegible] في حس البدوي قبل فجر الاسلام ، [illegible]
من شعره ، غير اثر حسي . واذا كانت [illegible] من بعض النصوص
[illegible] من [illegible] احترام [illegible] ،
[illegible] لا تكاد تجد [illegible] لا واحداً [illegible] او حشو [illegible]
ديني . واعتقد البدوي ان الصحراء ملأى بالجن [illegible] الجن
عن الآلهة في [illegible] وكانت علاقة
الآلهة في [illegible] علاقة الجن [illegible] عند المحقق لا
تشخيص للوادي الصحراء القاسية وحيواناتها الضارية [illegible] وقد بقي
الجن حتى بعد الاسلام ، وازدادت [illegible] الآلهة الوثنية
منزلة الجن

وفي مدينة مكة من [illegible] الاخيرة التي تقف [illegible]
[illegible] كان واحداً من الآلهة المعبودة
يدعى [illegible] . وهو [illegible] اعتبره اهل مكة الخالق الرازق

والتجأوا اليه في أحرج مواقفهم . حتى اذا هتف رجل منهم بكلمة في كلام أصبح منذ [illegible] في العربية : لا إله إلا الله ، دوّى صدى هتافه في الكون المعمور ، ودفع بأهل الصحراء الى أطراف العالم الأوسع فاتحين غالبين .

مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله

يجمع المؤرخون ان محمداً ولد عام ٥٧١ م وهو المعروف عند بعض . وكان قد توفي والده وهو جنين ، ففقد بعد والدته قبل ان يتجاوز السادسة من عمره . ولقد دعته امه باسم قد يظل مجهولا الا ان الاسم الذي عرف به في القرآن فهو محمد ، وأشير اليه مرة واحدة فقط باسم أحمد . وقد أضفى عليه قومه لقب « الأمين » قومه . وكثر تداول هذا الاسم « محمد » الى ان اصبح عدد الذكور الذين يعرفون به اليوم يفوق عدد كل من تسمى باسم آخر . وينتسب محمد الى قبيلة قريش ، وكانت من أسمى عشائر الجزيرة مركزاً ، تتولى سدانة الكعبة (١) في مكة . وكانت الكعبة تضم بين جدرانها اصناماً كثيرة ، وحولها انصاب عديدة ، وهي متجه انظار العرب

---

(١) سدانة الكعبة : خدمتها .

الجن في عقيدتهم من الخضوع يؤدوا فيها فرائضهم الدينية .

وعلى الرغم من ان محمداً كان من اولئك الانبياء الذين ظهروا في العصور مؤرخة فاننا لا نعرف الا اليسير عن حداثته . وليس لدينا كثير من المعلومات الموثوق بها عن كيفية نشأته وعيشه ، وجهوده في تحصيل شؤونه ، والاحوال التي عاونته في اعداد نفسه للمهمة الكبرى التي كانت تنتظره .

ومن هذا العصر الواضح من حداثة محمد حتى بلغ الخامسة والعشرين ، حين تزوج من خديجة وهي في الاربعين . وكانت خديجة ارملة قرشية ثرية ذات تجارة تستخدم الرجال في تجارتها مستقلة وتستأجر الرجال . وكان من مستخدميها الشاب محمد حتى تزوجته فيما بعد من المدينة . ان محمداً فكان يحب ولم يكن يفكر في الزواج من امرأة ثانية مع وجود خديجة ذات الشخصية البارزة والصفات الممتازة في حياتها .

ولكن لم يكن محمد في زواجه خديجة طامحاً الى متاع الدنيا فسعى به الى المطالعة سمو نفسه ، فقد كان يخلو بنفسه في غار حراء خارج مكة ، يقضي في التأمل والعبادة ويتحنث الليالي ذوات العدد . وفيما هو نائم يوماً في الغار ، سمع صوتاً يأمره قائلاً : اقرأ ، وهو باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق . (سورة العلق) فكان هذا اول عهده بالوحي ، ومكث برهة اصابته فيها رعدة الخوف ، فأسرع الى بيته وهو في أشد حالات الاضطراب العصبي ، وسأل خديجة ان تزمله ، فزملته وهو يرتعش فجاءه الوحي ثانية : يا ايها المدثر قم فانذر وربك فكبر (سورة المدثر) وانقطعت عليه الاصوات ، واشتكل بعد ذلك ،

وحدث احياناً كأنه صلصلة الاجراس ، فعراه خوف وحدث تحيرٌ ووجفت ، واذا به يتحقق ان هـــذا الصوت هو صوت الملاك جبريل .

وتشبه رسالة النبي العربي محمد رسالات الانبيــاء العبرانيين في العهد القديم . وتتلخص دعوتـه في ان الله واحـــد ، لا اله الا هو ، وانه مبدع الكون وخالق الوجود ، وانه على كل شيء قدير ، وان هنالك يوم دين ، وان الناس يجزون بأعمالهم فمن عمل صالحاً فله جنات النعيم ، ومن عمل طالحاً فله نار الجحيم .

أيقن محمد بحسب ان الله اختاره رسولاً ليؤدي رسالة الحق ، فوثق من نفسه ، واخذ يخرج الى قومه مبشراً هادياً يدعو الى الحق وينهى عن الباطل . واخـــذ قومه يستمعون ، ويستغربون رسالته ، غير ان ذلك لم يكن ليفت في عضده ، بل استمر يعظ الناس محذراً منذراً ، ويجد في تحقيق الشبه التي احدثها اعداؤه . فكان يقف ويشرح للناس ملذات الجنة ونعيمها واهوال جهنم ويرهب بعذابها الذي لا عوض عنه . وكثيراً ما هدد بعضهم بيوم الدين المخيف ، ورغم هذا لم يؤمن برسالته الا نفر قليل . وكان اول من آمن زوجته خديجـــة ثم تلاها ابن عمه علي ، وصديقه ابو بكر . اما الفئة الارستقراطية ذات النفوذ في قبيلة قريش فقد كانت منكرة تقاومه مقاومة شديدة وتضيّق عليه بلا هوادة . ولما اخذ عدد المؤمنين يزداد تدريجياً ، وجلهم من العبيد والمستضعفين ، خاف القرشيون من اتساع نفوذه ومن خطر رسالته على مصالحهم التجارية والاجتماعية . وتنبهوا الى ان الهجرة التي حرضوه بها لم تكن فعالة كما أملوا فلجأوا

الى اضطهاده والتنكيل به وباتباعه . فكان من جراء ذلك أن نزحت احدى عشرة اسرة مكية مؤمنة الى بلاد الحبشة ، وتبعها في عام ٦١٥ ثمان وثلاثون اسرة اخرى . ووجد هؤلاء المسلمون في جوار النجاشي النصراني امناً وعطفاً . وادى هذا الى تسليمهم الى ظلمهم . ومع كل حسرة محمد هؤلاء الاتباع في تلك الايام العصيبة وخلال هذه الفترة من الاضطهاد اشتد لاضطهاد من عزيمته فاستمر يبث دعوته ويدعو الناس الى عبادة اله واحد هو الاله الحق . وظل الوحي يلهمه والآيات تنزل عليه . وود لو ان لقومه كتاباً كالذي في ايدي اليهود والنصارى . ومن ثم الكتاب الذي اثار في نفسه الاعجاب

ولم يمض زمن حتى اهتدى عرب الحجاز ، فوجد الاسلام فيه منعة ، ولقد مثّلت المدينة بعد دوراً هاماً في تأسيس الدولة الاسلامية حديثة كما سنرى بعد ، وفي هذه الحقبة كان الاسراء والمعراج ، وتفصيل ذلك انه اسري بمحمد ليلاً من مكة الى بيت المقدس ، وهو البلد الذي قدسه اليهود والنصارى ومن هناك استأنف محمد رحلته الى السماء السابعة على دابته العجيبة البراق . وبذلك اصبح بيت المقدس اخرى ثالث مدينة بعد مكة والمدينة في نظر العالم الاسلامي . وقد اضحت قصة الاسراء الواناً زاهية رائعة على مرور الاجيال . ولا تزال حوادث المتصوفة في ايران وتركيا تعير لحديث الاسراء وزناً كبيراً . ويعتقد بعض الباحثين ان الاسراء والمعراج مصدر « الكوميديا الالهية » التي وضعها الشاعر الايطالي الخالد دانتي . ولم يبق على تأثر المسلمين اليوم بذكرى الاسراء ما

حدث في آب من عام ١٩٢٩ في فلسطين من حيث حائط المبكى،
عند اليهود، في بيت المقدس، وهو الذي يعدّه المسلمون الموضع
الذي ربط عنده محمدٌ البراق في طريقه الى السماء. وبعد عامين من
الاسراء، جاء محمداً من يثرب، سبعة نفر من أهلها، ووفدٌ مؤلف
من خمسة وسبعين رجلاً، فدعوه ودعوه الى المجيء الى يثرب
مسكناً. واذ كان عرب يثرب على اتصال بمواطنيهم اليهود الذين
كانوا يترقبون ظهور المسيح فقد استعدوا الى ان يكونوا أكثر
استعداداً لاستماع صاحب الرسالة من أهل مكة. وزاد هذا في
خوف قريش وامعانهم في اضطهاد المسلمين. فأوعز محمد الى من بقي
من أتباعه ان يتسللوا متفرقين الى المدينة بعيداً عن عيون قريش
ولحقهم هو بنفسه مع صاحبه في ٢٤ ايلول عام ٦٢٢. وهكذا كانت الهجرة
التي لم تكن فراراً فحسب بل خطة مدبرة من قبل عامين. وأصبحت
السنة التي هاجر فيها الرسول الى يثرب ابتداء من ١٦ تموز بدء
التقويم الاسلامي القمري كما اقرّه الخليفة عمر بعد سبعة عشر عاماً
من الهجرة. وعُرفت يثرب من بعد ذلك بالمدينة، أي مدينة النبي.

هدأت العاصفة اذن بعض الشيء، واطمأن محمد بعد تآخي المسلمين
في المدينة وبدء دور جديد من أدوار حياته، هو الدور السياسي
الذي اهتم فيه بمصالح المؤمنين من مهاجرين وأنصار. ولما وثق
من استقرار الامور استغل فرصة الاشهر الحُرُم وخرج على رأس
فئة من أتباعه يعترض قافلة قرشية قادمة من الشام الى مكة
واحسّ زعيم القافلة بالخطر فطلب نجدة من مكة. ولكن هذه
المعركة التي عرفت بوقعة بدر أسفرت عن انتصار ثلاثمئة من المسلمين

على أكثر من ألف من المشركين . وعلى الرغم من أن هذه الموقعة كانت وقعة حربية ضئيلة فقد كانت حجر الزاوية في تأسيس سلطة محمد الزمنية . وقد رأى الناس هذا النصر العظيم بأنه معجزة تدل على تأييد الله للإيمان الجديد

وتجلى في المسلمين في معركتهم الأولى روح التضامن والشجاعة والازدراء بالموت ، وهي صفات لازمتهم في معاركهم الكبرى إبان عصر الفتوحات . ومع أن المشركين أخذوا بثأرهم في العام التالي وجرحوا النبي ، فإن انتصارهم [illegible] ، إذ استرد المسلمون حرمتهم واستطاعوا من دون صعوبة [illegible] . وقد دفعهم [illegible] بسرعة . وقد كان حتى ذلك الوقت عبارة عن دين ضعيف الجانب خاضع للسلطة المحلية . أما الآن فقد أصبح لا دين دولة فحسب بل الدولة نفسها . ومنذ ذلك الحين صار الإسلام ولا يزال قوة حربية سياسية .

وشهر محمد حربا على اليهود من أهل المدينة وأرغمهم [illegible] فعمل منهم [illegible] إلى أهم القبائل اليهودية ، وأجلى البعض منهم ، واستولى المهاجرون على مزارعهم . ولم تكن هذه القبائل هي الوحيدة في مخاصمة الإسلام ، كما لم تكن آخر القبائل التي خيّرها النبي بين الاستسلام والموت

وفي هذه الحقبة من حياة النبي في المدينة صار تنظيم الإسلام وجهة عربية قومية . وانفصمت صلة الإسلام بمذهبي اليهودية والنصرانية . وحلّ يوم الجمعة للصلاة الأسبوعية . وحلّ الأذان محل النواقيس والأبواق ، واختص رمضان شهرا للصوم . وتحولت

القبلة من بيت المقدس الى مكة . وأخيراً الحج الى مكة وتقبيل
الحجر الاسود ، وهو من فروض الدين المرعية في الجاهلية

وفي عام ٦٢٨ حج محمد على رأس الف واربعمائة مؤمن الى
مكة ، مسقط رأسه ، وارغم قريشاً على توقيع معاهدة تسوي فيه
حقوق المكيين والمسلمين . فانقطع بذلك النزاع الذي استفحل
بينه وبين اهله القرشيين ، ولو الى حين . وفي خلال هذه الفترة من
الزمن أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وقد كانا في الجاهلية
رجلين من قريش مشهورين ، ثم لم يلبثا بعد ان رفعا لواء
الاسلام عالياً واصبحا سيفه الحاد . وتم احتلال مكة احتلالا
كاملا في آخر كانون الثاني من عام ٦٣٠ ، ٨ هـ . فدخل محمد
الكعبة فحطم الاصنام التي قيل ان عددها كان يربو على ثلاثمئة
وستين ونادى قائلا : جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل
كان زهوقاً . [illegible] محمداً حطم الاصنام وعفا عن اهل مكة ،
وعفا عن مقاومته وعن الذين ساءت [illegible] . وقد ضرب محمد في
التاريخ مثلاً للعفو عند المقدرة [illegible] هذا المثال

وقد جعل محمد في هذه الحقبة الكعبة [illegible] حراما
لا يجوز للمشركين الاقتراب منه [illegible] الآية التي ذهب المفسرون
الى ان الله قد حرّم فيها على غير المسلمين الاقتراب من الكعبة وربما
كان المقصود من هذه الآية منع المشركين من المجيء الى الكعبة في
موسم الحج . على ان قول المفسرين لا يزال متبعاً . ولا يزيد عدد
النصارى الاوروبيين الذين وفقوا الى زيارة الحرمين الشريفين
و [illegible] عن خمسة عشر رجلا [illegible] تاريخها

من اهلها بولونيه في عام ١٥٠٣ وآخرهم الدوق بيرو الانكليزي . اما الذي كتب اتم وصف لزيارته فكان الاوربي السر ريتشرد برتون ١٨٥٣ .

وعقد محمد في العام التاسع من الهجرة معاهدات حسن جوار مع صاحب عقبة نصراني في شمال ، ومع قبائل يهود المقيمة في واحات مقنا وأذرح والجربا الى الجنوب . وجعلت جماعات اليهود والنصارى في حمى الاسلام ورعايته بدفع الجزية والخراج وصارت هذه الجزية ... عادة ... في ... سياسة الاسلامية فيما بعد .

وعرف هذا العام التاسع من الهجرة ٦٣٠ – ٣١ بعام الوفود ، اذ فيه جاءت جماعات من كل حدب وصوب معلنة الطاعة والولاء للنبي الأمين من نجران العربية ومن حضرموت واليمن . اما العشائر الكبيرة فكانت ترسل الوفود . ولقد اعتنق كثير من هذه قبائل الاسلام عن مصلحة شخصية اكثر مما اعتنقته عن اقتناع روحي . فيكفي الاسلام منهم بشهادة المسلم مع دفع الزكاة . وهكذا حدثت الجزيرة العربية التي لم تخضع قط في ... الايام ... وحدة تخضع لسلطة محمد وتعلن الطاعة له . ولم يمض عشرون عاماً على الانحراف في طاعة الحاكم وتفرقت شيئاً فشيئاً ... اهلها ... ارجع .

وفي العام العاشر من الهجرة دخل محمد عاصمة المدينة مكة على رأس موكب من الحجاج ... . فكانت هذه آخر زيارات النبي مكة فسميت حجة الوداع . وتوفي بعد ثلاثة اشهر من رجوع

أصيب في المدينة بمرض وشكا صداعاً في الرأس شديداً توفي على أثره
في الثامن من حزيران عام ٦٣٢ .

وفي العهد المدني نزلت سور القرآن الطويلة ، وكانت تبحث فصلاً
عن الشرائع الدينية وفروض الصوم والصلاة وواجبات الجماعة
[illegible] وبحث مسائل الزواج والطلاق ومعاملة العبيد والأسرى
الحرب والأعداء . وقد أوصى القرآن خيراً بالعبد واليتيم والمسكين
والبائس والمحروم . أو لم يكن محمد [illegible] الرسول اليتيم [illegible] ؟

وعاش محمد حتى في أيام عزته وسلطانه حياة [illegible] لا
تكلف فيها ولا تظاهر . كان [illegible] في الدقة ،
[illegible] من الصوف خشن لا يختلف عن ثياب الفقراء التي
يشهدها اليوم في الجزيرة وسورية . [illegible] وليس له لا
[illegible] واحد من [illegible] العرب . وكثير من شهوده
الناس [illegible] وكان يشعر الناس [illegible]
[illegible] ولا يرد أحداً من شخص صغير كان أو كبيراً . ويقول أحد
المستشرقين الانكليز إن عمل محمد [illegible] كانت أم كبيرة
تركت أبعد الأثر في نفوس حتى أصبحت قدوة يقتدي بها [illegible]
إلى يومنا الحاضر . ولم نجد في التاريخ البشري [illegible]
[illegible] الإنسان الكامل [illegible] التي [illegible]
محمد محمداً .

ولم يترك محمد لا ثروة [illegible] عادت إلى بيت المال . ولقد
تزوج من نحو اثنتي عشرة امرأة منهن من تزوجهن بدافع الحب
ومنهن من كان زواجه منها [illegible] سياسي واجتماعي . وكان منهن

الى عائشة بنت ابي بكر اثيرة من سواها من ازواجه وقد ولدت له خديجة عدة بنين وبنات مات البنون ولم يبق من نسلها الا فاطمة زوج علي ثم موت ابنه ابراهيم من مارية القبطية فقد ترك لوعة أليمة في نفسه .

ونشأت من الجماعة الدينية في المدينة من مهاجرين وانصار امة الاسلام وبقي البدو من حولهم . وكانت هذه الجماعة حجر الزاوية في بناء دولة الاسلام الواسعة . وفي الواقع كانت هذه اول محاولة في تاريخ الجزيرة العربية لتكوين امة مبنية على رابطة الدين وتحطم الاجتماعية لا على اساس العصبية القومية ، كما كانت الحال في الماضي . وبوحدانية العقيدة بان الله هو صاحب السلطة العليا وان محمداً خليفته على هذه الارض وخاتم الانبياء . وما دام الرسول في هذه الجماعة فهو المنفذ لأوامر الله والمرجع الأخير في شؤون الامة الدينية . وعلى اساس هذه العقيدة نرى محمداً جمع بين السلطة الزمنية بالاضافة الى السلطة الروحية ، وشرع في الحكم كما تمارسه رؤساء الدول في العالم . وعلى هذا الاساس اصبح المسلمون اخواناً في الدين والعقيدة فتبع التضامن وعاد النفع ، وكان خلاصهم من هذا ارضاء قبائلهم . وقد اكدت ذلك كله خطبة النبي في حجته الاخيرة في حجة الوداع : « ايها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن ان كل مسلم اخ للمسلم وان المسلمين اخوة فلا يحل لامرئ من اخيه الا ما اعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن انفسكم »

وهكذا قضى الاسلام دفعة واحدة على رابطة العصبية القوية في الجزيرة واستعاض عنها برابطة جديدة هي رابطة الدين فقامت

الجامعة الإسلامية ولا كهنوت فيه ورعاية دينية ذات رأي
وإرشادات وأوامر ، وأصبح المسجد فضلاً عن كونه بيت العبادة
منتدى اجتماعياً ودار ندوة تلقى فيه الخطب وتجري البحوث
والمحادثات ومحطة للتدريب العسكري . وصار الإمام يقود
المؤمنين في ساحات القتال كما يؤمهم في الصلاة . وفرض على
المسلمين الزكاة والإحسان ، وانتشر العلم بسرعة ، إذ إن العرب الذين اعتنقوا
الدين الجديد ضربوا على وتر الحماسة الروحية ، ووسع الإسلام ما
قبله . وفي هذه الوحدة حرم القرآن الخمر والميسر وكان [illegible] بعد
النساء ، أعز شأنهن على عهد العربي . وكذلك شمل الإسلام
العبيد الذي كانت تروى له عوض من الحرية حرية .

ومن المدهش أن المد الإسلامي في كافة أطراف الجزيرة
لم يمض عليه مدة قصيرة حتى اكتسح العربية و[illegible] الشمالية فعمت
جميع المسلمين في الأندلس مثلاً مصر وآسيا وجميع البلاد الجامعة الإسلامية
معاً . ولقد بنى محمد في مدينة عمر [illegible] هي
الوسائل [illegible] في تكوين أمة مترابطة من قبائل مختلفة متناحرة في
بلاد لم تكن تلك العهود إلا مجرد جغرافيا ، ولن [illegible] فقد
انتشرت بسرعة في أنحاء أقطار العالم كلها الديانتين اليهودية
والنصرانية . وفضلاً عن ذلك فقد وضع محمد حجر الأساس
لأعظم ثورة ثقافية [illegible] أخصب [illegible] العلم الحديث
يومئذ . واليوم يدين جزء كبير من العالم بالإسلام [illegible] معالم
هذا الرجل الأمي الذي كان الواسطة في إخراج كتاب لا يزال
ثلث سكان المعمورة [illegible] العقل في العلم والحكمة والدين .

القرآن والإيمان

ليس غريباً أن ترى في [illegible] ورقة من
الارض [illegible] مكاناً في [illegible] خشية أن تكون في سطورها
ذكر لله أو آية من القرآن [illegible] والمسلم [illegible] القرآن
كتاب الله [illegible] كلمة الله التي املاها
جبريل على محمد [illegible] ([illegible] سورة الواقعة)

ومع أن في [illegible] عدد
[illegible] القرآن هو الكتاب الذي [illegible]
[illegible] هو كتاب [illegible]
[illegible] في [illegible] اللغة العربية وليس
للقرآن ترجمة [illegible] الترجمة [illegible] ولكنه
[illegible] وأول ترجمة للقرآن الى

لغة اجنبية كانت في اللغة اللاتينية وتم بها في القرن الثاني عشر بحرص كلوني الملقب بالمحترم. وقد رمى بهذه الترجمة الى دحض معتقدات الاسلامية وتكذيب الرسول. أما اول ترجمة انكليزية فقد ظهرت عام ١٦٤٩ وقام بها الكسندر روس معتمداً على نسخة فرنسية ووضع لها الاسم [illegible] محمد. وهي ترجمة انكليزية حديثة وضعت ارضاء لرغبات من يود الاطلاع على [illegible].

وليس نجد في القرآن [illegible] كثيرة ولعل الاختلاف في القراءة كما هي الحال في بعض التوراة الاصلية. ولقد كان المؤمنون في البداية يحفظون سوره وآياته عن ظهر قلب، حتى اذا خشي القراء الحفاظ [illegible] الحروب شيئاً خطيراً. وقد تم جمع المصحف من قطع [illegible] جمع عثمان وهو [illegible] (النحل) وألواح اللخاف [illegible] الرقيقة ومن صدور [illegible]. [illegible] عثمان بن ثابت [illegible] القرآن الرسمي كاملاً وكان ذلك في [illegible] عثمان بعد موت النبي بخمسة عشر عاماً ولا زالت هذه النسخة هي النسخة [illegible] فلا يجوز الحذف منها ولا الزيادة عليها [illegible] بسبب الحروب [illegible] رحمه الله.

ولقد حسبت آيات القرآن فكانت ٦٠٢٣٦ آية وحسبت كلماته فكانت ٧٧٠٩٣٤ كلمة، وحسبت كذلك حروفه فكانت ٣٢٣٠٦٢١ حرفاً والقرآن هو [illegible] الاسلامي والهادي الى [illegible]، وهو فضلاً عن ذلك موجز علمي وبحث [illegible] . [illegible] مجموعة قوانين وشرائع تدبير شؤون مملكة على هذه الارض.

ولا يخفى على الناظر ان معظم ما تحتويه القرآن من حوادث
مرتبة امثالها تورية في التوراة . ومن رجال العهد القديم الذي
ورد ذكرهم في القرآن : آدم ونوح وابراهيم ، وورد ذكره سبعين
مرة ، واسماعيل ولوط ويوسف وموسى ، وورد ذكره في ٣٤
سورة ، وهرون واسحق وداود وسليمان والياس وايوب ويونس
وغيرهم . وقد ورد ذكر قصة خلقة وسقوط آدم خمس مرات
وورد ذكر قصة الطوفان ثماني مرات ، وقصة سدوم . والقرآن
لا يذكر شيئاً من رجال العهد الجديد سوى زكريا ويحيى يوحنا
المعمدان وعيسى ومريم . والآيات التي وردت فيهـا عبارات
كهذه : والعين بالعين ، [illegible] الخطيئة ، [illegible]
[illegible] على [illegible] ، كل نفس ذائقة الموت ، فلعلها
من الامثال السائرة [illegible] ، والاقوال المشتركة بين العبرانيين
والعرب فهي واردة في العهدين القديم والجديد . اما المعجزات
التي نسبها القرآن الى عيسى كالعون [illegible] ، وتكلمه الناس في المهد
(آل عمران ، والمائدة) وخلقه من الطين كهيئة الطير ، (آل
عمران) فهي من الخوارق التي جاء ذكرهـا فقط في الاناجيل
الابوكريفيه غير معترف بها كانجيل الطفولة .

والدين الاسلامي اقرب الى اليهودية القائمة على العهد القديم منه
الى النصرانية والعهد الجديد . ومع ذلك فعرفه من النصرانية كان
شديداً بحيث جعل الناس في اول عهده يدعونه نصرانية جديدة
لا ديناً مستقلاً ومن هؤلاء دانتي في روايته الكوميديا الالهية .

ومن ينظر في القرآن يجد ان ترتيب سوره جرى على أساس

الطول والقصر . فالسور المكية وهي نحو سبعين ترجع الى عهد
الجهاد في حياة النبي . وهي سور بنوع قصيرة موجزة جامعة ذات
اسلوب شعري ، فصيحة بحسب السورة ، ومحورها الدلالة على
وحدانية الله وصفاته وواجبات الانسان الادبية والحساب الاخير .
اما السور المدنية التي نزلت على محمد في عهد النصر فهي اربع
وعشرون وتسع نحو ثلث محتويات القرآن . وهي تتوسع مفصلة
عمله بنظم الشريعة ، وفيها وردت العقائد الدينية واحكام الصلاة
والصوم والحج والاشهر الحرم . وفيها اخذ شرائع تحريم الخمر
ولحم الخنزير والميسر واحكام عقوبة القتل والحرب وفروض الزكاة
والجهاد وقوانين مدنية وجزائية تتعلق بالقتل والثأر والسرقة
والربا والزواج والطلاق والارث والميراث واعتاق العبيد . اما
أحكام الزواج التي تكثر الاستشهاد بها في الغرب فهي في الواقع
محددة عدد الزوجات وقد كان غير محدد . وبعض الغربيين
يحسبون احكام الطلاق اشد الاحكام استنكارا ، والشرائع التي
تحمي عصمة العبد واليتيم والغريب اكثرها رفق وبر . ولقد علّم
القرآن ان عتق العبد هبة يرضاها الله من الانسان كفارة عن
ذنوبه .

والقرآن كتاب حي فعال له تأثير عميق في النفوس وخصوصاً
اذا تلي بتلاوته الاصلية . وبعض تأثيره في النفس راجع الى
ما هو عليه من حسن السبك وعذوبة السجع وانسجامه وموسيقى
الالفاظ والانغام . ومن العسير أو المستحيل ان يستطيع مترجم
نقل هذه المميزات في اسلوب انشائي رائع الى لغة اجنبية . وليس

القرآن كتاباً صحيح فصوله لا يزيد في الواقع على اربعة اخماس العهد
الجديد باللغة العربية . أما تأثير القرآن الديني في الاسلام وسلطته
الحازمة في الشؤون الروحية والادبية فناحية أخرى من نواحي
عظمته . والمسلمون الذين يحصلون علم الدين والفقه والعلوم الاخرى
يعرفون معرفة موضوع واحد يحفظون القرآن ويجب تحفيظهم من
كافة النواحي ومن هنا كان عندهم كتاباً مدرسياً يجب ان يحفظه
كل شاب للتعلم الحر . ولا يزال القرآن في الأزهر ، وهو اعظم
جامعة اسلامية في العالم ، اساس منهج الدراسة والتهذيب .
وللقرآن فضل كبير على الادب في صيانة اللغة العربية ، فلولاه
لأصبحت لهجات متعددة لغات مستقلة كما جرى للغات الرومانسية
التي كانت في اول عهدها لهجات من اللغة اللاتينية ، فمثلاً يلقى
العراقي اليوم صعوبة في فهم لغة المراكشي العامية ، ولكنه لا يعاني
جهداً في ادراك لغة مراكش المكتوبة لأن اللغة العربية المكتوبة
سواء كانت في العراق أم مراكش أم سوريا والجزيرة ومصر أم في
غيرها من الاقطار العربية الاخرى هي لغة تقتدي بما في القرآن
انموذج نسج عليه الكتاب . ولم يكن في اللغة العربية قبل محمد
كتاب نثري على الاطلاق . ومن هنا كان القرآن في الحقيقة ، ولا
يزال الى يومنا هذا ، المثل الاعلى للاسلوب النثري الرشيق . وليس
من شك في ان لغته موسيقية وبليغة ، ولكنها غير شعرية
والكتاب المخصوصون يحذون حذوه ويحاولون تقليده ما استطاعوا
الى ذلك سبيلاً .

وتأثير لغته في اصول الدين الاسلامي بين الاقوال والمعتقدات .

أما الإيمان فهو الاعتقاد بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . واول عقائد الايمان واهمها انه لا اله إلا الله ، وانه هو المهيمن على كل شيء . والواقع ان محور العقيدة في الاسلام من اصول الدين الاسلامي يدور حول فكرة واحدة : فهو الاله الحق والحقيقة السامية ، الكائن فوق الاشياء والخالق العليم القدير ، الحي القيوم . وله من الاسماء الحسنى تسعة وتسعون وهي تمثل هذا العدد من الصفات . وليس هذا هو السبب في ان تعدد اسماء الله من [illegible] وصفات [illegible] صفات [illegible] والجلال في الله على صفات [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] كانت كلمة [illegible] [illegible] [illegible] التي حدثت في قصة ابراهيم [illegible] ان [illegible] [illegible] هي الاصل في تسمية هذا الدين بالاسلام . [illegible] في الاسلام [illegible] من [illegible] والايمان [illegible] [illegible] هو فكرة التوحيد [illegible] وهذا [illegible] يسمون [illegible] والاسلام لا [illegible] اتباع الاديان الاخرى . [illegible] هذا [illegible] الاسم [illegible]

والعقيدة الثانية في الايمان هي ان محمداً رسول الله [illegible] ، [illegible] ، وخاتمة سلسلة [illegible] من الانبياء ، وهذا فهو اعظمهم وليس محمد الا بشراً في نظر الآيات القرآنية . والمعجزة الوحيدة التي جاءت عن يده كانت إعجاز القرآن . الا ان القصائد والاساطير التي راجت بين العامة قدمت الرسول هالة من نور الاهي . والدين الاسلامي [illegible] على ليس فيه ما يصعب ادراكه ، ويكاد يكون خلواً من التعقيد والالتباس وليس فيه شيء مما

مثل الأسرار وعبادة مقدسة ، والمراتب الكهنوتية ، أو عقيدة التثليث والمسيح والكنيسة و « خلافة الرسولية » .

والقرآن هو كلمة الله ، وآخر الكتب المنزلة . وهو « غير مخلوق » ، وكل أحرفه منه « قديمة » . وكل ما فيه من تركيب لفظي أو صوري نسخة طبق الأصل عن أم الكتاب أي اللوح الأزلي المحفوظ في السماء السابعة . وإذا كانت هناك معجزات فالقرآن أعظمها ، ولو اجتمع الإنس والجن أجمعون ما استطاعوا أن يأتوا بمثله .

ويجعل الدين الإسلامي جبريل في مقدمة ملائكته فهو ملك الوحي ، والروح القدس ، والروح الأمين .

والخطيئة الكبرى أو الرئيسة ، ولأن التوحيد الذي لا يغفره الله هو خطيئة الشرك . « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك » (سورة النساء) والواضح أن ما كان يعنيه محمد هو أن يجعلوا لله شركاء ، وهكذا نزلت السور المكية وهي ملأى بتهديد المشركين ووعيدهم بسوء العقبى . والراجح أن محمداً لم يشمل أهل الكتاب وهم النصارى واليهود في عداد المشركين ، مع أن بعض شارحي الآية الخامسة من سورة البينة يرون غير ذلك .

وأشد أقسام القرآن تأثيراً في النفس تلك التي تعنى عناية خاصة بموضوع حقيقة الآخرة ، فهناك إشارات متوالية إلى « يوم الدين » و « يوم البعث » و « القيامة » و « الساعة » و « الحاقة » . والآخرة التي صورها القرآن بما فيها من عذاب ولذة جسدية تدل على الاعتقاد بالبعث الجسدي .

ان العبادات في الاسلام تقوم على خمسة اركان ، اولها الشهادة وتتلخص في العبارة الموجزة التالية : « لا اله الا الله محمد رسول الله » . وهذه اول عبارة تطرق اذن الطفل المولود في حضن الاسلام ، وهي آخر ما تقال على الميت ، والمسلم لا يسمع بين مرحلتي الولادة والموت عبارة تتكرر اكثر من هذه . وهي ترد في دعوة المؤذن للصلاة خمس مرات كل يوم من على رؤوس المآذن . وعندما يكتفي الاسلام ، على عمومه ، بهذه الشهادة البسيطة ، فهي سهلة ويؤكدها اتباعه جميعاً .

وثاني هذه الاركان الصلاة التي فرضت على المسلم البالغ العاقل ان يؤديها خمس مرات في اليوم ، موجهاً وجهه شطر مكة ، وذلك عند الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء . وعبارة شطر مكة تعني ان العالم الاسلامي في جهات متعددة ترسم دوائر حول مكة ، الواحدة ضمن الاخرى . وكلها تتمركز حول نقطة واحدة هي الكعبة . وآخر هذه الحلقات تمتد من سيرا ليوني في الغرب الى كانتون في الشرق ، ومن تركستان في الشمال الى رأس الرجاء الصالح في الجنوب .

والصلاة المفروضة كما يحددها الشرع يجب ان تؤدى باتجاه نحو القبلة ، وعلى طراز واحد من السجود والركوع . وعلى العابد ان يقوم بها وهو في حالة طهارة ، وان يؤديها باللغة العربية مهما كانت لغته القومية . وهذه الصلاة تشكل ذات صفة عامة ، وهي تقوم على الاكثار من ذكر الله اكثر مما تقوم على المسألة والتضرع . والفاتحة هي سورة السبع المثاني ، ويشبهها بعضهم بالصلاة الربانية

عند الشروق، والمسلم يردده نحو عشرين مرة في اليوم فهي أكثر الصلوات المعروفة في الدين وديدناً. ثم الصلاة التي يقوم بها العبد اختياراً أثناء الليل أي التهجد فهي في نظر الله تعالى تستحق التقدير المزدوج.

وصلاة الظهر من كل يوم جمعة هي صلاة الوحدة العمومية ورئيسها على كل مركز يقع تحت نفوذه. وحتى الجوامع تعد فيها حيث هم يصلون. وفي صلاة الجمعة يدعو الإمام للخليفة ونائبه اسوته. وليس من شكل للصلاة العمومية يفوق صلاة الجمعة جلالاً وبساطة وعظمة. ومن غير الممكن ألا ترى العابدين مصطفين في المسجد أثناء الصلاة في صفوف منسقة يتبعون حركات الإمام بدقة وخشوع. ومما لا ريب فيه أن هذه الصلاة العمومية كانت أكبر عامل ديني في توحيد صفوف المسلمين من جميع الدرجات وذوي النفوس المختلفة لأنها أشعلت روح الغيرة، وقد غرست فيهم روح المساواة الاجتماعية وشعور الوحدة وقتلت فيهم الحس الذي يشعر به كل واحد من المؤمنين بدلاً من ... نفسه العموية. وهكذا أصبحت هذه الصلاة حصة أولى في الدرس العسكري.

وثالث هذه الأركان الزكاة. وقد كانت في الأصل عملاً اختيارياً يقصد منه إسداء الخير والإحسان إلى ذوي الحاجة لكنها ما عتمت أن أصبحت فرضاً على المقتدرين فيه المال وتجمع والحبوب والأثمار والبضائع. وقد عهدت الدولة الإسلامية العتيقة جباية الزكاة إلى عمال في مختلف الولايات ووضع بيت المال

ادارتها منذ نشأت الدولة وفق عدة الفقراء و... الجوامع . ومنذ
الذي تقوم عليه الزكاة تقرب من مبدأ العشر الذي كان عرب
الجنوب يؤدونه لآلهتهم قبل ان يجمعوا محاصيلهم . ولقد
اختلف مقدار الزكاة على مر الايام ، ولكنه كان على وجه
العموم الذي وضع في نشأته . ولم يبق من هذا وزن المعاهد
في الجملة . ولما ضعفت الدولة الاسلامية رجعت الزكاة الى
مبدئها الاصلي فدخلت في الوجدان

ورابع هذه الاركان صوم رمضان . ومع أن تعاليم
التوبة فرضت في القرآن عدة مرات فصوم رمضان لم تأت ذكره
إلا مرة واحدة . ويحتم الامتناع فيه عن الطعام والشراب من
الفجر حتى غروب الشمس . وقد عرفت حوادث استعملت
فيها الحكومات واضطرت في البلاد الاسلامية العنف مع المسلم
غير الصائم . ومن المستحسن ان عرب الجاهلية كانوا
يمارسون الصوم . إلا ان هذه العادة كانت مرعية عند اليهود
والنصارى في اوائل عهدهم

أما الحج فهو الركن الخامس والاخير . وهو فرض موجبه على
كل مسلم ومسلمة زيارة البيت الحرام مرة واحدة في العمر في
وقت معين من السنة ، اذا استطاعا الى ذلك سبيلا . وعلى الحاج
ان يكون في حالة الطهارة المرعية . ثم يلبس الإزار ، وهو قطعة
واحدة من قماش غير مخيط ، وان يراعي علاوة على المحظورات
المفروضة في صوم رمضان ، كالامتناع عن الجماع ، انظمة خاصة تحرم
إهراق الدماء والصيد وقلع النباتات . والحج الى الاماكن المقدسة

كان لهذه سمعة قديمة ظهرت آثارها في التوراة

وجماعات الحجاج من الشمال والغرب والجنوب تزداد عدداً بمواصلة الرحلة وهي تجتاز اواسط افريقيا متجهة شرقاً . وبعض الحجاج يسير مشياً على الاقدام وغيرهم يركب الابل . ومنهم من يعوّل على الاحسان في طريقه وغيرهم يعتمد الاستجداء . وكثير من الحجاج يموتون على قارعة الطريق فيُعدّون شهداء . اما الذين يحجون برواحلهم فيسعون في اتجاه احد مرافئ البحر الاحمر العربية ، ومنه ينقلون بقوارب الى الشاطئ المقابل على ان مواكب الحج الاربع الكبرى تجيء من اليمن والعراق وسوريه ومصر . وقد كان كل من هذه المواكب في مضى ترسل كل عام على رأس قافلة محمل يحمله الامراء او ممثلوهم . والمحمل مغطى بنسيج من الحرير والديباج والزخرف ويحمل على جمل فخم بدنه دون ان يركبه احد . ولكن في الاعوام الاخيرة لم نشهد سوى وجهة المحامل القديمة الا المحمل المصري

ولقد بلغ متوسط عدد الحجاج السنوي بعد الحرب العظمى الاولى ١٧٢٠٠٠ حاج . وكان عددهم لعام ١٩٠٧ حسب الاحصاء التركي ٢٨٠٠٠٠ حاج . ومنطقة ترسل عادة اكبر عدد من الحجاج في كل عام ويبلغ نحو ٣٠٠٠٠ حاج . ويعتبر الحج على كرّ العصور اكبر عامل موحّد في الاسلام ، واقوى رابطة بين مختلف طبقات المؤمنين . وهو الذي جعل من كل مسلم قادر رحالة ولو مرة في عمره . والحج تمهد هذا التبادل الاجتماعي فتعمل على جمع المؤمنين الذين يأتون من اقصى المعمورة الاربعة . وتجمع الزنوج والبربر

والهنود والعرب والسوريين والمصريين والمغاربة ، الفقير منهم
والغني والوضيع والرفيع ، أن يجتمعوا ويتحدوا على صعيد واحد
المقدس . وحتى ان الاسلام قد دعا في اكثر من مناسبة لعقد جمعية
في العواصم على فوارق الجنس واللون واللغة وجعلها تحت لوائه .
ولا شك في ان الحج في موسمه يجمع له عدداً أكبر في
تحقيق هذه الغاية . وعلاوة على ذلك فقد ورد في الحج فرص الدعاية
لنشر الدعوة والافكار الدينية بين جماعات من الناس وقد كان من
عهد الخلفاء لا [illegible] [illegible] الا [illegible] خليفة ،
وبين للمسلمين فيه قبل حلول الخطر .

وهذا فرض آخر عنوانه الخراج ، وهو [illegible] العرق
الاسلامية ، [illegible] وهو الجهاد والذي يعود الفضل في توسيع
الاسلام بوصفه لا يمثل الا جزء منه دولة عربية [illegible] ومن واجبات
الخليفة الرئيسية ان ظل عاملا في توسيع حدود دار الاسلام
[illegible] في [illegible] دار الحرب [illegible] فكرة الجهاد تلعب في
[illegible] الاسلامية [illegible] العالم الاسلامي [illegible] معظم المسلمين
محكومين من حكومات اجنبية كثيرة تحت [illegible] . ولقد كان
الخليفة محمد رشاد آخر من [illegible] العالم الاسلامي [illegible] للجهاد وذلك في
حرب سنة ١٩١٤ غير انه اخفق في محاولته [illegible] .



سير الإسلام

إن أهم حادثين في أوائل العصور الوسطى كانــــت الهجرة
التوتونية التي تمخضت عن انحلال الأمبراطوريــــة الرومانية ثم
الفتوحات العربية التي قضت على دولة الفرس وزعزعت أركان
الامبراطورية البيزنطية . ولو نظر أحدهم على العالم في أوائل
القرن السابع المسيحي لظهور قوة تستحق الذكر تقوم في مجاهل
الجزيرة العربية التي لم تكن إلا فلوات رملية ودفع بعضهم على
لتنبأ بأن العظمتين الوحيدتين في ذلك العالم ستحل محل الواحدة
المتساقطة ـ وتجرد الأخرى المزعزعة من غنى والأبهاء
أقول لو تجرأ أحد على مثل هذه النبوءة لعدّه الناس مجنوناً وقد
حدث هذا بعينه . إذ بعد وفاة النبي العربي تحولت الجزيرة من دار
عقر إلى حرب وثورة ، فكانت أعمالاً فذّة منهم في العالم .
فحملات خالد بن الوليد وعمرو بن العاص في العراق والشام ومصر

تعدّ من أروع الحملات و[illegible] في تاريخ الحروب وتحكي
حملات نابليون وهنيبال والإسكندر.

وقد ساعد العرب في فتوحاتهم عوامل عديدة. فالحروب المتواصلة
بين البيزنطيين والفرس [illegible] في [illegible]
وأضعفت قواهما. والضرائب [illegible] الناتجة عن هذه الحروب
المفروضة على رعايا الدولتين [illegible] من ولائهم، واستياء
بعض القبائل العربية [illegible] والعراق، والانشقاق في الكنيسة
المسيحية، واضطهاد الكنيسة [illegible] المنشقين عنها [illegible] كل هذه
مهّدت السبيل [illegible]. وقد رحب سكان البلاد [illegible]
في سورية وفلسطين والأقباط في مصر بالعرب [illegible]
[illegible] من حكامهم [illegible] وفضلاً عن ذلك [illegible]
[illegible] كان [illegible] في [illegible]
المسلمون [illegible] على [illegible] أوسع [illegible]
أكبر. وهكذا [illegible] الشرق السامي من [illegible] الطويل [illegible]
[illegible] الأوربي [illegible] ولا غرو فقد
كان العرب [illegible] ومشرّبًا روح [illegible]
والاستعمار، و[illegible]

ويرجع انتصار العرب بحسب بعض [illegible] إلى استخدامهم
[illegible] وإلى اعتمادهم على
[illegible] وكان الجيش العربي
ينقسم إلى فرق خمس هي المقدمة، والقلب، والميمنة، والميسرة،
والساقة [illegible] الميمنة والميسرة. وكان [illegible]

على أساس وحدة القبيلة، وكان لكل قبيلة مقدم يرأسها، وهو [illegible] من [illegible] مرفوع على [illegible] شخصه [illegible] الشعر الذي فكان العقاب. وكان المشاة يستعملون القوس والنشاب والسلاح [illegible] السيف والترس، وكانوا يحملون السيوف في أغماد [illegible] من الكتف [illegible] الحربة التي [illegible] من خشب فكان ظهوره [illegible]، وكان سلاح الفرسان الرئيسي الرمح، وهو مع القوس والنشاب قوام السلاح العربي [illegible] الترس الذي كان يتخذ من جلد البعير.

وكان الجند [illegible] من الصفوف في ترتيب متراص. وكانت المعركة تبتدئ [illegible] بالمبارزة [illegible] الذين كانوا يتقدمون من مراكزهم في الفرق ويحسبون [illegible] للحرب. وكان [illegible] على [illegible] [illegible]، [illegible] أنه كان [illegible] من القبيلة [illegible] الخدعة [illegible] في [illegible] وأشرف [illegible] ولا يخفى أن قوة الجيش العربي [illegible] على [illegible] سلاحه وحسن [illegible] على قوة [illegible] من [illegible]، وعلى [illegible] التي [illegible] في الصحراء، وعلى سرعة [illegible] في [illegible] القتل.

وتكاد المراجع العربية [illegible] الحركة الإسلامية [illegible] [illegible] لا [illegible] [illegible] ومن جهة أخرى [illegible] بعض [illegible] أن [illegible] في [illegible] في [illegible] الواقع [illegible] أن [illegible] [illegible] حصون [illegible] [illegible] الحرب [illegible].

قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »

سورة التوبة .

[illegible]

[illegible] من الصحراء الجدبة الى الاستقلال [illegible]

[illegible] وفي مقدمتهم ابو بكر وعمر [illegible]

كانت مبنية على غزوات متعددة أوحتها الحركة للعرب . الفتح
الذي حرّم الإسلام به وصفه في القرآن الشنيعة الناجحة وعقب
الأولى العسيرة لا تفتح الداخل والاستعمار . وبعد أن تابع الأمم
أفلتت هذه الحركة من يد أصحابها وازدادت قوة وشعور بالظفر
بعد الظفر والانتصار بعد الانتصار . وعندئذ بدت الحملات المنظمة ،
وأصبحت تسمى الدولة العربية سمحة محكمة . والفتوحات العربية
هذه الدولة كانت سمحة متسعة غزت الحواضر لا الخيمة والمدن
— ق

وبحسب الذي يصنع الإسلامي الذي يتصل بالتاريخ العربي هي من
في العهد القديم ، وبعده ابن التاريخ في العصور الوسطى ، وهو
فضلا عن ذلك يستند الى عنصر لغوي أنثروبولوجي خاص ، فعظمة
الإسلام ، تشكل أسسها من عناصر ثلاثة : أولها الدين وثانيها
الدولة وثالثها الثقافة . فالإسلام ، كدين ، يختلف عن اليهودية
والبوذية القديمة ، ويتفق مع النصرانية في كونه دينا تبشيريا فعلا .
والإسلام ، كدولة ، وقد كان الأول هو الذي فتح الأقاليم
الشاسعة . فالفتوحات إذا كانت عمل الدولة لا الدين . وخروج
العرب من جزيرتهم وفتحهم للعالم كان بدافع قوة ... موسى .
كان في الدرجة الأولى فوزاً للعروبة ... اسوار الأعظم
من أهل سوريا والعراق وفارس في دين الإسلام حتى القرن الثاني
والثالث للهجرة . وكان بعضهم في الأصل يدافع عن مصلحته كي لا
يدفعوا الجزية وليصبحوا في عداد الطبقة الحاكمة من الإسلام .
كثقافة ، فقد تكونت تدريجيا بعد الفتح على أساس حضارات

التمويل الواسع ، أخرس بالعودة الى سقفه . وهكذا لم يستعد
الشرق الأدنى الاسلامي مكانه [illegible] في استعادة
امجاد ثقافته السابقة الرفيعة .

وقبل ان يستعرض العرب من جديد [illegible] ملاذاً أخيراً كان
عليهم ان ينظروا في شؤون عقيدتهم ، وان يجدوا حلاً
لمشكلة معقدة هي مشكلة خلافة الرسول .

كان الرسول وهو في قيد الحياة يضطلع بعدة [illegible] كان هو النبي
والمشترع والإمام والقاضي وأمير الجيش ورئيس الدولة المدني
ولكن محمداً مات فبرزت مشكلة الخلافة على الوضع الذي شغله
مستثناة الوظيفة الروحية التي لا يستطيع احد ان يخلفه فيها ،
ووظيفة حامل الرسالة والنبي .

مات الرسول عن ابنة واحدة فاطمة زوج علي ... دون ان
يعقب ذكوراً . والشيعة الفرقة المنشقة يحكون ان [illegible]
[illegible] على [illegible] الأقدمين في [illegible] ومن هنا [illegible] ان [illegible]
[illegible] النبي [illegible] مشكلة الخلافة [illegible] ثم
ان النبي لم يعين خليفته بشكل واضح . فالخلافة اذاً اقدم مشكلة
في الاسلام ولا تزال تحتاج الى الحل . ففي آذار سنة ١٩٢٤
جمع الأتراك الكماليون الجمعية [illegible] وألغوا الخلافة
العثمانية وكان ذلك بعد ستة عشر شهراً من تقويضهم للسلطنة . ومنذ
ذلك اليوم انعقدت عدة مؤتمرات اسلامية في القاهرة ومكة للبحث
في امر الخلافة ، ولكن دون جدوى . ولقد صدق الشهرستاني
عندما قال : وأعظم خلاف بين الامة خلاف الامامة ؛ اذ ما سُلّ في

الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سنرى عند الأئمة في كل زمان .

وعلى أن الوفاة التي حدثت كانت مفاجئة لم يحدث في أي حياته أن تداول الناس فيما بينهم [illegible] ادعى المهاجرون المكيون أنهم أولى الناس بخلافته لأنهم من قبيلة النبي ولكونهم أول من صدق بدعوته . ومن جهة أخرى ادعى الأنصار المدنيون أنه لولا حمايتهم النبيّ والإسلام [illegible] غير أن الفريقين حسما [illegible] عرفت [illegible] النبي [illegible] كان أمراً من [illegible] إلى [illegible] المسلمين و [illegible] فإنهم [illegible] أمرهم وعليّ من [illegible] النبي [illegible] زوج ابنته فاطمة ، واحد [illegible] وهو [illegible] الشرعي [illegible] آمن [illegible] وهكذا [illegible] على [illegible] المؤمنين الأمي لا على [illegible] وكان هناك حزب آخر هم الأمويون من أشراف قريش [illegible] السلطة والثروة في الجاهلية [illegible] بخلافته ، رغم كونهم آخر من اعتنق الإسلام من هذه الأحزاب .

ثم إن أول هذه الأحزاب فاز بالخلافة ، فقد بويع [illegible] المنتصرون أبا بكر . وكان أبو بكر شيخاً تقياً ومن أول الذين صدقوا النبي وآمنوا بدعوته ، وهو أبو عائشة ، إحدى أزواج النبي . ثم تبع أبا بكر في الخلافة عمر وعثمان وعلي . وهؤلاء الأربعة هم الخلفاء الراشدون . وفي مدة خلافتهم كانت [illegible] النبي [illegible] وأحاديثه [illegible] ولا [illegible] وأمر

الصداقة والقربى .

ويقول المؤرخون العرب إن الجزيرة ، ما عدا الحجاز ، ارتدت عن الإسلام على أثر وفاة النبي . أما الواقع فهو أن المقاطعات التي [illegible] في حياة النبي وخضعت لسلطته لم تتحرر على ما يعتقد [illegible] تلك الجزيرة [illegible] وذلك لصعوبة المواصلات ، [illegible] هذه الدعوة [illegible] الفترة الواقعة بين بعثة ووفاة النبي [illegible] حتى [illegible] وفاة النبي . فالحروب [illegible] التي قام بها أبو بكر لم تكن المقصود منها أكثره رجوع المرتدين الى حظيرة الإسلام [illegible] أكثر [illegible] إدخال العرب غير المسلمين في حظيرته وفي هذه الحروب اشتهر خالد بن الوليد ، أظهر من براعة في القيادة ونبوغه في القتال [illegible] وهكذا توحدت الجزيرة تحت راية الإسلام ونهضت للزحف على ما حولها . وكان لا بد [illegible] ولا من أن [illegible] من [illegible] الأمور الأخرى

وجاء دور [illegible] وكان [illegible] في [illegible] البيزنطيين الذين [illegible] على الروم . وكان قد استعان هؤلاء من جنود الإسكندر الذي اكتسحهم قبل [illegible] [illegible] . وقد أدرك قواد البيزنطيين أن [illegible] من الجزيرة الذين [illegible] يعرفون الحدود [illegible] الى حد [illegible] عهدوه [illegible] ليكونوا غزاة عاديين كالذين عهدوهم من قبل . ولم يلبثوا أن اكتشفوا عدوهم هذا فيه نشاط جديد وإذا بيده سلاح جديد [illegible] وكان سلاحهم هذا سرعة حركتهم [illegible] الجمل العربي [illegible] عنصر جديد [illegible] في الحرب [illegible] « سيف الله » الأمر [illegible] الجيوش العربية

لبى كان بعد تعب أمير جيوش المثنى مع عدد من فرسانه
البدويين لأن رياح طوى الصحراء صار من جنوب العراق إلى
أن ظهر بغتة بجوار دمشق العاصمة السورية . وقد فقد المحاربون
معظم في الطريق بعد أن ظلوا عطش الخيل شرب الماء في بطون
الرواحل فكانوا ينحرون هذه الرواحل ويقتاتون لحومها
ويروون ظمأهم [illegible] حواصلها من الماء . وبعد
أسبوعين من مغادرة العراق وقف خالد أمام أبواب دمشق مسقط
رأسه لبدء غزوات العرب الحاسمة .

واحتلت دمشق بعد حصار طويل مدة ستة أشهر وهي التي كانت
روعت [illegible] في العالم ، والتي قدر لها أن تصبح فيما
بعد عاصمة للدولة الأموية . أما الميدان الآخر فقد كان
الحاسم [illegible] أحرب [illegible] وقد كان الفرس ،
[illegible] الدولة البيزنطية [illegible] من [illegible]
[illegible] فهزمهم خالد بعد ذلك [illegible] في وادي
اليرموك ، أحد روافد الأردن ، في ٢٠ آب سنة ٦٣٦ . وكان
يوم شديد الحر عصفت فيه الرياح [illegible] والرمال [illegible]
كثيفاً أعمى عيون البيزنطيين . ويظهر أن القادة العرب اختاروا
هذا اليوم [illegible] العرب هذه الحوادث الجوية وعرفوا
كيف [illegible] في حين [illegible] البيزنطيون . فلما هجم أبناء
الصحراء على البيزنطيين [illegible] على الرغم من
صلوات [illegible] ووجود الصلبان في صفوفهم . فقد
انكسروا [illegible] . ولم يقف [illegible] في [illegible] الجيوش العربية ،

فاستمرت في سيرها حتى تلتقي بجبال طوروس ، وهي تخوم سورية الطبيعية في الشمال .

وقد أكسب هذا الفتح (فتح سورية) ، على ما وصفه البلاذري ، الدولة الإسلامية الفتية قوة ووفراً في أعين الناس ، وزادها اعتداداً بنفسها ، وتمسكاً [illegible] في هذا [illegible] ؛ [illegible] معركة [illegible] [illegible] من بعد ذلك العصر . فأصبحت سورية مركز [illegible] [illegible] المسلمون الزحف منه إلى أرمينية وإلى العراق وبلاد الكرج [illegible] [illegible] عدة مرات في السنين التي تلت

وحالف النصر المسلمين عندما توجهوا إلى الفرس واصطدموا [illegible] في المعركة التي ذكرناها في سنة ٦٣٧ وفي يوم اشتدت عواصفه واكفهر جوه [illegible] كيوم موقعة اليرموك اشتبكت العرب مع الفرس ، فهزموا [illegible] ، [illegible] على الفرس [illegible] ، و [illegible] سهول العراق الخصبة [illegible] [illegible] [illegible] .
وتابع المسلمون تقدمهم [illegible] وعبروا دجلة عند [illegible] [illegible] على الرغم من ارتفاعه [illegible] [illegible] ، دون أن [illegible] أي خسارة في النفوس [illegible] أهل العراق كما رحب أهل سورية [illegible] لأن [illegible] [illegible] العرب [illegible] ؛ ولأن الثقافة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] مصلا في [illegible] [illegible] كسرى مع جنوده الفرس من عاصمته

---

(١) [illegible] ([illegible]) [illegible] في [illegible] .

أحداث دون دفاع . فدخل المسلمون العاصمة فاتحين في غرة آب ظافرين . وبقيل كسرى بيد أحد رعيته طمعاً في جواهر تاجه فقضى آخر عاهل لامبراطورية ازدهرت مدة اثني عشر قرناً . ولم تستعد تلك الامبراطورية ثانية إلا بعد ثمانية قرون من ذلك التاريخ

ولأول مرة واجه أبناء الصحراء الحياة غير الخشنة وتعجب . بمدينة القصر الملكي ومحاسنه الرحبة وفخامة الأمتعة وروعة الفخر والأكواخ لعمري في الحقيقة حيرت البدوي أول الأمر وأدهشته غير أنه بدأ يألف هذا كله تدريجياً . وبدت منهم في أثناء ذلك أمور مضحكة . فظن الكافور ملحاً واستعمله للطبيخ . وسارع إلى استبدال الفضة بالذهب لمعرفته بالأول وجهله بالثاني . ولم لا ألم نعلم أصحابه لبيعه بين أحد الأعراب التي كانت حصته من الغنيمة بألف درهم ليس غير احتجاجاً بأنه لا يعرف عدداً فوق العشر مئة .

حتى إذا غزا العرب العراق وتوغلوا في فارس جابهوا مقاومة متزايدة . ولم تنته هذه الفتوح إلا بعد عشر سنين عرفت إذ كانت بلاد الفرس آهلة بالسكان ، وكانت ذات سيادة وذات قوة حربية مستتبة قاتلت الرومان طوال أربعة قرون . ولكنها غلبت أخيراً على أمرها . وهكذا وجد العرب أنفسهم على حدود الهند سنة ٦٤٣.

وفيما كان هذا النصر يتحقق في الشرق كانت موجة الإسلام تمتد نحو الغرب . وتفصيل ذلك أن العرب في بدء عهد توسعهم عبروا إلى مصر بغية ملئها الشهوة ، لموقعها الحربي الخطر ، ولأنها تحمي سوريا والحجاز ، ولكونها ممراً لأفريقية الشمالية ، ولجودة تربتها التي جعلت منها أهراء للقسطنطينية . ولأن عاصمتها الإسكندرية

كانت قاعدة للاسطول البيزنطي حتى اذا كانت سنة ٦٣٩ نهض
عمرو بن العاص بها [illegible] ، وفي صحبته الزبير في سراياه خالد ،
فاصطحب اربعة الاف فارس ، واتخذ الطريق من فلسطين الى مصر
محاذيا الشاطئ ، وهي الطريق التي سلكها من قبل ابراهيم [illegible]
والاسكندر وانطيوخوس والعائلة المقدسة وفي عهد نابليون وحول
بها ، وهي الطريق العسكرية الرئيسية في العصور القديمة

وقد [illegible] عمرو سيناء وواصل [illegible] [illegible] و
اشتد [illegible] [illegible] الله اكبر . وفي هذه الاثناء كان حصن
بابليون وهو [illegible] جزيرة الروضة [illegible] قد سقط .

[illegible] عمرو بالامدادات اللاحقة من الجزيرة [illegible] عشرين
الف مقاتل ، [illegible] عمرو [illegible] [illegible] الاسكندرية ،
[illegible] مصر واهم مرافئها ، محصنة بالاسوار المنيعة والابراج . ومن
جملة [illegible] عمود السواري الذي [illegible] [illegible] هيكل الاله
سرابيس ومكتبة الاسكندرية العظمى ، ومن [illegible] لاحت
كالمسلتين [illegible] [illegible] التي كانت في [illegible] هيكل [illegible]
[illegible] وهي [illegible] [illegible] كليوباترة . كما [illegible] بمصر
[illegible] [illegible] . وامتدت في الغرب [illegible] [illegible]
غرائب [illegible] الاحمر [illegible] لكليوباترة [illegible] والواقع ان
مشيدها تحتمس الثالث ، حوالي ١٤٥٠ ق . م . وهما الان ترى
الواحدة منهما [illegible] شاطئ التيمس في لندن والاخرى احدى
الحدائق العامة في مدينة نيويورك . وفي جوف الحجر [illegible]
[illegible] [illegible] الذي كان يعكس شعاع الشمس في [illegible] [illegible]

بدره في اليمن — وكان من عجائب الدنيا السبع

وكانت الاسكندرية عند محاصرة عمرو لها تحصنها الاسطول البيزنطي وقد عدته في مينائها. أما العرب فكانوا دون البيزنطيين عدة وعدداً، ولا مراكب لهم، ولا مجانيق، ولا معين يؤمن حاجتهم الى الطعام.

ولكن بعد سنة دخل عمرو في مدينة [illegible] المشرق ومؤداه [illegible] لا [illegible] غير التي اصبحت فيها أربعة آلاف منية وأربعة آلاف حمام واربعين الف يهودي عليهم الجزية و[illegible] للملوك (١). فاستقبل عمر رسول عمرو فأطعمه خبزاً والتمر وأقام صلاة شكر [illegible] في مسجد النبي.

ثم ان الموقع الذي نصب عليه عمرو خيمته في حصار بابليون صار القصبة الجديدة التي عرفت بالفسطاط والتي لا تزال قائمة وتعرف الآن بمصر العتيقة. وهناك شيد عمرو اول مسجد في مصر، وهو مسجد بسيط رمم عدة مرات ولا يزال قائماً.

وقصة احراق مكتبة الاسكندرية التي تحدث بها الناس عن عمرو بتحريض الخليفة لا [illegible] وخلاصتها ان عمراً [illegible] الخليفة [illegible] حمامات الاسكندرية ستة اشهر بمجلدات مكتبة. والواقع ان مكتبة البطالمة احرقها يوليوس قيصر سنة ٤٨ ق. م. وان مكتبة اخرى نشأت من بعد [illegible]

---

(١) جمع اتون: وهو موقد نار الحمام

ومكتبة الصغرى ؛ ذهبت سنة ٣٨٩ م ضحية أمر أصدره الأمبراطور الروماني تيودوسيوس . وإذن لم يكن هناك مكتبة تستحق الذكر عند الفتح العربي ولم يرو هذه القصة أحد من مؤرخي ذلك الزمن . وأول من رواها هو عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩ هـ ١٢٣١ م ولا نعرف السبب الذي حداه إلى اختلاقها . غير أن بعض المؤرخين اللاحقين اقتبسوها عنه وزادوا فيها ثم إن أكثر الكتب في ذلك الزمن كانت من الورق الذي لا يحترق

ويستدلون [illegible] الحقائق [illegible] الواقعة في [illegible] لا [illegible] مقنعين [illegible] في نقد هذه [illegible] . [illegible] أحد [illegible] في [illegible] بلاد [illegible]
[illegible] له [illegible]



شبه جزيرة العرب
أرض مزروعة أو صالحة للزراعة
صحارى
البحر الأبيض المتوسط
النفود
الربع الخالي
الأحقاف
خليج عدن
أفريقيا

الخلافة

من الظواهر التي [illegible] فيه شعب في حسن [illegible]
يتغلب على شعب هذه ذي حضارة عريقة [illegible]
سيحة هذه الخلافة و[illegible] في مدنهم [illegible] الأخير
الى [illegible] ونحن [illegible] في وجه العرب
الخارجين من الجزيرة .

[illegible] العرب هلال خصب وفارس ومصر فملكوا هذه
مراكز الحضارة في العالم [illegible] الحضارة
من [illegible] والآداب وفن
الحكم [illegible] لم يكن لديهم شيء منها [illegible] وكانت [illegible] للاقتباس
شديدة . وكانت حاجتهم للاستيلاء عملا دفع قوادهم [illegible] الكاملة
الى [illegible] احوالهم من نشأة البداوة
المفتوحة استطاعوا [illegible] التجارب العسكرية والثقافية و[illegible]

فيه وتكسبه [illegible] . ففي المدائن ودمشق وبيت المقدس
والاسكندرية شهدوا عمل البناء والصناع [illegible] فأعجبوا به
ونسجوا على منواله .

ولم يكن واحد [illegible] في [illegible] أو تركيا
الأصل أو [illegible] القومية [illegible] سماحة العرب
الأصلية الخالصة في هذه الحضارة [illegible]
المحدثة . وكان الشاميون والفرس والمصريون وغيرهم من [illegible]
[illegible] الخلافة في [illegible] من [illegible]
[illegible] وكان [illegible] في [illegible] من [illegible]
[illegible] عقبة [illegible]
[illegible] الإسلامية في [illegible]
[illegible] الخلافة [illegible]
[illegible] العربي [illegible] آخر [illegible]
[illegible] في المدائن [illegible] والآشوريون
[illegible] والآراميون والمصريون .

ويحق لنا [illegible] الرجل الذي [illegible] في
الإسلام حين يحاول [illegible] أبي بكر الذي تولى أمور المسلمين
من سنة ٦٣٢ الى ٦٣٤ وخلافة عمر الذي تولى خلافتهم من ٦٣٤
- ٦٤٤ . عاش أبو بكر ، [illegible] وموحد الجزيرة تحت راية
الإسلام ، [illegible] . وفي [illegible]
الأول من خلافته القصيرة كان [illegible] كل يوم من [illegible]
[illegible] وزوجته [illegible] في [illegible] ولم يكن

يتقاضى راتباً لأنه لم يكن لديه [illegible] ذلك حتى يستحق الذكر

وكان يدير جميع شؤون الدولة في صحن المسجد النبوي

[illegible] عمر ، الخليفة الثاني ، وكان رجلاً [illegible] ومثالاً

حياً للسماحة والاقتصاد ومن [illegible] كان [illegible] جميع شؤون

الأمة وقد [illegible] في عهد خلافته [illegible] . وكانت

[illegible] شأن [illegible] المسجد النبوي [illegible] على الأمة وحب

التقشف . ويعتبر من الولاة الإسلاميين [illegible] اسم في أوائل

الإسلام بعد النبي . وقد كان عمر [illegible] بتواضعه وعدله

[illegible] [illegible] [illegible] حقيقة الى

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] على [illegible] من [illegible]

[illegible] من شؤون [illegible] المسجد النبوي [illegible] عن

[illegible] الإسلام [illegible]

[illegible] [illegible] أخلاق عمر [illegible]

ومما يروى انه [illegible] على الشرب واخلاقه [illegible]

ويروى [illegible] امير المؤمنين [illegible]

[illegible] على فلان [illegible]

[illegible] لا يدعون امير المؤمنين وهو [illegible] [2]

حتى [illegible] في امر من امور المسلمين [illegible]

[illegible] وهو [illegible] عمر [illegible]

---

1 [illegible] فلان على فلان [illegible]

2 [illegible]

بمخفقة لدرة … ودمشق … فقال : لا والله … عرف
خشيته حتى دخل منزله فصلى ركعتين وقال : … نفسه … يا ابن
الخطاب كنت وضيعا فرفعك الله ، وكنت ضالا فهداك الله ،
وكنت ذليلا فأعزك الله ، ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل
يستعديك فضربته . ماذا تقول لربك غدا اذا اتيته ؟ »

وقتل عمر في أوج حياته وهو يصلي في الجامع بطعنة خنجر
مسموم سددها له ابو لؤلؤة ، وهو غلام فارسي . وخلفه عثمان
٦٤٤ — ٦٥٦ ، فجرت في ولايته فتوح ابواب واذربيجان وبعض
ارمينية . وكان عثمان شيخا وقورا من الاسرة الاموية ، فانه عجز عن
التحكم في اطماع ذوي قرباه . ووقف الناس ذلك ، وحركتهم على
العصبة ثلاثة من رجالات قريش كان كل منهم يتمنى لنفسه منصب
الخلافة وهم علي وطلحة والزبير . وقد كثر انصاره في الكوفة اصلاه
علي ، ثم اشتد سعيهم في مصر فقدمت … من المصريين زمرة
جسيمة ثاروا الى المدينة يريدون عثمان . فسوّروا عليه داره فوجدوه
وهو ابن ثمانين … يقرأ في المصحف ، فدخل عليهم اوله
دسال … محمد بن ابي بكر فقبض على لحيته … في حضنه ،
ومن ثم قتله احدهم فكان دمه … على المصحف ، وذلك
في ١٧ حزيران سنة ٦٥٦ .

ولما قتل عثمان وقع اختيار … الاسلامية كان يومئذ
وعلي هو ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة … ووالد الحسن

(١) … من القسم … .

واحسان ، وهو ثاني من آمن بمحمد او [illegible] ، تحلى بصفات [illegible]
والتقوى والبسالة .

وفي مشكلة [illegible] كان [illegible] من [illegible] طلحة
والزبير [illegible] زعيمي حزب المكيين [illegible] في الحجاز
والعراق الذين لم [illegible] وانضمت [illegible] عائشة ام المؤمنين
[illegible] الى البصرة [illegible] كان من علي [illegible] لقمع
[illegible] على ايدي [illegible] في ٩ كانون الاول
سنة ٦٥٦ وعرفت هذه بمعركة [illegible] عائشة التي التف
الثوار حولها كانت تمتطي جملا . وفي هذه الوقعة [illegible]
[illegible] طلحة والزبير ، ووقعت عائشة اسيرة [illegible]

[illegible] في [illegible]
[illegible] دمشق [illegible]
[illegible] على [illegible]
[illegible] دمشق [illegible]
العراق والشام [illegible]

[illegible] علي [illegible]
العراق وهم [illegible] على [illegible]
[illegible] لم يكن [illegible] ذي [illegible] شديدة في
[illegible] وكاد [illegible] علي [illegible]
[illegible] علامة [illegible] حكم الا لله
لا حكم [illegible] وجرى التحكيم [illegible]
[illegible] ابو موسى الاشعري عن علي [illegible] عن

معاوية يوافق كلا منهما ارسال اربعمئة شاهد الى مؤتمر أذرح في جنوبي فلسطين على طريق الحج والقوافل . على ان حقيقة ما دار في هذا المؤتمر التاريخي يصعب استجلاؤها . وفي المصادر المختلفة روايات شتى . والرواية المتقدمة تقول باتفاق الحكمين على خلع الرئيسين وجعل الامر شورى بين المسلمين يختاروا لأنفسهم من شاؤوا . فتقدم ابو موسى فخلع عليا ومعاوية معاً . ثم تقدم عمرو فخلع عليا وثبت معاوية بعد ان خلع عليا . غير ان النقد الحديث يقول ان كلاً من الحكمين خلع صاحبه [illegible] الخليفة المعترف به ، دون ان يخسر معاوية شيئاً .

ثم ان فريقاً من انصار علي ذهب الى انه ارتكب خطأ [illegible] في قبوله مبدأ التحكيم ، وخرجوا عليه فسموا الخوارج ، فاصبحوا اشد اعدائه نقمة عليه . وكان عددهم نحو اربعة آلاف ، فقضى عليهم علي على ضفة النهروان عام ٦٥٩ م ، [illegible] ولا يزال الى يومنا هذا من الخوارج يعرفون بالاباضية في شمالي افريقيا وعُمان

وكان احد هؤلاء الخوارج هو الذي قتل عليا في مسجد الكوفة في سنة ٦٦١ وهو خارج من داره في الكوفة [illegible] وبذلك اصبح للجماعة الرابع عند الشيعة [illegible] وهو مقام رفيع لا يسمو عليه الا مقام النبي [illegible]

وهنا يجب ان نحترس من خطأ وقع فيه [illegible] وهو ان الخلافة وظيفة دينية ، [illegible] الروحية المقدسة [illegible] الكاثوليكية [illegible]

السني وخضعه في الدرجة الأولى [illegible] عنه تدبير شؤون
الإسلام [illegible] خليفة [illegible] حرفي ، وهو في الوقت
نفسه [illegible] حق التقدم في الصلاة وإلقاء الخطبة . ولكن هذا
الحق شأنه شأن [illegible] والخلافة إذا اقتصرت
على الناحية الدينية [illegible] لأن صفة التي
روحية [illegible] عن [illegible] واشتهرت وعامته الدينية بموته ،
ولم يكن لأحد أن يخلفه فيها [illegible] خلافة
[illegible] يخرج عن [illegible] فهو [illegible] الأوقاف
[illegible] الخليفة [illegible] عليه [illegible] ولا
[illegible] وحرص [illegible] الإسلام [illegible]
عمق هذا كله استخدم الخليفة سلاحه الديني

أما فكرة [illegible] خليفة [illegible]
[illegible] على جميع [illegible] في [illegible] حتى
أواخر القرن الماضي [illegible] هذه الفكرة الواهية
عند [illegible] في [illegible] الدول الأوروبية التي سيطرت
يومئذ على معظم [illegible] الإسلامية في آسيا وأفريقية ثم
[illegible] في أواخر القرن الماضي ظهرت حركة [illegible] الجامعة
الإسلامية [illegible] وحدة [illegible] في مجرى
واحد لمقاومة الدول [illegible] فاتجهت الأنظار نحو تركيا بصفتها
مركز الخلافة [illegible] هذه الحركة [illegible] الخلافة
الدينية الشرعية .

وبقي على [illegible] الأمر [illegible] وكان [illegible] في أمية.

وفي خلافته اتخذ معاوية مدينة دمشق عاصمة للدولة وبدأ عهداً جديداً ، فأصبحت الخلافة
سلالية تتركز في بيت واحد ولا تعتمد على مبدأ الانتخاب الحر كما
كما كانت من قبل . ولقد عرفت ثلاث خلافات سلالية عظيمة في
المدة التي يستعرضها هذا الكتاب : هي الأموية وقد ابتدأت سنة
٦٦١ بخلافة معاوية في دمشق ، والعباسية في بغداد من سنة
٧٥٠ الى ١٢٥٨ ، والفاطمية وعاصمتها في اكثر هذه المدة
القاهرة من سنة ٩٠٩ الى ١١٧١ ، وهي سلالة الوحيدة العلوية
التي ادعت انها تتحدر من علي . وكانت هناك سلالة اخرى ازدهرت
في الاندلس وهي فرع من الخلافة الأموية وعاصمتها قرطبة
ودامت من سنة ٩٢٩ الى ١٠٣١ . وليس من شك في ان [illegible]
[illegible] هذا [illegible] في [illegible]
[illegible] في تاريخ الاسلام [illegible] حروب
الداخلية . كما انك تجد [illegible] الخليفة [illegible] الاسم لا
يمارس سلطته حتى في عاصمته .

وفي مدة حكم معاوية وقعت حركة اخرى كانت ذات تأثير في
الأحداث التي تلت ، اذ ادعى اهل العراق الحسن بن علي الخليفة
الشرعي وتسميته هذا الاسم متفقين على ان الحسن كان اكبر ابناء
علي وفاطمة ابنة النبي الوحيدة الباقية بعد وفاته . ولكن الحسن
الذي كان يميل الى الترف والبعد عن الحكم والادارة لم يكن
رجل الموقف . فتنازل عن الخلافة مكتفياً بهبة سنوية منحه اياها
معاوية . وتوفي الحسن في الخامسة والأربعين والراجح انه مات
مسموماً . واشيع فيما بعد انه قتل بأمر معاوية ، وتحمل [illegible] الحسن

شهيداً لابن سيد الشهداء الحسين .

وكان اخوه الحسن الذي آثر العزلة احبَّ ميل مدينة جده خلافة معاوية . حتى اذا دعي الى البيعة ليزيد بن معاوية سنة ٦٨٠ ابى اباءً شديداً . واتصل به اهل الكوفة الذين كانوا دعوه من قبل علي والحسن ، وزيّنوا الرحيل اليه حتى حملوه على الشخوص ، فخرج متوجهاً الى الكوفة ومعه جماعة من نسائه ومن والاه . وارسل عامل الأمويين على العراق جيشاً مؤلفاً من اربعة آلاف مقاتل عليهم عمر بن سعد ، فوافى الحسين في كربلاء ، وذلك في العاشر من محرّم سنة ٦١ هـ (١٠ تشرين الأول سنة ٦٨٠) ، وكان الحسين قد برز مع جماعته وتقدمهم . وابى الحسين نفسه حتى الاستسلام فأحاط به رجال الامويين من كل جانب وقتلوه حتى في أصحابه . ثم قتل بسهم ارسله فسقط شهيداً . واحتُزّ رأسه فحمل مع اهله الى يزيد بدمشق ، ثم رُدّ الرأس الى اخت الحسين واسمه فدفن مع الجسد في كربلاء . ويقيم الشيعيون ذكرى الحسين ، يقيمونه كل سنة في العاشوراء ، عاشر محرّم ، من مقدمهم اسباب واحداث مؤلمة في ذلك مقدمة من الرسول وخواصه وآلامه وصبره .

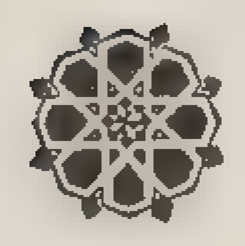
وكان معاوية ذا مقدرة عظيمة في الادارة ، فحوّل من الفوضى البدوية مجتمعاً إسلامياً منظماً ، وظهر اول جيش مدرب عرفه الاسلام ، وأسس أول ديوان للسجل في الدولة الاسلامية ، وسعى لانشاء مصلحة للبريد تعمل على ربط جميع اجزاء الدولة وتقرب بعضها ببعض .

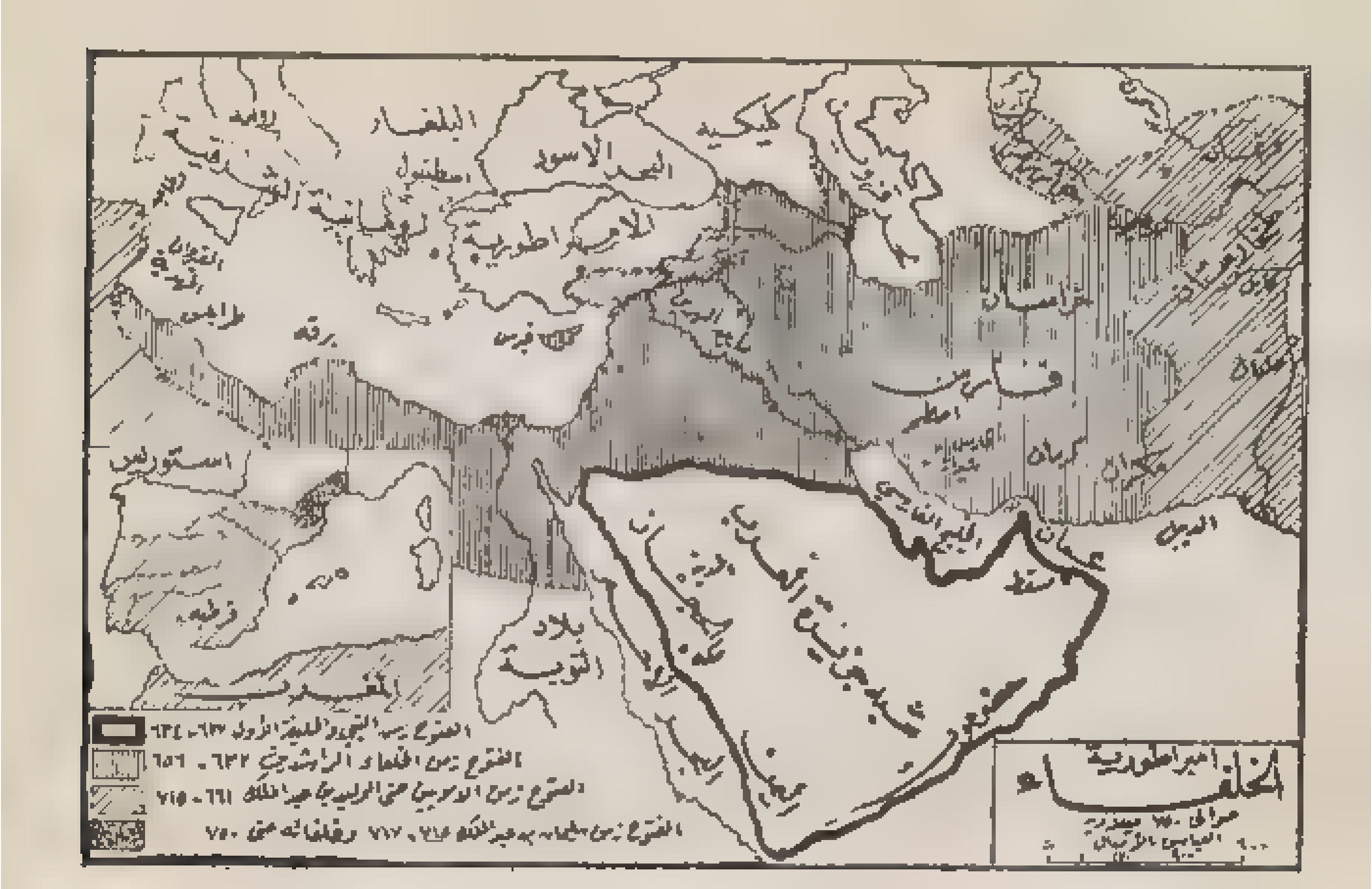
... في حكمه ... معاوية ... من الخلفاء .

ويذهب مؤرخو سيرته من العرب الى ان حلمه كان اعلى صفاته فلم يكن يستعمل الشدة الا متى رأى استعمالها محتما ، اما في غير ذلك فكان يحاول استرضاء مقاوميه وكسب ثقتهم [illegible] وكان اذا [illegible] الموقف [illegible] عدوه من عزائمه ، وأضعف مقاومته بلطفه ولينه . وكان حبه [illegible] ومن اقواله الدالة على حلمه : « لا اضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت [illegible] واذا [illegible] وهناك كتاباً قيل انه بعث به الى الحسن بن علي [illegible] قوله عن خلافته له [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ذكره [illegible] .

ويقال معاوية [illegible] وكذلك بعض الخلفاء [illegible] وحاول [illegible] القسطنطينية [illegible] . وفي خلال امارته على الشام في ايام عثمان تعرض اسطول الاسلام لقوة بيزنطة البحرية ، ونشبت بينهما اول معركة بحرية عظيمة في تاريخ الاسلام ، ذات الصواري ، وهي معركة دموية [illegible] شاطىء [illegible] في آسيا الصغرى . اما القسطنطينية فلم تسقط ، وبقيت في يد البيزنطيين حتى ايام الاتراك [illegible] وعجز العرب عن ان يثبتوا اقدامهم

في قلب الصحراء او ان يعجزوا عن [illegible] لذلك وجهوا جهودهم الى التوسع شرقاً وغرباً حيث كانت المقاومة على أقلها وهكذا استأنف الاسلام في زحفه [illegible] ومسيرة الى الامام والى العلاء .




امبراطورية الخلفاء
البحر الأسود
البلغار
الامبراطورية
قسطنطينية
برقة
طرابلس
قبرص
استوريس
قرطبة
المغرب
بلاد النوبة
شبه جزيرة العرب
مكة
عمان
مسقط
فارس
اصطخر
كرمان
خراسان
الفتوح زمن النبي والخليفة الأول ٦٢٢ - ٦٣٤
الفتوح زمن الخلفاء الراشدين ٦٣٢ - ٦٥٦
الفتوح زمن الأمويين حتى الوليد بن عبد الملك ٦٦١ - ٧١٥
الفتوح زمن سليمان بن عبد الملك ٧١٥ ، ٧١٧ وخلفائه حتى ٧٥٠

فتح الأندلس

انتهى الدور الأول من الفتوحات الاسلامية باستيلاء المسلمين على سورية والعراق وفارس ومصر. وتلاه اضطرابات داخلية لم يطل أمرها .

وبدأ الدور الثاني من الفتوحات بحملة شديدة اتجهت شرقاً ، فعبرت نهر جيحون ، الحد الفاصل في عرف الفاتحين بين ايران وطوران ، أي بين الشعوب الناطقة بالفارسية والشعوب الناطقة بالتركية. وتابعت تقدمها الى بلاد المغول الخارجية . وسقطت في أيدي المسلمين بخارى وشاش وسمرقند وهي المدن التي كان لها شأن كبير في تاريخ الاسلام اللاحق. وتوطدت سلطة الاسلام في آسيا المتوسطة الى درجة اضطرت الصينيين ان يخلدوا الى السكينة. ومن هذه الحملة توجهت فرقة الى الجنوب واجتازت البلاد المعروفة اليوم

بلوجستان . وفي عام ٧١٢ استولت على السند وفتحت وادي الاندس وارض الملتان ، سندو ، واتسع مدى الفتوحات الى ان امتدت في جنوب البنجاب وهي مرار بوادي شهير . واعتنقت المقاطعات الهندية على الحدود الاسلام ، ولا تزال عليه حتى اليوم . وبذلك احتل الاسلام منطقة جديدة في الثقافة البوذية .

واصطدمت الموجة العربية في الجبهة الشمالية الوسطى مرة اخرى بالقسطنطينية . فجرى الحصار المشهور الذي دام من آب ٧١٦ الى ايلول ٧١٧ والذي حالت فيه سلسلة حوادث معينة دون مرور الاسطول العربي الى القرن الذهبي .

على ان فروع الحملات الاسلامية واوسعها مدى هي التي اتجهت غرباً . وكان العرب قد اخترقوا افريقية الشمالية الى قرطاجنة القديمة . وقد قاد هذه الحملة موسى بن نصير وهو من مواليد الشام ، وقد كان من ابرز قواد الاسلام . وتوغل المسلمون في بلاد البربر ، والبربر يسمون باسم الفرع الحامي من الجنس الابيض . وارجح انهم والساميون من اصل واحد . وكان معظم هؤلاء البربر الذين قطنوا السواحل قد اعتنقوا النصرانية قبل الفتح الاسلامي . وفي هذه الربوع نشأ القديسون ترتليانوس وقبريانوس واوغسطينوس وغيرهم من آباء الكنيسة الأولى . اما في داخل البلاد فلم تؤثر الحضارة الرومانية او البيزنطية في الشعوب الاصلية تأثيراً محسوساً لانها كانت اجنبية وغريبة عن عقلية اهالي افريقيا الشمالية من البدو وشبه البدو .

والظاهر ان الاسلام كان له تأثير خاص في الشعوب التي في مستوى البربر الثقافي . فما اسرع ما استطاع العرب الساميون

ويوثق عرى الاتحاد بين شعوبه الخمس . وكان الاسلام في
اواسط آسيا قد قرّب الأقوام لغة ودينا كما فعل الآن في الاقوام
البربرية . وهكذا اغتنى دم المسلمين فأصبحوا بامتزاجه بدماء جديدة
وبنى للغة العربية مجال واسع للانتشار . وتوحدت قمة الاسلام
واخذت تتدرج في معارج الرقي نحو السلطة العالمية الشاملة

وليس في تاريخ القرون الوسطى الحربي ما يشبه الحملة العربية
على بلاد الاسبان من حيث الجراءة وسرعة الانجاز واستحصال النتائج .
ولقد بدأت هذه الحملة في شهر تموز من عام ٧١١ بمرور فرقة
الاستطلاع الى عدوة طريف ، والمؤلفة من اربعمائة من المشاة
ومائة من الفرسان - كلهم بربر من جنود موسى بن نصير عامله في
افريقيا - الى شبه جزيرة صغيرة سميت طريفة باسم قائد الفرقة .
وهي اقصى نقطة جنوبية من القارة الاوربية

واستطاع موسى الذي كان قد تولى الامارة على افريقيا منذ
سنة ٦٩٩ ان يجلي البيزنطيين عن الأراضي الواقعة غربي قرطاجنة .
ثم توجهت طموحاته الى الاوقيانوس الاطلنطي توطئة لتخطي العدوة على
اوربا . وشجعه على ذلك ما كان من نجاح الغزوة الاولى وما عرفه
من التفسخ والاضطراب السائدين بين اعضاء الاسرة القوطية
الغربية الحاكمة . والحق ان اكبر دافع له كان الغنيمة لا الفتح
فوجه في عام ٧١١ الى الاندلس مولى له بربريا كان قد اعتقه
يدعى طارق بن زياد على رأس سبعة آلاف رجل اكثرهم من البربر .
فنزل بهم طارق الجبل الذي خلّد اسمه فعُرف منذ ذاك الحين بجبل
طارق وجاز المراة الفاصل الى الاندلس ، وعرضه ثلاثة عشر

مثلاً، في معارك قديمة جداً ... حتى كثرة على ... في الروايات.

وحسب ظروف الأعداء وقعت في ١٠ تموز عام ٧١١ على رأس اثني عشر ألف رجل بجيش لذريق عند مصب وادي لكة (نهر سلادو). وكان لذريق قد جمع سبعين ألفاً من عبيده وأتباعه وعرشه وشنت الجيش فدارت الدائرة على القوط، وكان عددهم نحو من خمسة وعشرين ألفاً، فانكسروا انكساراً تاماً وتشتتوا. أما ما حدث للذريق فلا يزال سراً غامضاً، ويكتفي مؤرخو الأسبان والعرب بالقول إنه اختفى.

بعد هذا النصر الحاسم لم يلق المسلمون في أسبانيا، ولم يلقوا مقاومة شديدة إلا في المدن التي كان يحميها فرسان القوط. واتجه طارق وسواد جيشه إلى عاصمة الأسبان طليطلة عن طريق استجه فاحتلها. وقد ساعد على ذلك حماية بعض أهلها من اليهود. وأنفذ طارق بعض القطعات إلى المدن المجاورة لكنه أعرض عن ... على إشبيلية في الجنوب لمنعة حصونها. واحتلت فرقة من الجيش غرناطة دون أي مقاومة. واحتلت فرقة ثانية مرية وهي قرب الشاطئ لقلة ... عن ساحة اليوم. وهاجمت فرقة ثالثة من الفرسان قرطبة فحاصرتها مدة شهرين. ويقال إن الذي مهد لفتح هذه المدينة التي صارت فيما بعد عاصمة المسلمين راعٍ حتى دلهم على ثغرة في سورها. أما أشد معارك هذه الحملة فوقعت عند استجه، وكان الظفر فيها للمسلمين. وهكذا أصبح طارق الذي دخل الأندلس في ربيع عام ٧١١ على رأس غزوة بسيطة سيد نصف أسبانيا في آخر صيف



الصيف من هذه السنة ، وبات قبيل تمكنه بسرعة .

وحسد موسى مولاه طارق بن زياد على ما ناله من ظفر عظيم ، ولكن موقفه ... فسرع في حزيران من سنة ٧١٢ الى الاندلس على رأس عشرة آلاف من العرب والسوريين العرب متوجهاً الى المدن والحصون التي لم يفتحها طارق كمدينة شذونة وقرمونة . ثم اشبيلية اكبر مدن الاندلس وهي مما اكره تملكه ، وقد كانت عظيمة ... فقد صمدت محاصرة حتى آخر حزيران من عام ٧١٣ . وكانت اشد مدينة جابهت موسى في حملاته عند مدينة ماردة . فقد قاومت مدة ... بوجهه ... في اول حزيران من عام ٧١٣ .

وكان اجتماع موسى بطارق في طليطلة او قرب منها ، ويروى ان موسى ... طارق وحبسه ... وقيده بالسلاسل لخروجه على اوامره ... في اوائل حملته ، على ان الصلح لم يقف عند هذا الحد فسار موسى ... في الشمال ... وعبرت جنوده ... اراغون وليون وستورية وجليقية . وفي خريف هذه السنة استدعى الخليفة الوليد موسى عمله في الوقت ووجه اليه التهمة التي كان موسى ... من طارق — وهي تهمة الاستقلال بالامر دون مراجعة السلطة العليا .

وغادر موسى الاندلس مستخلفاً عليها ابنه ... عبد العزيز . وسار متباطئاً حتى قدم دمشق يصحبه طارق ... الجيش واربعمئة امير قوطي على رؤوسهم التيجان وعلى ... من ذهب ،

يتبعهم عدد كبير من العبيد والسبي ، وحاملي صناديق مملوءة قطعاً من
الكنوز والغنائم . وقد كثيراً مؤرخي العرب الاسراف في وصف
هذا الموكب الفخم الذي سار من أقصى غرب افريقية الشمالية من
الغرب الى الشرق حتى بلغ أبواب العاصمة الشامية . وهو وصف
يذكرنا بمواكب الظفر التي سار على رأسها قواد الرومان القدماء .
وكانت أخبار الموكب قد سبقته الى دمشق فتلقى موسى عند وصوله
خبراً في فلسطين أمر من سليمان ولي عهد الخلافة يشعره فيه بوجوب
تأخير دخوله العاصمة ارادة أن يصادف وصول هذا الموكب
ارتقاءه كرسي الخلافة بعد احتضار الوليد العصيب فيزداد رونقاً .

ودخل موسى دمشق في شباط عام ٧١٥ تصحبه الأمراء
القوطيون بملابسهم الرسمية وعليهم الحلي والجواهر والخدم الى
الوليد وحشد بهم في احتفال مهيب في بهو الجامع الفخم . وكان
ذلك هو الحفل في تاريخ الفتوحات الاسلامية ، شهد المسلمون
لأول مرة مشهداً من أمراء أوربة المالكة والوجهاء من سبي
الاوربيين يقدمون الطاعة لأمير المؤمنين .

وكان في التحف النفيسة التي قدمها موسى الطاولة الثمينة المرصعة
التي نسبت الخرافات صنعها للجن في خدمة الملك سليمان ، وزعم
أن الرومان نقلوا هذه التحفة النفيسة الفريدة من بيت المقدس الى
عاصمتهم ، ثم أخذها القوط منهم فيما بعد ، فكان كل واحد من
ملوكهم ينافس سلفه في ترصيعها بالحجارة الكريمة . وقد حفظت
هذه المائدة في كاتدرائية طليطلة ، ويقال طارقاً عثر يوم هرب بها
أسقف المدينة حتى اذا تلقى موسى طارق في طليطلة حرص

بسباط واغتصب منه . ويحكى ان طارق كان قد اخفى احدى
قوائمها ، حتى كان هو وموسى في حضرة الخليفة أبرز هذه القائمة
ليدلل على انه هو الذي غنم المائدة فصدقه الوليد وعظم جزاءه .

ونكب موسى من بعد كثير غيره من قواد عرب الدارين ،
فقد ذاق الخليفة سليمان ، وعاقبه بالوقوف يوماً كاملاً في حرارة
الشمس حتى وقع مغشياً عليه ، وصادر امواله وجرده من كل
سلطة . وآخر عهدنا بموسى انه عاش فقيراً بائساً مستعطياً في
قرية نائية بالحجاز وهو طاعن في السن .

أصبحت اسبانيا الآن ولاية من ولايات الخلافة ، واطلق عليها
العرب اسم الاندلس تحريفاً لاسم الوندال الجرمانية التي كانت قد
احتلت البلاد من قبل القوط الجرمانيين ايضاً . ولم يلق موسى
وخلفاؤه الا مقاومات ضعيفة في الشمال والشرق تتغلب وبعض
الثورات تقمع . ولم تقع هذه البلاد كلها وتخضع الى ملك العرب في
خلال سبع سنين . وهي من اكبر امصار اوربا في العصور الوسطى
واجملها . وقد قدر لهؤلاء العرب ان يحكموها قرون

اما سبب هذا النصر الذي قد لا يكون له مثيل في التاريخ
فيمكن استخلاصه من هذه الحوادث التي سردناها بعد . واولها
ان العرق القومي بين القوط الغربيين الذين دخلوا اسبانيا في
اوائل القرن الخامس ، وهم من برابرة الجرمان ، وبين اهل
البلاد الاسبان الرومانيين كان لا يزال ظاهراً . وقد حكم هؤلاء
القوط زمناً طويلاً قبل ان استولوا على البلاد من الاقوام الجرمانية
التي سبقتهم كالسويفي والوندال . وحكم ملوك القوط البلاد حكماً

مطلقاً عليه ، وحافظوا محافظتهم على المذهب [illegible] في [illegible] حتى
عام ٥٨٧ حين [illegible] حكامهم [illegible] كان [illegible] مذهب أهل البلاد
الذين كانوا [illegible] حكم [illegible] ويحبون مذهبهم [illegible]
[illegible] والأندلس وهي [illegible] كبير من السكان [illegible]
من [illegible] ولا [illegible] هؤلاء [illegible] ويبدوا
[illegible] ، وكذلك [illegible] على حكم القوط [illegible] من
[illegible] على [illegible]
وكان أحدهم قد [illegible] في عام ٦١٢ أمر [illegible] على [illegible]
يحاربوا [illegible] ومصادرة الأموال .
[illegible] أن يتركوا [illegible] في
[illegible] في [illegible]

ولا [illegible] خلاف [illegible] الذي كان [illegible]
بين الأسرة المالكة [illegible] من [illegible]
والمراكز [illegible] في البلاد [illegible] الدولة ففي أواخر القرن
السادس [illegible] هؤلاء [illegible] في
مقاطعاتهم . و[illegible]
من [illegible]
[illegible] وظل [illegible] أنهم آمنون
[illegible] لاسترجاع
[illegible] في [illegible] من مظاهر
الإلهة . [illegible]
أما الدور الذي [illegible] قيل إنه [illegible]

الجيش العربي بمراكب التي احدروا بها التحقيق فقد ولع فيه كثيراً .

وإذا كان سقوط سرقسطة احد الخواطر الاخيرة في اسبانيا وفرنسا ، ولكن في امة العرب حاجز منيع هو جبال البرانس على ان موسى لم يقطع هذه الجبال على الرغم من ان بعض مؤرخي العرب ينسب له هذا العمل ويعزو اليه اجتياز بلاد فرنجة الى الشرق عن طريق القسطنطينية الى دار الخلافة في دمشق . ولا يستغرب ان يكون شيء من هذه الاخطاء قد حدث في مخيلات هؤلاء المؤرخين لان معرفتهم الجغرافية باوربة كانت قاصرة . والواقع ان اول من قطع سلسلة جبال البرانس هو ثالث خلفاء موسى على الاندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفي ، وذلك في عام ٧١٧ او ٧١٨ .

ولما اغرى الحر جنده بمصادرة كنوز الاديرة والكنائس في فرنسا ، وشجعه على ذلك اضطرابات داخلية بين قواد البلاط الميروفنجي ودوقات اكوتين . فجرد حملات تبعتها من بعده حملة السمح بن مالك الخولاني . وفي عام ٧٢٠ استولى السمح على سبتمانيا التي كانت تابعة لمملكة القوط المنقرضة . ثم احتل اربونة التي جعلها العرب فيما بعد حصناً منيعاً يشرف على دار الصناعة ومعدات الحربية ومستودع للاسلحة والمؤونة . ولكن محاولته في السنة التالية سبيل اكتساح طولوز كرسي دوق اكوتين باءت بالفشل . لان المسلمين من صلاته عوز امدادهم . وقد استشهد السمح وبهذا الفشل تم اول انتصار لامير جرماني على جيش عربي . وجاءت غزوات العرب اللاحقة فيما وراء جبال البرانس غير موفقة .

وقاد عبد الرحمن بن عبدالله الغافقي جيشه الضخم في اسبانيا آخر حملة واشدها خطورة. فتقدم وعبر سلسلة جبال البرانس الغربية في مستهل ربيع ٧٣٢ فقهر دوق اكويتان على ضفتي نهر غارون، ثم هاجم بوردو بعنف شديد واحرق الدور في كنائسها، وبعد ان أحرق الباسيليكا القائمة خارج سور بواتييه، زحف شمالاً حتى حوالي مدينة تور. وقد كانت تور شبه عاصمة دينية لسكان بلاد الغال تحتوي مرقد القديس مارتين الذي ينسب اليه التقاليد تنصير الغسقونيين. ولا ريب ان الذي جذب الغزاة اليها ما حواه ديرها من مقتنيات الديرية الفاخرة.

وبين تور وبواتيه لقي عبد الرحمن شارل قائد البلاط الفرنجي الذي لقب فيما بعد مارتل اي المطرقة والذي استنجد به دوق اكويتان. وكان شارل رجلاً شجاعاً حرباً اخضع اعداء كثيرين واخضع دوق اكويتان الذي كانت له نزعة للاستقلال بادارة مقاطعته [illegible]. ومع ان شارل وهو ابن غير شرعي [illegible] لم يكن ملكاً فانه تصرف تصرف الملوك.

وقف الجيشان — الجيش العربي بقيادة عبد الرحمن والجيش الفرنجي تحت امرة شارل، واكثر افراده (اي جيش الفرنجة) من المشاة اللابسين جلود الذئاب وقد تدلت ذوائبهم المتلبدة على اكتافهم — احدهما في وجه الآخر مدة سبعة ايام يرقبون فيها التحام المعركة. وطال أمد المناوشات حتى كان يوم سبت من تشرين الاول عام ٧٣٢. فبدأ القائد العربي الهجوم. أما جند الفرنجة

— حسب وصف مؤرخ عربي — فقد لقوا من الفرنجة في وطيس المعركة شكلاً هندسياً مربعاً محكماً ووقفوا متراصين كتفاً الى كتف . ووجدوا أن صفوف العدو كتلة من جليد لا تزعزعه العواصف . وتوالت هجمات العرب الخفيفة العدة على هذا الجمع المتراص فلم تنل منه شيئاً ، وظل الفرنجة في مراكزهم يجدلون كل مهاجم دنا منهم . وقد كان ممن سقط في هذه المعمعة عبد الرحمن نفسه . واسدل الظلام حجاباً على الجيشين ستر احدهما عن الآخر . وما طلع فجر اليوم التالي حتى ظن شارل ان السكينة المخيمة على معسكر العدو انما هي خدعة . فبعث الجواسيس يستطلعون حقيقة الامر فتبين لهم ان العرب انسحبوا تحت جنح الظلام بعد أن أخلوا معسكرهم [illegible]

وقد وقف الفتح العربي يوم معركة بواتييه او تور ، وعرفت في المبالغة باهمية نتائجه ، وعدّها المستشرقون آخر حلقة في سلسلة الفتوحات التي امتدت مدة قرن في البلاد الغربية . ويقول المؤرخ الانكليزي غيبون ، وتابعه كثيرون من مؤرخيهم انه لو انتصر العرب في ذلك اليوم لكنت ترى المساجد لا الكنائس في باريس ولندن ، ولسمعت تفسير القرآن لا الكتاب المقدس في جامعة اكسفورد وغيرها من معاهد العلم في الغرب . وبعض المؤرخين المحدثين يعدّ معركة تور هذه احدى معارك التاريخ الفاصلة .

والواقع ان هذه المعركة لم تغير شيئاً . فموجة المزاحمة من العرب والبربر كانت قد استنفدت كثيراً من قوتها فوصلت الى حدّ طبيعي من التوقف اذ بعدت عن جبل طارق ، نقطة بدايتها ،

نحو الف ميل . وكانت قد دبت الخلاف الداخلي بين العنصرين
اللذين يتكون منهما جيش عبد الرحمن اعني العرب والبربر ،
ودبت طلائع الضعف في معنوياته . ولم يكن للعرب انفسهم
شعور بوحدتهم او هدف يجمعهم . والواقع انه وان كبح جماح
العرب عند هذه المرحلة فقد واصلوا غاراتهم في جهات اخرى .

ففي عام ٧٣٤ مثلا احتلوا افنيون ، وبعد مضي عشرين سنة
أغاروا على ليون، ولم تفلت اربونة معقلهم العسكري من قبضتهم
حتى عام ٧٥٩ . ولانكسار العرب من بواتيه يمكن تسميته
توقف المد العربي ، لكنه جاء بعد ان اقتربت الجيوش
الاسلامية من الظفر .

وامتدت الامبراطورية الاموية ... وهي التي شملت من
حدود الصين الى ... واصبحت دمشق البلد الذي تقول الرواية
ان محمدا امتنع عن دخوله لانه اراد ان يرى الجنة مرة واحدة عاصمة
هذه الامبراطورية المترامية الاطراف . وفي وسط هذه المدينة قام
قصر الامويين ... على ... المدينة الى الجنوب
الغربي حتى ... شيخ المكان ... وكانت ... معاوية مؤسس
السلالة الاموية ... الجامع الاموي الذي ... الوليد
... لا تزال ... الى اليوم . وفي ردهة
الاستقبال كان مقعد العرش المربع تغطيه الوسائد المزركشة ...
ويجلس عليه الخليفة في الحفلات الرسمية ... متربعاً .
وكان يقف عن يمينه ... من اقربائه ... حسب الاقدمية في
السن ، وعلى شماله ذوو الارحام منهم ، وخلفهم ... والشعراء

والمتنفسون . أما المجالس بباب القبة الرخامية المستديرة فكانت تعقد
في الجامع الأموي العظيم . وهو لا يزال حتى يومنا هذا من أفخم
المعابد في العالم وأعجبه . ولعل الخليفة استمع موسيقى وطرباً مع
ندمائه وكبرائهم في مجلس كهذا . ففي عهد الخلافة الأموية بلغت
العروبة أعلى قمم مجدها ، ووصل الإسلام إلى آخر مرحلة من مراحل
تقدمه وسيره .



ب ـ الحياة الثقافية والاجتماعية

ننتهي الآن في بحث هذا الى ناحية الرئيسة في التاريخ الاسلامي، وننتقل من سرد أحداث المعارك والفتوح الى ما هو أكثر خطورة، أعني بعده العسكري والتطور الثقافي في الامبراطورية الاسلامية وما رافقها من نهضة أدبية في العلم والفن والفلسفة. في هذا الطور كان الفتح العربي عن طريق العقل لا عن طريق السيف، وذلك بالاستعانة بكنوز الآداب والعلوم اليونانية والسريانية والفارسية والهندية منقولة الى العربية.

ومن الحقائق الراهنة أن طبيعة الحياة اليوم في دمشق وعادات سكانها لا تختلف كثيراً عما كانت عليه مذ كانت عاصمة الامويين. في ذلك العهد كان في دمشق وغيرها من المدن الكبرى أحياء خاصة

يحكمها العرب محافظين فيها على الاسلوب القبلي ، واليوم لا تزال هذه الاحياء في دمشق وحمص وحلب مستقلة عن سواها .

وكان سكان الامبراطورية ينقسمون الى اربع طبقات اجتماعية ، وكانت الطبقة العليا تتألف من الفئة المسلمة الحاكمة ، وعلى رأسها أسرة الخليفة والارستقراطيون من العرب الفاتحين . ولا يُعرف بالتدقيق عـدد هذه الطبقة ولكنها كانت في حمص والشام عدداً يتراوح ما بين العشرين والخمسة والاربعين الفاً .

وكانت الطبقة الثانية تتألف من الموالي اي المحدثين في الاسلام ممن قبلوا رسالة محمد طوعاً أو كرهاً . وكان لهذه الطبقة حقوق في الجنسية الاسلامية بالاسم لا بالفعل وذلك لأن الأثرة (الشوفينية) العربية كانت قوية الى حد لم تستطع معه هذه الحقوق النظرية ان تتحقق في الواقع ، ولم يكن الاعتراف بها الا ظاهرياً . ولا شك في ان مالكي الاراضي اجبروا على دفع الخراج طوال معظم العهـد الاموي سواء أكانوا من المؤمنين ام من غـير المؤمنين . ومما لا ريب فيه ابداً أن أكبر العوامل التي سببت التناقص في دخل الدولة كان كثرة عدد الداخلين في الاسلام ، لان الجزية تسقط في الاسلام .

وادرك الموالي انهم كانوا في احط المراتب الاجتماعية في البيئة الاسلامية ، فاستنكروا هـذا الوضع ولم يقنعوا به قط ، وهذا الوضع السيء الذي حملهم عـلى تأييد حركات الشيعة في العراق والخوارج في فارس وغـير ذلك من الحوادث التي أثارت نزاعاً مستمراً في الاسلام وسفكت دماء غزيرة . الا ان بعضهم ترفعوا عن

تشبث بدين الجديد اكثر من اصحابه وتحمسوا له الى درجة من التعصب جعلتهم يضطهدون غير المسلمين وكان اليهود والنصارى الذين اعتنقوا الأسلام من اشد المسلمين الأولين صلابة في عدم التسامح .

ولما كان معظم هؤلاء الموالي ابناء ثقافة عريقة في القدم فليس عجباً ان يكونوا اول من أقبل في النشأة الاسلامية على الدروس العقلية والفنون الجميلة . ومن كادوا يظهرون على اخوانهم المسلمين العرب في مجال الثقافة حتى اخذوا يطمحون الى الزعامة السياسية . ولقد تزاوجوا بالعنصر الفاتح فاختلط بهم الدم العربي حتى ضاع بين خليط العناصر .

وكانت الطبقة الثالثة تتألف من ابناء الطوائف التي تدين بالديانات المنزلة المعروفين باهل الذمة ، وهم النصارى واليهود والصابئة الذين كانوا قد دخلوا في عهد الاسلام . وليس من شك في ان اعتراف المسلمين بكيان هذه الطبقة ، بعد ان اشترطوا عليها التجرد من السلاح وتأدية الجزية مقابل الحماية الاسلامية ، كان من اعظم الأحداث السياسية التي جاء بها الاسلام . وانما يرجع ذلك، اكثر ما يرجع ، الى ما كان يكنه محمد من الاحترام للتوراة، في حين يرجع بعضه الى العلاقات الودية مع رؤساء بعض القبائل المسيحية العربية .

وقد تمتع اهل الذمة في هذا الوضع بقسط وافر من الحرية لقاء تأديتهم الجزية والخراج . فكانوا يرجعون في قضاياهم المدنية والجزائية الى رؤسائهم الروحيين ، الا اذا كانت القضية تمس مسلماً . لقد

كان قانون الإسلام أقسى من أن يتفق مع أعراف الذمة. ولبث
شيءٌ من هذا النظام ظل معمولاً به حتى آخر العهد العثماني وفي دولتي
الانتداب في سورية وفلسطين.

أما الطبقة الرابعة فهي طبقة العبيد، وكانت في أسفل درجات
السلم الاجتماعي. فقد احتفظ الإسلام بنظام العبيد، وهو نظام
سامي قديم أقرّته التوراة. على أن الإسلام حسّن حالة العبد بعض
الشيء. ومع أن الشرع الإسلامي منع استرقاق المسلم، فهو لم يعتق
العبد حتى إذا أسلم. وكان معظم العبيد في فجر الإسلام من
أسرى الحرب ونعني بهم النساء والأطفال الذين لم يُقتلوا والذين
أُسروا بالقتال أو أُخذوا في الغزو. وما لبثت تجارة العبدان
أصبحت تجارة شائعة رابحة في جميع البلدان الإسلامية. وكان
الرقيق أجناساً شتى فمنه الزنجي من أفريقيا الشرقية والوسطى،
والأصفر من تركستان الصينية، والأبيض من الشرق الأدنى أو
من أوروبا الشرقية أو الجنوبية. وكانت أثمانهم مختلفة أيضاً فقد بلغ
ثمن العبد الإسباني نحو ألف دينار، في حين أن العبد التركي لم يزد
ثمنه على ستمئة دينار. ولقد نصّت الشريعة الإسلامية على أن مولود
الأمة عبدٌ سواء أكان الوالد عبداً أم حرّاً إلا إذا كان الوالد هو
سيد الأمة واعترف ببنوّته. أما أولاد العبد من زوجة حرة
فأحرار.

ويمكننا الاستدلال على عدد العبيد الذين طغا سيلهم على
الامبراطورية الإسلامية بتداعي الفتوحات من الروايات التالية،
وهي بلا ريب مبالغ فيها. فقد ذكروا أن موسى بن نصير رجع

ثلاثة عشر اسيراً من سبي افريقيا ، فاهدى خمسهم الى الخليفة ، وانه احد من بيت الامير قتيبة لنفسه في اسيا . ثلاثين الف عذراء كما ذكروا ان عدد اسرى فتح واحد فقط من قواد المسلمين في تركستان بلغ مئة الف .

وكان الزواج الشرعي محصوراً على سيدة واحدة اما التسري فكان مباحاً . والاولاد الذين يولدون في حالة التسري هذه ينسبون الى الوالد ، فهم احرار غير ان وضع الأم وهي سرية ترتفع في مرتبة ام ولد ، فلا تكون سبية او امة بعد ذلك ومتى مات سيدها اعتقت . وقد لعب عدد الرقيق دوراً هاماً في اختلاط العرب بشعوب تختلف عناصرها لاعربية فنتج عن ذلك امتزاج تام بينهم وبين شعوب عربية متعددة .

لا جدال ان غزاة من عرب الصحراء دخلوا الامصار التي فتحوها خالين او يكادون من كل ثقافة علمية او تراث ثقافي . ولقد حال قرب عهد الامويين من عصر الجاهلية وحروبهم الكثيرة وعدم استقرار الاحوال الاجتماعية والاقتصادية في العالم الاسلامي دون استقدام فكري في بدء عهدهم . غير ان جذور الفكر استقت عن الثقافات السابقة من يونانية وسريانية وفارسية كانت قد زرعت في تربة العهد الاموي ثم جاءت الدولة العباسية حتى نمت هذه البذور لتصبح اشجاراً باسقة ذات اثمار يانعة . فالعصر الاموي اذاً كان على الجملة عصر استعداد وتحضير .

وسقوط الفرس والبيزنطيين والاضطرار لدخول نسوانهم حظيرة الاسلام وتزاوجهم بالعرب زال ذلك الحاجز المنيع الذي وضعه

الأولون من العرب والأعاجم لم يعد لقومية المسلم أهمية

ومهما كانت قومية المسلم أصلاً فقد صار يعد الآن عربياً. أصبح كل من اعتنق الدين الإسلامي وتكلم اللغة العربية عربياً بقطع النظر عن قوميته الأصلية. وهذا الحدث كان من أشد الأمور خطورة في تاريخ المدنية الإسلامية. فنحن إذا ذكرنا «الطب العربي» أو «الفلسفة العربية» أو «الرياضيات العربية» فليس نقصد بذلك أن هذه العلوم كلها كانت من نتاج العقل العربي، أو أن العرب وحدهم ورقّوها هم من أبناء الجزيرة بل نعني مجموعة تلك العلوم التي وضعها في اللغة العربية رجال نشأوا في عصور الخلافة وهم فرس ومصريون وعرب من نصارى ويهود ومسلمين، وقد استمدّ بعضهم معلوماته من مصادر يونانية وبعض الآخر من مصادر آرامية أو هندية فارسية أو غيرها.

وبدأت دراسات اللغة العربية وفيها الصرف والنحو في البصرة على تخوم فارس، وكان الباعث الأول على ذلك حاجة الداخلين في الإسلام إلى تعلّمها. غير أن هؤلاء أنفسهم قاموا فيما بعد بقسط وافر من هذه الدراسات. وكانت الرغبة الأولى الملحّة هي تلقين الموالي اللغة العربية كي يفقهوا القرآن ويشغلوا مناصب الإدارة ويخاطبوا الفاتحين بلغتهم. وتنص الروايات على أن واضع قواعد النحو العربية هو أبو الأسود الدؤلي (توفي عام ٦٨٨). ولقد زعم ابن خلكان أن الخليفة وضع للدؤلي هذا الأساس وهو أن «الكلام كله ثلاثة أضرب: اسم وفعل وحرف». ثم دفعه إليه وقال له «تمّم على هذا» فتمّ موضوعاً. على أن النحو العربي ينمّ عن

شوطاً طويلاً لم يغنم به حظ من الجمال. وقد اصطبغ في خلال شوطه بألوان المنطق اليوناني.

وقضت دراسة القرآن وضرورة شرحه إلى ظهور علمي فقه اللغة (الفيلولوجيا) ومفرداتها وإلى ظهور علم الحديث وهو أبرز العلوم الإسلامية. والحديث بمعنى الاصطلاحي عمل أو قول منسوب إلى النبي أو أحد الصحابة. وقد كان القرآن والحديث الأساس الذي قام عليه علم أصول الدين وعلم الفقه. والشريعة الإسلامية أشد علاقة بالدين وأقرب من علم الحقوق المعروف عند أرباب القانون اليوم. ولا شك في أن الشرائع الرومانية أثرت مباشرة، وبواسطة التلمود وغيره، في التشريع الأموي. بيد أن مدى هذا التأثير لم يتحقق بعد.

وقد شهد هذا العصر نشأة العلوم العربية التي جاء معظمها عن طريق الترجمة. وكان أقدم ما خرج للناس رسالة في الطب نقلها إلى العربية رجل يهودي عن كتاب يوناني ألفه كاهن مسيحي في الإسكندرية. واعتنى العرب في بدء نهضتهم الأدبية بعلم الكيمياء، كما عنوا بعلم الطب فأبدعوا فيها. وكان لهم فضل كبير في هذه العلوم التي اتسع مداها على مر الأيام.

وازدهر فن الشعر في البلاط الأموي في دمشق وكذلك ازدهر فن الموسيقى على الرغم من مقاومة المحافظين الذين اعتبروا فن الموسيقى ولعبه بمنزلة الخمر والميسر اللذين حرمهما القرآن. ولا شك في أن الرقي العسكري في عهد الأمويين تبعه أبعد غاية في صناعة الشعر. أما عصر الفتوحات الأولى فقد كان محدوداً لم يظهر فيه

شاعر واحد في العرب وهو إمام الشعراء . ولما أن تسلم الامويون
زمام الحكم حتى استعبدت آلهة الخمر والغناء والشعر مجالسهم الساهرة
فظهر لأول مرة شعر الحب في العربية عمر ابن أبي ربيعة المتوفى
حوالي ٧١٩ ، وهو يرى أنه ثمة مجال لعرض حديث الحب
بعيدا عن تحملات العصبيات القبلية ... ، وتوجد الى جانبه
أبيات الحب المشهورة لجميل وغيرهم .

أما أعظم روائعه فقد ظهرت الفنون فتكشف في الصناعة المعمارية
ولا سيما في المساجد . فالمعماريون المسلمون وغيرهم ممن استخدموا
في هذه الفنون لم يحدثوا في فن البناء شيئا جديدا بل سلكوا طرق قوم
على أسس من تقاليدهم ولكنهم تصرفوا فيها تصرفا وفيه أظهروا روح
الدين الجديد . ولا أن عمارة المسجد خلاصة تاريخ امتداد الثقافة
الاسلامية سواء أكان ذلك في الاسلام وعناصره الخاصة أم خارج
الاسلام في مختلف الأمم الأخرى . فالمسجد هو كتاب مكتوب
بحروف دالة على العلاقات المختلفة بين المسلمين وجيرانهم .

ولقد أصبح المسجد النبوي الذي في المدينة على البساطة نموذجا
لمعابد العرب الاسلامي الأول وكان أول أمره عبارة عن حوش لا
سقف فيه جدرانه من اللبن ثم مد النبي سقفا فوق الجهة المجاورة
وظل ما بقي مكشوفا لأشعة الشمس المحرقة . وكانت
أعمدته من الجذوع وسقفه من الجريد عليه طين . وكان الرسول
في بدء الأمر يخطب الناس غير مستند الى شيء ، ثم خطب مستندا الى
جذع قائم في هذا المسجد يعتمد عليه إذا طال قيامه . ثم بدا له أن
يتخذ منبرا وجعله من خشب الأثل ذا درجات ثلاث على

نحو ما عرف من الصور في الكنائس النصرانية في الشام . وكان
كل ما اشتمل عليه المسجد الجامع الاول بناء وسقف يقي المصلين
ومنبراً يرقاه الخطيب .

ولما تقدم العرب فتحوا الأمصار القريبة منها والبعيدة من
انحاء آسيا العربية وافريقيا الشمالية صارت في ايديهم ثروات لا تحصى
من التحف والدقائق ، فشادوا رفيعاً فرفيعاً . والأمم من حيث انها
اصبحت في حوزتهم معارف فنية جمة ورثتها الامم المغلوبة عن
عصور خالية . ومن اشهر هذه الاوضاع الفنية التي حوّرت حوادث
الجوامع الاسلامية لدرجة ان اصبحت تعرف على مرور الايام بالفن
العربي .

واسمى بيت المقدس الى ان يكون منذ بدء عهد الاسلام بلداً
مقدساً في نظر المسلمين جميعهم ، ويرجع ذلك الى منزلة بيت المقدس
في التوراة ولأنه كان القبلة الأولى في الاسلام والموضع الذي
وطأه محمد قبل صعوده الى السماء ليلة الاسراء . وعليه تقوم اليوم
قبة الصخرة التي بنيت عام ٦٩١ في بقعة تعدّ اكثر بقاع الأرض
قداسة تقدم في احترام اليهود والوثنيين والنصارى والمسلمين
وعدّها التقليد الموضع الذي اراد ابراهيم ان يقدم اسحق ابنه فيه
ذبيحة لله . وتختلف هندسة قبة الصخرة هذه عن الأساليب القديمة
فقد ادخلت في ... الفسيفساء وسواها من اساليب الزخرفة
ولقد صرف في صنع القبة كما صرف في كنيسة القيامة أبهة وفناً
فكانت النتيجة ان هندسة رائعة لم تجد ما يضاهيها في اقطار
العالم .

أن الجامع الأموي في دمشق أكبر دليل على ما وصلت اليه المدنية العربية من تطور . ففي سنة ٧٠٥ أخذ الوليد بن عبد الملك باستملاك ، بدمشق الكنيسة المكرسة للقديس يوحنا ، وكانت في الأصل هيكلاً لجوبيتر ، وبنى هنالك المسجد العظيم المعروف بالجامع الأموي . ومن الغريب أن شيئاً ما بقي في هذا الجامع من أصل البناء المسيحي إلا أن المئذنتين الجنوبيتين تقومان على أبراج كنيسة قديمة هي من أبراج الاستحكام ، أما المئذنة الشمالية التي كانت تستخدم برجاً للاستطلاع فمن الثابت ان بانيها الوليد وقد أصبحت بعد نموذجاً لسواها من المآذن في سورية وشمالي افريقيا واسبانيا . وهي اقدم المآذن الاسلامية [illegible] الباقية واستخدم الخليفة في بناء هذا الجامع الصناع من الفرس والهنود والمصريين والبيزنطيين ، ولعل بعضهم كان من الروم الذين أوفدهم امبراطور القسطنطينية . وتفيد اوراق البردي المكتشفة حديثاً أن بعض مواد البناء استقدمت من اسوار الحيرة ، وكذلك بعض حذاق العمال .

ومما تقدم ومما يلي يتبين ان العرب لم ينالوا قصب السبق في ميدان الحروب فقط بل في ميدان العلوم والفنون أيضاً

بغداد في أوج مجدها

لم تكن ... العرب في الأندلس [illegible] لتقل عن أمثالهم في علومهم وفنونهم ولا سيما بعد أن [illegible] أبناء الجواري يستوون عرش الخلافة . وكان أول هؤلاء يزيد بن الوليد (٧٤٤) وقته ثم ولده ، وكذلك كان الخليفتان الأخيران بعده — وهما آخر السلالة — من أمهات ولد . ففي هذا الزمن تشعر بعدم التعصب الذي أولاه [illegible] بعد الحرب ، [illegible] وكثرة [illegible] ازداد اختلاط القوم في العرق ، [illegible] السلالة [illegible] صفاء دمها العربي . ومن ذلك إلا دليل واضح على التفسخ الأخلاقي الذي كان متفشياً في المجتمع عامة .

ومما زاد في ضعف السلالة الأموية والخلافة اتساع شقة الخلاف بين قبائل عرب الشمال وبين قبائل عرب الجنوب . والحق أن

هـــذا الاختلاف كان موجوداً قبل الأسلام وبلغ حتى الآن أقصاه ، فهو يثير أشد النفور والخصام . ففـــي صقلية والاندلس وشواطيء جنوب آسية وتخوم الصحراء الافريقية ظهرت تلك الضغائن الكامنة من أمد بعيـــد وظهرت في شكل حرب بين مناصري قيس ويمن . واستمر هذا النزاع في العصور الحديثة اذ نشبت معارك بين الفريقين في لبنان وفلسطين حتى القرن الثامن عشر

وهناك عامل آخر زاد سلالة الاموية وهناً وهو عدم وجود قاعدة ثابتة صريحة تحدد توجيه المنصب في الخلافة . ولقد أدرك معاوية خطورة هذا الأمر وحصر الخـــلافة من بعده لابنه يزيد ، فادخل بعمله هذا مبدأ جديداً للحكم يرتكز على الوراثة . ولكن مبدأ الاقدمية في السن الذي جرى عليه العرب كان لا يزال يدفع من الخليفة الى جعل اخلافه في دوره . وعلى كل حال فقد بقيت المبايعة معمولاً بها ، ولكن في الظاهر فقط .

وفي سنة ٧٤٧ قام العباسيون بثورة على ابناء عمهم الامويين ، والعباسيون هم بنو العباس عم الرسول . فنجحوا في حركتهم وكادوا يبيدون البيت الاموي . ويروى ان قائدهم عبـد الله بن العباس دعا ثمانين رجلاً من الامويين للطعام في ابي فطرس على نهر العوجا قرب يافا ثم امر قومه ان يضربوا رؤوسهم حتى أتوا عليهم ، ثم امر فبسطت عليهم البسط وجلس فوقهـــا ودعا بالطعام فأكل ، وهو يسمع أنينهم . ولقب الخليفة العباسي الاول بالسفاح لهذا المقتل . وعمد العباسيون الى استعمال العنف في تنفيذ خططهم . ولأول مرة في تاريخ الأسلام صار يتطلع الى

جانب كرسي الخليفة واتخذ منه ومن قبة الخضراء قاعدة لتوطيد
حكمه العريض . وجعل بغداد مركز التقدم الشرقي من العالم
الاسلامي ، أما حقيقة او لقباً بالأمس [illegible] [illegible] ودام
حكمهم خمسة قرون [illegible] [illegible] حتى أتى على
آخر ملوكهم سنة ١٢٥٨ [illegible] وفي ايامهم ازدهرت
الحضارة العربية فسميت بالعصر الذهبي

وفي سنة ٧٦٢ شرع المنصور الخليفة العباسي في بناء بغداد
عاصمته الجديدة على ضفة دجلة الغربية وهو موضع قديم فيه قرية
تسمى باسم بغداد [illegible] من ايام [illegible] وفي وادي دجلة
والفرات وكان بها بعض خرائب العهد القديم . قال المنصور
هذا موضع معسكر صالح . هذه دجلة [illegible] يأتينا فيها كل ما في
البحر ، وتأتينا الميرة من الجزيرة وارمينية وما حول ذلك ، وهذا
الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك . » ،
وكان اختيار المنصور هذا الموضع حكيماً حقاً . واستغرق بناء
المدينة اربع سنوات استخدم في انشائها مئة الف من المهندسين
والصناع والفعلة ولم تلبث ان اصبحت مدينة عظيمة .

وجعل المنصور مدينته مدورة فسميت بالمدينة المدورة . وبنى
سوراً مؤلفاً من حائطين من الآجر ، واحتفر خندقاً عميقاً وأقام
سوراً ثالثاً داخلياً علوه تسعون قدماً يحيط بأواسط المدينة . وجعل
للمدينة ابواباً اربعة تخرج فيها طرق اربع تبتدىء من وسط المدينة
وتترامى الى اطراف الامبراطورية الاربعة وكأنها شعاع مشتق من
دولاب . فكانت المدينة عبارة عن دوائر ذات مركز واحد قائم في

قبلها قصر الخليفة المسمى باب الذهب وقبته الخضراء ، والى جانبه المسجد الجامع . ان قبة على القصر الخضراء التي غلب اسمها على القصر علوها مئة وثلاثين قدماً . ولقد جاء في رواية متأخرة ان تمثال هيئة فارس يحمل رمحاً كان في اعلى هذه القبة ليشير في الأوقات الحرجة الى الجهة التي قد يجيء منها العدو . ولكن هذه الخرافة لم يصدقها ياقوت الحموي فقد بين ان الصنم لا محالة متوجه الى جهة ما في كل حين ، فيدل على وجود عدو يطل على المدينة في كل وقت . وأما الملة الاسلامية فلم تخلُ من هذه الخرافات .

وقد بات مركز الخلافة الجديد من فارس حداً باعثاً على ان تتجه نحو الشرق . فخضع الاسلام العربي لمؤثرات الفارسية ، واصبحت الخلافة أشبه بحكومات الاستبداد الفارسية منها بمشيخة عربية فتسرب الى الحضارة العربية من فارس شيء كثير كالألقاب والخمر والزوجات والسراري والأغاني والأفكار . على ان هذه هذّبت خشونة الحياة العربية ومهدت السبيل لبزوغ عهد ممتاز بالعلوم والاستطلاع الفكري . إلا ان صبغة العروبة احتفظت بأمرين هامين وهما الاسلام دين الدولة ، والعربية لغة الدواوين الرسمية .

وفي مستهل القرن التاسع ظهر عاهلان كبيران في شؤون العالمية ، هما شرلمان في الغرب وهرون الرشيد في الشرق . وليس من شك في ان هرون كان اقوى من زميله ، وفي انه كان يمثل ثقافة ارفع من ثقافة الغرب . وقد تبادل العاهلان علاقات ودية اساسها المصلحة ، فسعى شرلمان لصداقة هرون كي يعينه على خصمه امبراطور بزنطة ، وودّ هرون مساعدة شرلمان على منافسيه واعدائه

الأمويين في الأندلس الذين كانوا قد شدوا دولة ضيقة الجوانب تتمتع بالرخاء . وهكذا تبادل الاثنان – على قول المؤرخين الغربيين – السفراء والهدايا . ويروي مؤرخ افرنجي عرف شرلمان معرفة شخصية أن سفراء الملك العظيم في الغرب رجعوا من الشرق يحملون الهدايا الثمينة من « ملك فارس هرون » ومنها منسوجات وتوابل وفيل واحد وساعة دقيقة التركيب تقيس الوقت بواسطة الماء . أما خبر الأرض القدسية بأن هرون أهداها لشرلمان فهو ككثير من الأخبار الجذابة في الترويج ولكنه الحين ولا يستند إلى الحقيقة . وقد بين البحث العلمي أصل القصة التي تقول بأن هرون أعطى شرلمان مفاتيح كنيسة القيامة . والغريب في أمر تبادل السفراء والهدايا هذا الذي جرى ما بين سنتي ٧٩٧ و ٨٠٦ أن المؤرخين المسلمين لا يشيرون إليه البتة ، على الرغم من أنهم أشاروا إلى مبادلات دبلوماسية أخرى .

وفي أيام هرون الرشيد هذا (٧٨٦ – ٨٠٩) أصبحت بغداد مركزاً للغنى الباذخ والأبهة الفخمة ، ولم يكن قد مضى بعدُ على تأسيسها نصف قرن ، فوقفت وحدها تضاهي بيزنطية . وكان تقدمها متناسباً مع تقدم الامبراطورية التي كانت هي عاصمتها حتى قيل « لم يكن لبغداد في الدنيا نظير » .

وكان القصر الملكي وما يتبعه من ملحقات للحرم والخصيان والخدم يبلغ ثلث المدينة المدورة . وأعظم ما فيه المجلس المفروش بالطنافس والمجامر والسجف والمساند بحيث لم يكن في الشرق أبدع منه . وكانت زبيدة ، زوج هرون وابنة عمه ، تشاركه في تلك الهالة من المجد التي أكسبتها إياها الأجيال التالية . فلم تسامح في

أن ترى على مائدته أوعية غير مصنوعة من الذهب أو الفضة وغير
مرصّعة بالجواهر . ويقال إنها أنفقت في حجّة بضع ثلاثة ملايين
دينار أصرف بعضها في إيصال الماء خمسة وعشرين ميلاً إلى الحرم بمكة

وكانت لزبيدة مزاحمة هي عُلَيّة العباسية أخت هارون لأبيه
من أمّ ولد . وكان لها عيب في جبينها فاتخذت العصائب المكللة
بالجواهر تستره بحسب ما حدث مثلاً . ولكنها أتبعته النساء،
أحسنَّ منه . فحدثت لستر عيب .

وبلغ مدح البلاط وعظمته أقصى درجاتهما في الاحتفالات
الرسمية كتنصيب الخليفة والأعراس والحج والاحتفاء بسفراء
الأجانب . وقد أُنفق في زواج الخليفة المأمون على بوران ابنة
وزيره سنة ٨٢٥ مقادير هائلة من المال . فخلّدت الأدب العربي
قصة هذا الزواج الذي لم يُعهد له مثيل في عصر من الأعصر .
قيل : وفي حفل العرس وقد أُجلس فيه كان الحصير منها
منسوجاً بالذهب ومكللاً بالدر والياقوت نثرت على بوران ألف
درة كانت في صينية ذهب . ووقدت شموع العنبر في كل واحدة
مئتا رطل في قصر سوّره الخليفة نفسه . واستمر أمر حديث العرس
العظيم ينثر على القادة والقواد والكتّاب والوجوه بنادق
مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وغير ذلك . فكانت
البندقة إذا وقعت في يد رجل فتحها وقرأ ما فيها ومضى ليتسلم
الموهوب سواء أكان ضيعة أم فرساً أم جارية أم مملوكاً . وفي
سنة ٩١٧ استقبل الخليفة المقتدر في قصره رسل الامبراطور الشاب
قسطنطين السابع استقبالاً فخماً . وأظهر أن القصد من [illegible]

كان سادن الأمرين وأقدمهم . ولقد مشى في موكب الاستقبال يومئذ مئة وستون ألف فارس وراجل ، وسبعة آلاف خصي منهم البيض والسود ، وسبعمئة حاجب ونحو منه جند . وكان ما علّق من ستور في قصر الخليفة ثمانية وثلاثين ألف ستر منها اثنا عشر ألف وخمسمئة من الستور المذهبة ، وبلغ ما حواه من البسط نيف وعشرين ألف قطعة . ولقد تعجّب الرسل من الإعجاب والروعة الشيء الكثير ، ولما عبروا إلى دار الحاجب ودار الوزير حسبوها مجلس الخليفة فقيل لهم إن هذه دار الوزير وتلك دار الحاجب ولكن دهشتهم كانت على أشدها عندما دخلوا دار الشجرة وفيها شجرة من الفضة والذهب وزنها خمسمئة ألف درهم وعلى كل غصن عصافير وطيور من كل نوع مذهبة ومفضضة تتحرك كلما حركت الريح ورق الشجر فتصفر الطيور . وبعد ذلك خرجوا إلى بستان فيه نخل حول كل نخلة خمسة أذرع قد لبست جميعها ساجاً منقوشاً وهي مشققة بحلقات الصفر .

وكان هذا وما سبقه لا مثيل لموكبه في الإسلام ، ويحفزه كرم الخلفاء ... وإسرافهم وبذخهم جذب إلى العاصمة الشعراء وأهل الذكاء والكفاءة وأرباب الموسيقى والغناء والرقص وغيرهم من أرباب الملاهي كمربي الكلاب والسنانير الذين كانوا يرجون تقبلهم أو تقديرهم . ولقد وصف الشاعر العربي أبو نواس ، وهو نديم الرشيد والأمين في كثير من حولياته الفاتنة ، حياة البلاط خلال هذا العصر الزاهي ، في أعذب الشعر ، وصفحات الأغاني للأصفهاني حافلة بقصص شتى عن هذه الحياة بألوان يراها لا

يصعب استجلاء الحقيقة من تلافيفها . فمن ان الخليفة الامين بن هرون عدّه ابراهيم بن المهدي عمّه ، وهو مغنٍّ شهير ، صوتاً في شعر لابي نواس فامر له بثلاثمئة الف دينار . فقال ابراهيم : يا امير المؤمنين قد اجزتني الى هذه الغاية بعشرين الف الف درهم هل هي إلا خراج بعض الكور ؟ » وكان للأمين عدّة حرّاقات خاصة في دجلة على صورة الأسد والفيل والعقاب . ولقد أنفق في عمل واحدة منها ثلاثة ملايين درهم . وفي « الاغاني » أخبار تطالع وصف مشهد من مشاهد الرقص الغنائي الرائع فاذا دار الخليفة الأمين مملوءة بالوصائف يغنّين على الصنوج ، والأمين واقف في وسطهن يرقص في دائرة الغناء ، والجواري والخدم من حوله يزفّرون ويصربون . وذكر المسعودي ان ابراهيم بن المهدي استزار أخاه الرشيد فلما وُضعت الموائد على المائدة رأى الرشيد سمك فيه سمكاً مقطعاً فقال ابراهيم « هذه ألسنة السمك » وردّ الخادم قائلاً « يا أمير المؤمنين فيها اكثر من مئة وخمسين لساناً » . فاستحلفه الرشيد عن مبلغ ثمن السمك فأخبره انه اكثر من الف درهم . واننا اذا جرّدنا صورة حياة البلاط بعد دغماسته بهذا الغرائب الشرفة من الاطناب والمبالغة لرأينا فيها بعد ذلك التجريد ما يملأ النفس عجباً من دهشة .

وامتدّ مرسى بغداد اميالاً وحوى مئات السفن ومن بينها السفن الحربية ومراكب اللهو والسفن الصغيرة والاطواف وهي قوارب تُصنع منها وتُشدّ بعضها الى بعض كهيئة السطح وتشابه الأطواف المعروفة في عصرنا هذا السائرة بين الموصل وبغداد ،

وكان يرد الى أسواق المدينة الخزف والحرير والمسك من الصين ،
والطيوب والمعادن والأصباغ من الهند والرخبيل ملقة ، والياقوت
واللازورد والمنسوجات والأرز من أراضي الترك في آسيا
الوسطى ، والعسل والشمع والفراء والعبيد البيض من أسوج ونروج
وروسيا ، والعاج والتبر والعبيد السود من شرق أفريقيا . وقد
أفردت لكل نوع منها سوق خاصة به . وكانت الأمصار ترسل
محصولاتها سواء بحراً أم براً في قوافل ، فيرد الأرز والحبوب
والكتان من مصر ، والزجاج والأدوات المعدنية والفواكه من
الشام ، والقماش الحريري والفضة واللؤلؤ والأسلحة من جزيرة
العرب ، والحرير والعطر والنقل من فارس .

وقد قام التجار العرب بتصدير المنسوجات والجواهر والمرايا
المعدنية والخرز الزجاجي والطيوب وغير ذلك من بغداد ومراكز
التصدير الأخرى الى أنحاء الشرق الأقصى وأوروبا وأفريقيا . وتشهد
النقود المسكوكة التي وُجدت طائفة كبيرة منها في روسيا
وفنلندا وأسوج وانكلترا على اتساع نطاق تجارة المسلمين في مشارق
الأرض ومغاربها سواء في هذه الحقبة أم في الحقب المتأخرة من
تاريخهم . وليست حكايات السندباد البحري التي هي من أمتع
قصص « ألف ليلة وليلة » إلا أخباراً ذات أساس واقعي لسفرات
قام بها أهل التجارة من المسلمين . ولقد لعب التجار دوراً مهماً في
حياة بغداد . فكان لكل تجارة أو صناعة سوق خاص بها كما هو
الحال اليوم . ولم يكن يعكر من اطراد الحياة في السوق إلا مرور
مواكب الأعراس أو المحتفين بختان .

وقد اختلطت فيها من فرس وترك وهنود وكتاب
وغيرهم بشعوب من اكثر عامة في المجتمع وقد نقل لنا ابن جلجل
صورة مصغرة لاعجاب احد هؤلاء القوم وهو الطبيب السرياني
حنين بن اسحق عميد المترجمين من اليونانية . فقد روى انه في كل يوم،
بعد فراغه من ركوب الخيل ، يدخل الحمام فيصب عليه الماء ثم
ثم يخرج فيلتف في قطيفة ويشرب قدح شراب ويأكل كعكة
ويتكئ حتى ينشف عرقه او ينام ، ثم يقوم ويتبخر ويقدم له
طعامه ، وهو فروج كبير مسمن ورغيف وزنه مائتا درهم
فيحسو المرق ويأكل من الفروج والخبز وينام ، فاذا انتبه
شرب اربعة ارطال شراباً عتيقاً ، فاذا اشتهى الفاكهة الرطبة
اكل التفاح الشامي والسفرجل .

واشتهرت هذه الحقبة في قصص التاريخ واخباره لأسباب
شتى منها مجونها وترفها . ولكن اسمى الأمور انه ظهرت فيها
اعظم نهضة فكرية في الاسلام او في احدى الحركات الفكرية
والثقافية العظيمة في العالم باسره . وترجع هذه النهضة في معظم
اسبابها الى مؤثرات خارجية بعضها هندي وفارسي وسرياني
واكثرها يوناني . وهي نهضة تمثلت في حركة النقل الى العربية
من الفارسية والسنسكريتية والسريانية واليونانية لان العربي المسلم
لم يكن لديه الشيء الوفير من العلم والفلسفة والأدب ولكنه كان
يمتاز بذكاء فطري ، وبقوى عقلية دفينة ، ورغبة في
الاطلاع على الجديد . فاصبح بعد وقت قصير وارث حضارة
الشعوب العريقة في القدم التي تغلب عليها او احتك بها . فلم

جزء الشام الشمالية مع حضارتها الآرامية التي كانت قد تأثرت
بثقافة اليونان [illegible] في العراق وسميت حضارتهم الآرامية التي كانت
قد تأثرت بثقافة العرب . وقد بقيت على ثقافتها بعد ذلك ثلاثة أو أربعة
قرون حتى أصبح في حوزة العرب قبل أهم كتب أرسطو مترجمة ،
وجملة من كتب الشروح لأصحاب الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ،
ومعظم كتب جالينوس الطبية ، وجملة من الكتب العلمية من
فارسية وهندية . ففي عشرات السنين [illegible] تعرف العرب الوقوف على
آثار عقلية قديمة كان اليونان قد أنفقوا قرونا في إنشائها . ولا
شك في أن الإسلام جنى كثيرا من خدمة الأجنبي [illegible] هذا
من الحضارتين الفارسية والرومانية ، وكان خدمة [illegible]
[illegible] الفلسفة العربية ، تشغل الآن مركزا هاما في ثقافة
العصور الوسطى التي ربطت جنوبي أوربا بالشرق الأدنى . وهذه
الثقافة تحدرت من مجرى واحد ترجع أصوله إلى مصر القديمة وبابل
وفينيقية واليهودية . وعن هذا المجرى على بلاد اليونان فرجع
صب إلى الشرق الأدنى بشكل الحضارة اليونانية . وسوف نرى فيما
بعد كيف اتجه هذا المجرى الثقافي صوب أوربا عن طريق العرب
في إسبانيا وصقلية حتى أدى إلى عصر النهضة الأوربية الحديثة .

وكانت الهند من أهم مصادر الفكر وخصوصا في الحكمة
والأدب والرياضيات . فحوالي سنة ٧٧٣ قدم رحالة هندي بغداد
ومعه رسالة في الفلك . فأمر الخليفة المنصور بترجمتها فترجمها الفزاري إلى
العربية [illegible] فترجع إلى [illegible] ولكن
الاهتمام العلمي [illegible] لم يظهر حتى هذا الزمن . ولقد [illegible] الإسلام

حقولاً جديدة تدرس علم الفلك وهو الرغبة في معرفة جهة القبلة
بالضبط . ثم جاء الخوارزمي المشهور المتوفى عام ٨٥٠ فوضع
جداوله الفلكية المعروفة استناداً الى كتب الفزاري فجمع بين
علوم اليونان والهنود في هذا العلم ووحّدها وزاد عليها أموراً جديدة
ويعود فضل إدخال الأرقام الى العالم الاسلامي الى ذلك الرحالة
الهندي نفسه . فإنه حمل معه رسالة في الرياضيات حوت تلك
الأرقام التي تعرف في أوربا بالعربية ، وفي البلاد العربية بالهندية .
وعقب ذلك نقل الهنود عن الرياضيات عرف في القرن التاسع
قانون الكسور العشرية .

أما التراث الفكري اليوناني فكان لا شك في منتهى الأهمية
لخصب عقل العلم العربي . فجاءت الثقافة اليونانية ثمة عوامل
الاجتماعية تأثيراً في الحياة العربية . وقد بلغ هذا التأثير أوجه في
أيام المأمون وذلك لأن هذا الخليفة من المؤمنين بالفكرة الحرة
وقد كان يعتقد كالمعتزلة بوجوب الاتفاق بين الكتب المنزلة وبين
أحكام العقل فانصرف الى فلسفة اليونان رغبة منه في الاطلاع
على مختلف آرائها . وفي سنة ٨٣٠ أنشأ بيت الحكمة في بغداد
وهو عبارة عن خزانة كتب ودار علم ومكتب ترجمة . وكان
هذا المعهد ، من وجوه عدة ، أعظم المعاهد الثقافية منذ إنشاء
معهد متحف الاسكندرية الذي ظهر في النصف الأول من القرن
الثالث قبل الميلاد . وقبل تأسيس بيت الحكمة كان بعض النصارى
واليهود والمستعربين من معتنقي الاسلام قد قاموا بتراجم متفرقة
من تلقاء أنفسهم . أما الآن ، في أيام المأمون وخلفائه ، فقد تركزت

الترجمة في هذا العهد الجديد . ولقد دام عصر الترجمة هذا ما يقرب من قرن ابتداء من سنة ٧٥٠ . وقد كانت الآرامية (السريانية) لغة معظم المترجمين فنقلت كثير من الكتب اليونانية اليها أولاً قبل صوغها في العربية .

على أن المترجمين العرب لم يتعرضوا للأدب اليوناني ، ولم يكن هناك من شيء يحث العقلية العربية على دراسة اليونان أو شعرهم أو تاريخهم . فقد انحصرت الفائدة في هذه الميادين للمؤثرات الفارسية . على أن نقطة البدء في حركة نقل التراث الفكري كانت الفلسفة اليونانية التي وضعها أفلاطون وأرسطو وتوسع فيها رجال الفلسفة الأفلاطونية الجديدة .

وكان شيخ المترجمين حنين بن إسحق (٨٠٩ – ٨٧٣) وهو أحد أعاظم العلماء وأنبل من عرفه عصره خلقاً . وكان عِباديّاً ، والعِباد هم قوم من نصارى العرب سكنوا ظاهر الحيرة . وفي حداثته خدم الطبيب يوحنا بن ماسويه خدمة تلميذ . وغضب عليه يوحنا يوماً فقال له ما لأهل الحيرة وتعلم الطب ، اذهب فبع الفلوس في الطريق ؛ فخرج حنين باكياً وعزم على درس اللغة اليونانية . ومن الترجمات التي تعزى الى حنين ترجمة كتب جالينوس وأبقراط وديسقوريدس فضلاً عن كتاب السياسة (الجمهورية) لأفلاطون والمقولات والطبيعيات والأخلاقيات لأرسطو . ويُعدُّ أهمَّ مجهوداته ترجمته جميع مؤلفات جالينوس الطبية تقريباً الى اللغة السريانية والعربية . وقد فُقدت لجالينوس كتب سبعة في علم التشريح في أصلها اليوناني ولا تزال لحسن الحظ محفوظة في اللغة العربية . ما ترجمة

حنين العهد المتقدم من الترجمة اليونانية مستعينة فقد فقدت

ومما يشهد لحنين ببراعته في الترجمة ما روي من أنه هو ومن معه من التراجمة كانوا يرزقون حوالي خمسمائة دينار في الشهر، وأن المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى [illegible] ثم بلغ ذروة مجده [illegible] الخليفة المتوكل [illegible] طبيبه الخاص. ثم أن المتوكل حبسه في قصر نحو سنة كاملة لأنه امتنع عن وصف دواء للخليفة يقتل به عدواً. ثم أحضره وأعاد عليه القول وأحضر سيفاً ونطعاً فقال حنين: قد قلت لأمير المؤمنين ما فيه الكفاية. فقال الخليفة: إني أقتلك. فقال حنين: لي رب يأخذ لي حقي غداً في الموقف الأعظم. فتبسم المتوكل وقال له طب نفساً فإنا أردنا امتحانك [illegible] ما يدعي [illegible] من الآفة مع ما رسخ من صدق الأمر [illegible] فقال حنين: شيئان هما الدين والصناعة، أما الدين فيأمرنا بفعل الخير مع أعدائنا فكيف ظنك بالأصدقاء، وأما الصناعة فهي موضوعة لنفع أبناء الجنس ومقصورة على معالجتهم، ومع هذا فقد جعل في رقاب الأطباء عهد مؤكد بأيمان مغلظات لا يعطوا دواء قتالاً لأحد ويقول مؤرخو الإفرنج حديثاً إن حنين كان أعظم شخصية في القرن التاسع

ولم يكد عصر الترجمة ينتهي حتى كانت مؤلفات أرسطو الموجودة، وكثير مما نسب إليه خطأ، قد أصبحت في متناول القارئ العربي. كل هذا وأوروبا لا تعرف من الأفكار والعلوم اليونانية. وحين كان ابن رشد وابن ميمون يبحثان في الفلسفة اليونانية والمدرسية

كان أشهرها في الغرب كتب ... وهؤلاء يحوون أقوال الكثيرة
المسيحية . ولم تلبث مؤلفات ... تتطور في علم البيان والمنطق وعلم
الشعر وكتب الأسلوب ... أصبحت مركزاً عالمياً
الى جانب ... وأصبحت تكون مجموعة الإنسانية في الإسلام ،
ولا تزال محافظة على مقامها هذا حتى اليوم . واعتنق المسلمون عقيدة
المدرسة الأفلاطونية الحديثة القائلة بأن تعاليم أرسطو وأفلاطون
هي واحدة بالذات . وكانت مؤلفات الأفلاطونية الحديثة في
الصوفية الى حد كبير . وتسربت الفلسفة الأرسطية والأفلاطونية
الى الآداب اللاتينية عن طريق مؤلفات ابن سينا وابن رشد فأثرت
عقول فلاسفة المسيحيين في العصور الوسطى كما سنرى

وتبع دور الترجمة للعلوم هذه التي كانت منه من ابتداء دور آخر
هو دور الابتكار والإبداع . وسنتطرق اليه في فصل آخر من
هذا الكتاب . وفي بداية القرن العشرين تحولت اللغة العربية ،
تلك اللغة التي أصبحت بطبيعتها أداة للشعر فقط وعرفت أسلوباً
بعيداً في الأخذ عن الوحي والدين ، تحولت الى لغة جديدة
تحمل دقة البيان سهلة التداول تطوع رغبة المرء في التعبير عن
الفكر العلمي والإفصاح عن الآراء الفلسفية والعقيدة . وفي
الوقت نفسه أصبحت لغة السياسة والتخطيط الأدبي من أقصى
الوطن الى أقصى المغرب والأندلس . ومع ذلك الحين وأهل العراق
وسورية ولبنان وفلسطين ومصر وتونس والجزائر ومراكش
يفصحون عن أسمى أفكارهم باللسان العربي

مناحي حياة العامة

اقتصر مؤرخو العرب اهتمامهم على مشاكل دار الخلافة ، وعلى قيام السلالات الملكية وسقوطها وما يتصل بذلك من حوادث دموية معقدة ، وعلى القواد والوزراء ورجال السياسة يومئذ وما أحدثوا من اضطرابات وما أصابهم من نكبات . فهم لم يتركوا لنا صورة جلية عن حياة العامة الاجتماعية والاقتصادية . غير أنه يمكننا أن نستخلص صورة تعين على الإلمام بهذه الحياة من وجهتيها الاجتماعية والاقتصادية من فقرات وردت عرضاً مبعثرة في كتبهم ومن بعض مصادر أدبية وخصوصاً من درس الحياة العادية اليوم في الشرق الاسلامي الذي لم يتغير كثيراً عما كان عليه في الماضي .

تتمتع المرأة في القرية بقسط وافر من الحرية يعادل

قسط المرأة التي سبقتها . ولكن في آخر القرن العاشر اصبحت احكام الحجاب وعزل المرأة عن الرجال معمولاً بها دونما هوادة . ولم يكن سوء الحالة العامة في اواخر العصر العباسي والحوادث اللواتي كان من شأنها ان تؤثر في سياسة الدولة بل كان العسف والفساد يجري في الحرب ويولي قادة الجيوش وينظم الشعر ويضرب الرجال في الحرب والأدب ، ووضع الحس المحاسن بالأدب والموسيقى والغناء .

وفي حقبة وجيزة كثر التسري ، وانغمس في الملذات وسقط مستوى الآداب العامة . وتحولت منزلة المرأة الى اسفل الدركات الى حد وقفتها في [illegible] ، وتسربت بعض مثل المكر والدسيسة وشيوع الأفكار الرديئة والعيوب الخلقية .

واعتبر الزواج في الاسلام واجباً عمومياً يجب على من اهمله استحق اللوم . وعد الأولاد ولا سيما الذكور منهم هبة من الله تعالى . أما الزوجة فالمطلوب منها خدمة بعلها [illegible] وتدبير شؤون منزلها [illegible] من [illegible] .

ويظهر ان اسس الحب عند العرب [illegible] الأقدمين ، كما يستدل على ذلك من تعابير الحب والتشبيب الواردة في منظومات شعرائهم ، لم تتغير كثيراً . فقد اورد النويري جانباً هاماً من من مؤلفه « نهاية الأرب في فنون الأدب » الأقوال المعروفة في جمال عين المرأة [illegible] فقدود العوالي [illegible] الخيزران ومحبة [illegible] كان [illegible] . وشعرها اجوده ما كان الملس سواداً والمتوج [illegible] مع حمرة في الخدين ، وجمال

كحبة عنبر في صحن مرمر . وقد تشققوا في انتقاء السود الشديد
دون اثر الكحل . والكمود من شحوب عيون الصين ، واحسن
شيء ان يكون عسلياً سقياً ، والفم صغيراً ترتب الأسنان فيه كعقد
اللؤلؤ في مرجانه ، و [illegible] كرمتين ، والخصر مرهف [illegible]
يردفه ثقلين . والأصابع [illegible] مستدقة الأطراف مخضوبة
بالحناء .

وكان الديوان اهم قطع الاثاث في هذا البيت وهو كناية عن
اريكة ممدودة على ثلاثة جوانب من الغرفة . وكانت
المقاعد المرتفعة على شكل الكراسي مما لم يحدث في الدولة العثمانية ،
الا ان [illegible] على [illegible] موضوعة على الأرض
يجلس عليها [illegible] مربعاً [illegible] الى يومنا هذا .
وكانت ارض الغرفة [illegible] المنسوجة باليد . وكان
الطعام [illegible] في [illegible] على مائدة واطئة
امام الديوان او على الأرض [illegible] وفي [illegible]
كانت الأطباق [illegible] من [illegible] . والأخونة من الخشب المطعم
بالأبنوس واللؤلؤ او الصدف على طراز المصنوع اليوم في دمشق .
هذا هو الشعب العربي [illegible] في شغف العيش
وحشوته [illegible] كل [illegible] الآن مفضوحاً بالدم والذي
[illegible] الأرز [illegible] وصلوا [illegible] من الخبز رقاقاً
[illegible] هذا الشعب [illegible] الآن [illegible] الخبز [illegible]
للطعام الشرقي وحلته [illegible] كل من طعام
العرس [illegible] وهو مرق [illegible] من اللحم والخل والفالوذج

(وهو حمراء) وأصبح وجهه مثل الجمر المتّقد والنور وأسقى
الخشب. وجرت عبراته في جنبات حركة تسمع وفي حقبة أقوام
أما أنواعه فمنه المسكّر والمعتّق والمشمش والموز والورد أو
معصور نبوت. أما القهوة فلم ينتشر استعمالها حتى القرن الخامس
عشر، وكذلك التبغ لم يعرف قبل اكتشاف العالم الجديد.
ونجد في كتاب الموشّى للوشّاء من أدباء القرن العاشر وصفاً
للرجل الظريف الأديب في ذلك العصر. فالظريف كان يتحلى
بالأدب الجمّ والمروءة والكياسة، يترفّع عن المزاح، ويتحاشى فضول
الكلام، ويكره الكذب ويصون الحديث، ويفي بمواعيده،
ويكتم السرّ، ويرتدي الثياب النظيفة التي لا رائحة فيها. وهو
إذا جلس على المائدة صغّر لقمه، ولا يكثر من الحديث
والكلام، ولا يسرع في مضغ الطعام، ولا يلعق أصابعه، وهو
يتجنب الثوم والبصل، ويتحاشى استعمال مسواك الأراك في
الخلاء والحمّام والمواضع العامة وعلى قارعة الطريق.

وقد أسرف الناس في الشراب سرّاً وعلناً، ويستدل من
قصص الندماء وحوادثهم في الأغاني وألف ليلة وليلة وسواها من
كتب الأدب والشعر ومن الخمريات التي نظمها الشعراء كأبي نواس
أن تحريم الخمر الذي شدّد فيه الإسلام لم يلق نجاحاً أكثر مما
لاقى قانون تحريم المسكرات في الولايات المتحدة. فقد شرب الخمر
الخلفاء والوزراء والأمراء وبعض من عرف بتحرّجه في الدين.
وكان أحبّ الخمور عند القوم المصنوع من عصير التمر.

وكانت معروفة عند الخلفاء حفلات تسمى مجالس شرب، أنس

إليه القوم . فكان المترفون وجيوبهم يعطّرون جلودهم بمسك أو ماء
الورد ويرتدون أثواباً حريرية ممتدة زاهية الألوان، والأرجاء لعرفه
يضوّع منها رائحة العنبر والندّ المشتعل . وكانت أكثر المغنيات
اللواتي يحضرن هذه المجالس من النساء الجميلات كما تشهد بذلك
القصص الكثيرة . فكان أكثر ما يعاب على أخلاق شبان ذلك العصر.
ووجدت عدة أشعار في الخمر في الأدب ، وفي حديث حوادث كان
يديرها على العملاء غلمان . وكانت تجارة الخمر في الحانات في أيدي
النصارى واليهود .

وانتظر من الإسلام ، حديث نبوي لا يزال شائعاً على الألسن
في البلدان الإسلامية . ولم يكن في الجزيرة العربية حمامات في عهد
النبي محمد الذي قيل عنه إنه استنكرها ولم يسمح لأحد بدخولها إلا
بالمئزر وعلى شرط أن يكون مستوراً . وفي هذا العصر الذي نحن فيه فقد
كثرت الحمامات العمومية وراج ارتيادها بين الشعب وكان فضل للهو
والترف أيضاً . وأخيراً للصحة ، دخولها في أيام معيّنة . وقد قدّرت
بغداد في أوائل القرن العاشر سبعة وعشرين ألفاً من هذه الحمامات
العمومية ، وكانت في زمن آخر ستين ألفاً . وهذان الرقمان
وسواهما من الأرقام التي نجدها في المصادر العربية لا ريب مبالغ
فيها . أما الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي زار بغداد سنة ١٣٢٧
فإنه شاهد في الجانب الغربي من المدينة ثلاث عشرة محلة ، كل محلة
فيها حمامان أو ثلاثة من أبدع الحمامات مجهزة بماء الحار والبارد .

وكانت الحمامات يومئذٍ مثلها اليوم تحتوي حجرات كثيرة
مرصوفة بالفسيفساء مُطلي نصف حائطها الأسفل والأرض بالقار

والنصف الآخر الأرضي يخصّ الأمير الناصر ، ووسطه حول ردهة واسعة عليها قبّة فيها ثقوب للنور . وفي كل جهة حوض من الرخام فيه أنبوبات للماء الحار والبارد . أما الغرف الخارجية فتُصنع للاتكاء والاستراحة وتناول المشروبات والأطعمة الخفيفة .

والألعاب الرياضية ، كالفنون الحربية ، كانت في كل عصور من ميزات المدنية الاوروبية والعربية أكثر من الشرقية . فإن الصحراء العربية تعتبر الرياضة الجسمية في حدّ ذاتها أمراً شاقاً يتطلّب جهداً لا يتلاءم مع حرّ الشمس الذي يتعرّض له في بلده . ومن الألعاب الرياضية التي يتعاطاها العربي في الخلاء الرماية والحوكان (لعبة فارسية معروفة عند معاصرينا وهي « البولو ») والصولجان ولعب السيف والترس والجريد وسباق الخيل ، والصيد وهو أهمّها جميعاً . ومن الآداب التي يجب أن تتوفر في النديم المهارة في الرماية والصيد ولعب الكرة والشطرنج . وفي كل هذه الألعاب لم يكن من حرج على النديم فيما إذا ساوى سيده . ومن الخلفاء المغرمين بالحوكان المعتصم . وقد جعل يوماً الأفشين قائده التركي في جهة وأقام هو في جهة فاستعفى الأفشين وقال : « لا أرى أن أكون على أمير المؤمنين في جدّ ولا هزل » . وهناك اشارات الى لعبة الطبطاب وهي خشبة عريضة يُلعب بها ولعلّها لعبة « التنس » في شكلها البدائي . والراجح أن اشتقاق اسم هذه اللعبة يرجع الى بلدة تنّيس في الدلتا من أعمال مصر التي اشتهرت في العصور الوسطى بصنع القماش المعروف بهذا الاسم .

و[illegible] على [illegible] العرب [illegible] من [illegible] من

كتب قديمة تبحث في موضوعات الصحة وحسب الشراب وترويض الروح . وقد دخلت [illegible] و[illegible] واسمها للصيدلي خروجه عن طريق فارس كما تشير الألفاظ المستعملة [illegible] وشاعت على التخصص في أواخر عهد الخلافة وفي عصر الحروب الصليبية ولا يزال الناس في فارس والعراق وسورية [illegible] و[illegible] على الفرقة الموجودة في [illegible] وعلى [illegible] [illegible] قبل [illegible] الأخرى [illegible] .

وكان الخلفاء [illegible] أصحاب [illegible] [illegible] كتب الموضوعات ومن [illegible] من [illegible] و[illegible] واحدة [illegible] وموالي [illegible]

وكان أكثر الخدم من [illegible] يؤسرون في الحرب [illegible] في [illegible] الروم [illegible] وآخرون من [illegible] وكان معظم [illegible] من [illegible] و[illegible] [illegible] والأرمن والبربر ومنهم الخصيان [illegible] بخدمتهم [illegible] ومنهم [illegible] أيضاً وكانوا موضوع عناية خاصة من أسيادهم لدى [illegible] على [illegible] و[illegible] ويجعلونهم يترقون ويصلون إلى درجة [illegible] . وإذا كانت بعض الكتب قد أشارت إلى وجود الغلمان في عهد الرشيد فإن الأمين كان أول من أنشأ نظام الغلمان في العهد العربي [illegible] [illegible] ولقد عاش في زمن المأمون [illegible] [illegible] غلام [illegible] حسان الوجوه كانوا [illegible] . ولم تستنكف

الشعراء كأبي نواس من [illegible] في [illegible] ومدح [illegible] والجوهرة
[illegible] الحسنة [illegible]

واتخذ سراة القوم الجواري من مختلف الأجناس، مغنيات
وراقصات وسراري . وكان لبعضهن تأثير محسوس في [illegible] من
الخلفاء، كما [illegible] شغف الرشيد [illegible] ثم [illegible]
[illegible] ذات يوم [illegible] وعتق [illegible]
[illegible] زوجة [illegible] عشر [illegible] فولدت له احداهن
المأمون والاخرى المعتصم . وكانت [illegible] جواري من [illegible]
[illegible] في العلم والأدب [illegible] في
[illegible] الرشيد [illegible]
[illegible] في الطب والفقه والحديث وعلم [illegible] والموسيقى [illegible]
فضلاً عن علوم المعاني [illegible] والنحو والشعر [illegible] والقرآن
و[illegible] عن الأمين انه [illegible] من الجواري الحسان فقص
شعورهن [illegible] وكسا رؤوسهن بالعمائم الحريرية
[illegible] وقد [illegible]
وله [illegible] من الناس [illegible] يوم على [illegible] في
أحد [illegible] عشرين [illegible]
[illegible] يرقصن وفي أعناقهن صلبان الذهب وفي أيديهن أغصان
الزيتون [illegible] حتى [illegible]
الخليفة بأن يوزع عليهن ثلاثة آلاف دينار .

ويقول بعض [illegible] انه كان للمتوكل اربعة آلاف سرية

شاطرين فراشه وهو قول يصعب تصديقه . وجرت سنّة العمّال والقوّاد عادة اهداء الخليفة او الوزير هدايا تشتمل على القيّنات اللواتي يأخذونهنّ من الرعية وإلاّ حسب الخليفة تخلّفهم عن ذلك علامةَ العصيان .

وكانت عامة الناس مؤلفة من طبقة عليا لها بعض مزايا الارستقراطية وفيها الادباء والعلماء والفنّانون والتجار والصنّاع واهل المهن الحرّة ، وطبقة سفلى مؤلفة من سواد الشعب وهم الفلاّحون وزرّاع المواشي واهل الرّيف وهؤلاء اهل البلاد الأصليون الذين اصبحوا الآن اهلَ الذمّة . ثم ان اتساع نطاق الامبراطورية وما وصلت اليه من غنىً في المدنيّة قضى بنشوء حركة عالمية واسعة تقلّد زعامتها اوّلاً النصارى واليهود واتسع نطاقها ، ليعود المسلمون بعدُ فيتفوّقوا فيها ، لانهم لم يزدروا التجارة بقدر ازدرائهم الزراعة . ولا شك ان اصبحت مرافئ بغداد والبصرة وسيراف والقاهرة والاسكندرية مراكز نشيطة لتجارة البرية والبحرية .

وقد توغّل التجار المسلمون شرقاً حتى الصين فحملوا الحرير الصيني للتاجر ، وهو اقدم ما أتحف به الصينيون العالمَ العربي وقد سلكت هذه التجارة طريقاً عُرفت بطريق الحرير العظيمة ، مارّة بسمرقند وتركستان الصينية التي قلّ من طرقها من المسافرين والسيّاح حتى اليوم . وكانت هذه البضائع تُنقل مرحلةً فمرحلة . وقلّ من القوافل ما قطع هذه المسافة كلها دون تبديل في الرّواحل .

وبلغت تجارة الاسلام مراكش واسبانيا غرباً . وقد فكر الرشيد بحفر قناة السويس قبل دولسبس بألف سنة . ولكن العرب لم يبرّزوا في ميدان تجارة البحر المتوسط ولم تصل تجارتهم على شواطيء البحر الاسود ملاحاً ، مع ان القرن العاشر شهد لهم تجارة نشيطة في اتجاه الفولكا شمالاً . وكانت تجارتهم على شواطيء بحر قزوين نشيطة جداً تقربها من الاوساط الفارسية ومدن سمرقند وبخارى العامرة وغيرها من المدن الداخلية الاهلة بالسكان . وكان التجار المسلمون يجلبون التمور والسكر والقطن والمنسوجات الصوفية والادوات الفولاذية والاواني الزجاجية ثم يعودون ومعهم امتعة كثيرة من التوابل والكافور والحرير من اقصى آسيا ، والعاج والابنوس والرقيق الاسود من افريقيا .

أما بعض الثروات في ذلك العصر فكانت لا تقل عن ثروات ملوك اليوم في عصرنا هذا . ولا ادل على ذلك من حكاية ابن الجصاص الجوهري ببغداد وما ظل به من الثروة بعد ان صادر الخليفة المقتدر املاكه ستة عشر مليون دينار ، وهو اول مذكور في اسرة اشتهرت بعده بتجارة الجواهر . وكان الدخل الفردي لبعض تجار البصرة الذين نقلوا بواخرهم البضائع الى الاصقاع النائية يربو على مليون درهم . واشتهر في بغداد والبصرة تاجر أرز صاحب مطاحن بصدقته اليومية على الفقراء تبلغ مئة دينار . وكان التاجر العادي في سيراف ينفق على داره اكثر من عشرة آلاف دينار في حين ينفق غيره من التجار ثلاثين الفاً . وأثرى الكثيرون من تجار البحر فبلغت ثروة الواحد منهم اربعة ملايين دينار .

ولولا اهتمام [illegible] بهذه الصناعة [illegible] مع الموضع المحوري
هذا المدى . فقد تفرعت في كثير من الجهات الأمبراطورية صناعة النسيج
واشتهرت في أنحاء مختلفة صناعات حياكة السجاد والقطن والصوف
والأطلس والأقمشة المطرزة والأثاث والبسط [illegible] وغيرها من
قطع الرياش والأواني الخزفية . واشتهرت بلاد [illegible] كة في فارس
والعراق بصنع السجاد والمنسوجات الحريرية . وكانت لأم الخليفة
المستعين سجادة [illegible] حيوانات [illegible] منه [illegible]
دينار ، وعليها صور مختلفة [illegible] صور [illegible] الذهب [illegible] من
الياقوت وسواه من الأحجار الكريمة . وكان في عهد [illegible] يحتفى
بالعتابي نسبة إلى أمير أموي كان من [illegible] ونسيج
المخطط مصنوع منه [illegible] في القرن الثاني عشر
يعرف [illegible] العتابي . ثم [illegible] في [illegible]
حتى اشتهرت [illegible] في [illegible] وسواها من
أقطار أوروبا [illegible] اللغة الانكليزية التي [illegible] هذه
المصنوعة من القطن [illegible] وأصبحت [illegible] الحريرية
[illegible] وهي المعروفة [illegible] هذه الكلمة . وكان في [illegible]
والموصل [illegible] (القديمة) [illegible] شهيرة [illegible]
الدمقس (وهو نسيج صنع أصلاً في دمشق) [illegible]
والستائر المصنوعة من الحرير . ومنسوجاتهم المصنوعة من وبر الإبل
ومعزى والأردية المصنوعة من الحرير المغزول فقد كانت كثيرة
الانتشار . وصدرت شيراز العباءات الصوفية المخططة والأقمشة
[illegible] الشفافة والمنسوجات المقصبة . وكانت سيدات العصور

ويسمي الأوربيون نوعاً من الأسود الحبر الفارسي المعروف
بالتافه (وهي كلمة فارسية) .

اما رحلة جور وصنعا وغيرها من مدن الشام فقد ضرب
المثل برقته وجودته . وقد عدّت صناعة الورق هذه من
الصناعات التي برعوا فيها وكانوا قسم من صحائفه بعد التحرير .
وعرف الأوربيون هذا الورق عن طريق الحملات الصليبية
فأصبح من لا يستطيع الوصول الى الورق الذي كانوا يستوردونه كتبه
وشعر الأوربيون الورق الجيد المتين من صنع الشام حتى عرف من
ورق القطن والرقعة . فكثر الطلب في اسواقها عليه

ولم يستعمل الأوربيون صناعة ورق الكتابة الا بعد ان حدثت
الحروب في اواسط القرن الثامن من الصين عن طريق سمرقند ،
وكان ورق سمرقند في السوق منذ المسلمون عام ٧٠٤ مقطع
سمرقند ، ومن اهم احداث القرن ان انشئت ببغداد اول معمل
للورق ثم تبعته معامل اخرى . وكان اول معمل للورق في
مصر حوالي سنة ٩٠٠ او قبل ذلك ، وفي مراكش سنة ١١٠٠ ،
وفي اسبانيا حوالي سنة ١١٥٠ . ثم ظهرت ضروب مختلفة من
الورق من الأطلس والقطن ووصلت صناعة الورق الى اوربا
المسيحية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر عن طريق
الاندلس وصقلية . وكان للورق اهميته الكبرى لانه عندما
اخترعت الطباعة بالحروف المتحركة بين عامي ١٤٥٠ و١٤٥٥ اذ
سهّل الانتشار السريع للمعرفة في القرن الخامس عشر لانتشار اوربا
وامريكا تستعمل الى اليوم نحو ...

وانتعشت الزراعة في دور العباسيين الأوائل انتعاشاً محسوساً
لأن عمالهم كانوا يقتنون في الغالب حصة من السواد ، ولانهم
أدركوا ان الفلاحة تدر على الدولة أهمّ موارد الدخل، ولأن خراب
الارض وحتى خرابها كان معظمه في ايدي اهل البلاد الاصليين الذين
كانوا قد تحسنت حالتهم وعلا شأنهم في عهد العباسيين. وعادت العمران
المزارع المهجورة والقرى الخربة في انحاء الامبراطورية وقد وجهت
الحكومة المركزية عنايتها خاصة الى القسم الأسفل من وادي دجلة
والفرات، وهو ما يعرف بالسواد، أكثر البلاد خصباً حتى اعتبروه بمثابة
البقعة التي قامت فيها جنة عدن. وقد شقت بعض قنوات من الفرات
تصب فيها شبكة منتظمة. ان ما عرفه جغرافيو العرب عن حفر
الخلفاء للاقنية أو فتحهم للانهر فلا نجد فيه تحريفاً لان اكثر
الاقنية التي ذكروها انها كانت اقنية أعاد الخلفاء حفرها او فتحها ،
ويرجع عهدها الى زمن ساسانيي القدماء . وقد انحصر الامر في
العراق كما في مصر في حفر الاقنية الراجعة الى عهد البابليين
وفراعنة . وقد عهدت الحكومة العثمانية الى السر وليم ولكوكس
قبل الحرب العالمية الأولى درس مسألة الري في العراق فأشار في
تقريره بتعقب مجاري الاقنية القديمة ورسمها لا شق مجار جديدة
ويجب ان لا يغرب عنا ان سطح الارض في السواد قد تغير كثيراً
منذ ايام العباسيين ، كما ان دجلة والفرات قد تحول مجراهما عما
كان عليه مراراً .

ومعظم الاشجار المثمرة والبقول التي تنبت اليوم في آسيا
الغربية كانت معروفة بذلك العهد مثل السلق والمشمش والطماطم

وسواها من الزروعات التي دخلت البلاد العربية في العصور
الحديثة من العالم الجديد وبعض المستعمرات الاوربية النائية . أما
شجرة البرتقال فكان منبتها الاصلي ، كالأترج والليمون الحامض ،
في شرقي الهند و منقة ، ومنها امتدت الى آسيا الغربية والبلدان
المحيطة بحوض البحر المتوسط ، ثم دخلت اوربا عن طريق العرب
في الاندلس . وفي هذا العصر ظهرت مزارع قصب السكر ومعامل
تصفيته المشهورة في سواحل الشام على حين المعروف منها في الجهة
الجنوبية العربية من فارس . ومن الشام اخذ الصليبيون قصب
السكر وادخلوا معه السكر الى اوربا . وهكذا تدرجت بطريقة
الى ان هذه السلعة التي قد ... اصبحت الى مقدمة السلع
في العالم ، فاصبحت من العناصر التي لا يستغنى عنها في ... كل
الانسان المتمدن اليومية .

وكان بعض الدولة الزنكي من صنعة الفلاحين ، وهم أكثرية
الشعب واهل البلاد الأصليون وقد عرفوا باهل الذمة لانهم كانوا
قد دخلوا في عهد الاسلام . بعد الفتح العربي فتمسكوا عن تعاطي
الزراعة وحسب دون مقدمة . وكان هو المكتسب في بادىء الامر ،
وهم المعروفون باهل الذمة يشملون النصارى واليهود والصابئة ثم
ألحق بهم اتباع مذاهب اخرى . وقد ... في أراضيهم
ومزارعهم متمسكين بتقاليدهم الزراعية القديمة ومحافظين على لغاتهم
الأصلية . وقد احترم المسلمون على وجه العموم وضع أهل الذمة
هذا على الرغم من عاوة في بعض الخلفاء من الاضطهاد الديني

أما في المدن فقد غلب النصارى واليهود على مناصب سامية في دوائر

الحكومة من صنعة وكتابة وغيرها من مهن . وأثّر هذا في سيرة
المسلمين وخدمهم مما أدى الى سن شرائع عمر بن ... السياسي . الا
ان هذه الشرائع بقيت حبراً على ورق ، ولم تنفذ الا في بعض
الاحايين .

وكان عمر الثاني الخليفة الأموي التقي اول من امر النصارى
واليهود ان يتقلدوا السنة معروفة عن المسلمين ، وحرمهم مناصب
الدولة . والظاهر ان هذه الأحكام أهملت بعده الى ان جددها
هارون الرشيد ثم المتوكل . وقد صدرت المراسيم مجددة ضد
اهل الذمة اشدها في زمن المتوكل الذي امر في سنة ٨٥٠ و ٨٥٤
ان تجعل النصارى واليهود على ابواب دورهم صور شياطين من خشب
تفريقاً لدورهم عن دور المسلمين وان يجعلوا قبورهم لا تعلو عن
سطح الارض كي لا تشبه قبور المسلمين ، وان يلبسوا الطيالسة
ويلبسوا ... العسلية وان يعلقوا رقعتين على ما يظهر من لباس
مماليكهم تخالف لونها لون الثوب قدرها على ان يكون احداهما
بين يدي المملوك عند صدره والاخرى على ظهره . ولم يرخص لهم
بركوب غير البغال والحمير ويتخذوا السروج من الخشب وينصبوا
كرتين على مؤخر السرج . وقد طبق من الواجب على اهل الذمة
لبس الأزرق ، واعتبر هذا اللباس الذي امر به ... ومن
ثم وقع الخلف الى ان ... الذي ...
مشرعو الاسلام في هذه الحقبة ... ان شهادة النصراني واليهودي
لا تجوز على مسلم ... في القرآن من ان اليهود
والنصارى حرفوا الكتاب المنزل ولهذا لا يمكن الوثوق بهم . ويكن

النصارى على الرغم من عهد القيود شعروا في ظل الخلافة بقسط وافر
من الحرية. ويشهد على ذلك ما تذكره المدونات من مناظرات بين
دعاة النصرانيـــة وبين دعاة الاسلام في حضرة بعض الخلفاء من
الامويين والعباسيين ومن صعود بعض النصارى كرسي الوزارة في
النصف الثاني من القرن الرابع. وكان كثير من الموظفين من النصارى
ينالون ما يناله زملاؤهم المسلمون من الاكرام والتبجيل. فنحن
نقرأ مثلاً ان بعض المسلمين اعترض على تقبيل ايديهم ولم يستمع
اليه. والاعجب ان النصارى قد حرصوا في ظل الخلفاء من الشدة
والحرية بقدر كاف جعلهم يكتسبون الى التوسع وارسال المبشرين
الى الصين والهند كالهند والحبشة. وهم يرجعون في ملابار بجوار مدراس
الى تبشير كنيسة مسيحية سبقت الى مرابض وترجع اصولهم الى
هذا العهد. وفي سيان فو من اعمال الصين اثر حجري يعود
عام ٧٨١ يحمل اسماء سبعة وسبعين مبشراً من كنيسة النسطورية

ولقي اليهود، وهم ممن نجحوا في عهـــد الاسلام، من حسن
صنيع المسلمين مثل ما لقيه النصارى على الرغم مما جاء في بعض
الآيات القرآنية من تنديد بهم. وكان منهم في ازمنة عديدة من خلفاء
غير واحد ممن يعني المؤرخون في الدولة، كما كان منهم في بغداد عامة
مستعمرة كبيرة حسب مرتبة الى ان صعب عليه المدينة في يد
المغول. ويروي بنيامين التطيلي الذي زارها سنة ١١٧٠ انه وجد
فيها عشر مدارس للحاخامين وثلاثة وعشرين كنيساً اهمها كنيس
مرداب يضرب الرخام ويحلى بالذهب والفضة. واوحى هذا الرحالة
في وصف الاحترام الذي احاطه رئيس الحاخامين من المسلمين الذين

اعطوه سبيل النبي داود ورئيس الملة اليهودية . وكان هذا الرئيس اذا خرج للمثول في مجلس الخليفة ارتدى ملابس الحريرية المطرزة وعمامة بيضاء تشع بالجواهر ، واحاط به رهط من الفرسان وسار امامه منادٍ يصيح باعلى صوته : افسحوا درباً لسيدنا ابن داود .

هذه هي صورة مصغرة لحياة الناس في عهد الخلافة وعلاقتهم بعضهم ببعض . وها نحن على عتبة المرحلة الثالثة في سلسلة الفتوحات العربية . كانت المرحلة الاولى هي المرحلة الحربية السياسية ، وكانت المرحلة الثانية هي المرحلة الدينية التي ابتدأت في القرن الاول من حكم العباسيين واعتنق خلالها السواد من سكان الامبراطورية الدين الاسلامي . ثم مرحلة ثالثة التي سنبحث في الفصول التالية فسنتبين فوز اللغة العربية على لغات الشعوب المغلوبة . على ان هذه المرحلة كانت اخطر المراحل اذ بدت فيها الشعوب المغلوبة اشد مقاومة ، مما يدل على انه اسهل على الناس التخلي عن كيانهم السياسي وعن ديانتهم منه الى الامر من التخلي عن لغتهم .

والواقع انه حتى نهاية العصر كله لم يعد من ان نسمي هذا الانتصار كاملاً بعد . ولقد لاحظنا في الفصل السابق كيف سرت عدوى التفكير في الثقافات اليونانية والفارسية والهندية الى بغداد في القرن التاسع فحدثت نهضة اثمرت ثقافة جديدة ، وبهذا اصبحت اللغة العربية اداة للتعبير عن الثقافة العربية فكان ذلك بدء العصر المشرق الذهبي في الاسلام

العلوم والآداب

وصلنا الآن الى الحقبة التي أصبحت فيها اللغة العربية أداة للتعبير عن العلوم المستحدثة كالطب وعلم الفلك والكيمياء والجغرافية والرياضيات فضلا عن الفلسفة والتشريع والأخلاق والأدب . وقد ابتدأت هذه الحقبة في النصف الثاني من القرن التاسع على أثر عصر الترجمة الذي دام نحو قرن (٧٥٠ — ٨٥٠) ، فظهرت طائفة من أعلام العلم والأدب الذين نبغوا في نواح شتى ، وكثير من مبتكراتهم والذين لا يعرف الناس اليوم منهم إلا معدودين .

لم يكتف العرب بالنقل وتقليد من تقدمهم ، بل [illegible] الى التكشف والتجديد . فهم لم يقنعوا باستيعاب تراث الفرس العلمي وتراث اليونان العلمي على ما كان عليه بل حوروا الغريب بموجب حاجاتهم الخاصة وطرق تفكيرهم . وما لبث أن طبع ما ترجموه بطابع العقلية

العربية في خلال قرون [illegible] أخيرا مع ما ابتكروه الى

اوربا عن طريق سورية والاندلس وصقلية [illegible] العرب

الذي كان له الفكر الاوربي في القرون الوسطى . على ان [illegible]

الافكار والعلوم بين [illegible] الثقافة [illegible] من الافكار

[illegible] ارسطو و[illegible] وبطليموس [illegible] العلم

[illegible] وكتب [illegible] في [illegible] الاحد[illegible] ووضع حد

[illegible] بين الشرق والغرب [illegible] من المترجمين من كان [illegible]

ومفكرا في وقت معا

وكانت مبتكرات العرب في الطب [illegible]

والرياضيات والجغرافية والكيمياء [illegible] فضلا عن [illegible] والشعر

والادب . والعلماء العرب بعد استفادتهم [illegible] سوى

المشهورة [illegible] من الادب [illegible] و[illegible]

الحساب العربي الى [illegible]

الفلسفة والحكمة . وخطا العرب في هذه [illegible] خطوات واسعة

في الاستدلال [illegible]

الادب [illegible] من [illegible] مدرسة [illegible] في الاندلس

رسائل . وكان [illegible] والا[illegible] من [illegible]

والمعجم [illegible]

[illegible] ٩٣١ [illegible]

ورقة ، وهو [illegible] مشهور [illegible] كل [illegible]

لاحراز [illegible] الاطباء [illegible]

في بغداد [illegible]

الصحاري . ومما يدل على العناية بالصحة في العهد [illegible] أن علي بن
عيسى الوزير في عهد المقتدر [illegible] بعثات من الأطباء تحمل
الأدوية وتطوف [illegible] البلاد [illegible] المرضى والمعوزين . وكانت هيئة
من الأطباء تتفقد السجون يومياً . ومن هذه الحقائق تظهر [illegible]
[illegible] الصحة العامة وهو أمر لم يكن معروفاً في ذلك العصر
[illegible] أبداً . وفي مجتمع الغرب [illegible] حتى [illegible] هارون الرشيد أول
مستشفى في الإسلام [illegible] ثم [illegible] حتى
[illegible] في العالم الإسلامي [illegible] مع [illegible]
[illegible] في [illegible] حوالي
عام ٨٧٢ [illegible] القرن الخامس عشر [illegible] المستوصفات [illegible]
فقد ظهرت [illegible] في القرن الحادي عشر . وكان في المستشفيات
الإسلامية [illegible] وكان لكل مستشفى مستوصف
خصوصي [illegible] وكان [illegible] ويقوم بتدريس بعض
الموضوعات الطبية .

واشهر الأطباء في العصر [illegible] عصر النهضة رجال
درسوا [illegible] ولاسيما منهم الرازي وابن
سينا [illegible] الكبرى في مدرسة الطب في
باريس .

ويعتبر الرازي (٨٦٥ – ٩٢٥) أعظم الأطباء ، وأشدهم
ابتكاراً وأكثرهم [illegible] في الإسلام [illegible] في القرون
الوسطى قاطبة . ومما يروى أن الخليفة استشاره في الموضع الذي
يجب أن يبنى فيه مستشفى بغداد العضدي الذي كان هو رئيس أطبائه .

فأمر أن يعلّق في كل ناحية من نواحي بغداد شقة لحم ثم اختار
الناحية التي لم يتغيّر ولم يسرع فيها اللحم سريعاً فأشار بأن يبنى
المستشفى فيها . وإلى الرازي ينسب اختراع الفتيلة في الجراحة .
ومن أهم ما وضعه في الكيمياء « كتاب الأسرار » الذي تداوله
فيما بعد أيدي محررين عديدين . ولقد نقله إلى اللاتينية جيرارد الكريموني
Gerard of Cremona فظل مرجعاً رئيسياً لعلم الكيمياء حتى القرن
الرابع عشر . واقتبس منه الفيلسوف الإنكليزي المعروف روجر
بيكون Bacon . أما رسالته الشهيرة رسالته في « الجدري والحصبة »
وهي أقدم ما كتب في هذا الموضوع ، وتُعدّ تحفة في علم الطب
عند العرب . ولقد نشرها الدكتور فان دايك في بيروت عام ١٨٧٢
ومن أشهر مؤلفاته على الإطلاق « الحاوي » وهو كتاب جامع
نقله إلى اللاتينية فرج بن سالم الإسرائيلي سنة ١٢٧٩ وعنوانه [illegible]
[illegible] وقد طبعت هذه الترجمة مرات وفي عام ١٤٨٦ في حين
ظهرت طبعته الخامسة في البندقية عام ١٥٤٢ . والكتاب كما يدل
اسمه موسوعة طبية حوت خلاصة ما كان في حوزة العرب من
المعارف المستقاة من المصادر اليونانية والفارسية والهندية مع ما جاء
به العرب أنفسهم من الابتكارات الخاصة الطريفة . ولقد ظلت
مؤلفات الرازي هذه — التي طبعت باللاتينية لما كانت صناعة الطباعة
لا تزال في بدء عهدها — تسيطر على عقول العلماء في الغرب قروناً
عديدة .

• وأشهر الأطباء العرب بعد الرازي ابن سينا ، وقد امتاز
بمواهب باهرة فبرع في الطب والفلسفة والشعر والفقه . وألف كتباً

ورسائل كثيرة في هذه العلوم وغيرها . وقد كان مؤلفاته ورسائله
لطف سعة وعمق . ومن مؤلفاته الجليلة « القانون في الطب » فقد
كان موسوعة جامعة احتلت مقاماً سامياً في آداب ذلك العصر الطبية
وصحت كتاباً مدرسياً يعتمد عليه دور العلم في اوروبا . وفي ثلاثين
السنة الأخيرة من القرن الخامس عشر صدر « القانون » في خمس
عشرة طبعة لاتينية وطبعة عربية واحدة . وقد نقل بعضه حديثاً
الى اللغة الانكليزية . ومما يدل على سعة محتويات « القانون » ان
قسماً منه بحث في نحو سبعمئة ونيف من العقاقير والأدوية . فلا
عجب اذا أدرك هذا الكتاب بعد أمره الى ان صحب دليل طلاب
العلوم الطبية في المشرق والمغرب حتى القرن السابع عشر . ولا
يزال الناس في الشرق الاسلامي يستعملونه احياناً .

وأول عمل خطير قام به العرب في علم الفلسفة هو التوفيق بين
فلسفة اليونان والفكر الاسلامي . والفلسفة عند العرب هي معرفة
حقائق الامور كما هي على قدر ما تستطيع الوصول الى تحقيقه قوى
الانسان العاقلة . وهذه النظرة الفلسفية يونانية في جوهرها اخذها
العرب بعد ان كانت قد تحورت تحويرات الشعوب المغلوبة وسواها
من الشعوب الشرقية فصقلوها على اصول الاسلام العقلية وشروطها
عن طريق اللغة العربية . وحسب العرب ان مؤلفات ارسطو تحوي
مجمل التراث العلمي اليوناني كما تحوي مؤلفات جالينوس مجمل تراث
اليونان الطبي . واعتقدوا ان القرآن وعلم الأحاديث الاسلامي حوى
مجمل الشرع والاجتهاد الديني . فشحذوا اذهانهم وأعملوها في الهامش
المشترك بين تعاليم وعلوم الدين وبين الفلسفة والطب ، فاتحفونا

العالم بمبتكرات قيمة . ويعد مجد الاسلام في القرون الوسطى ،
انهم كانوا اول من نجح في وضع فكر بشري في التوفيق بين
فكرة التوحيد (الاعتقاد بالواحد) وهو اسمى ما جاد به العالم
السامي القديم ، وبين الفلسفة اليونانية التي كانت اسمى ما جاد به
العقل الهندي الاوربي القديم . وهكذا رشد الاسلام اوربا المسيحية
الى الطريقة الحديثة في العلم والادب .

وكان العلم في العصور الوسطى ، ولا سيما في العالم الاسلامي ،
اي بحزمة واحدة على غير ما نعرفه اليوم . فالفيلسوف مثلا قد كان
رياضيا وموسيقيا ايضا والطبيب قد يكون شاعراً . ومن الطريف
الذي يجب ذكره ان خيام مؤلف الرباعيات شاعراً فارسياً ومفكراً
حراً مثلي ، ثم ان عمر كان رياضيا بارعا وفلكيا كبيراً
والكندي الفيلسوف العربي المشهور لم يكن فيلسوفاً فحسب بل
كان عالماً بالنجوم والكيمياء والبصريات وعالماً موسيقياً ، وقد
سعى ، شأن معظم الفلاسفة الافلاطونيين الجدد ، في مزج آراء
افلاطون وارسطو والافلاطونيين معاً ، وفي ضم الرياضيات الى تعاليم
مدرسة فيثاغورس التي جعلها اساس العلم على الاطلاق . وقد نُسب
الى الكندي ما لا يقل عن ٢٦٥ كتاباً اكثرها مفقود . ومن كتبه
التي انتشرت في الشرق والغرب مؤلفه الفريد في علم البصريات وهو
يستند الى مؤلف اقليدس في هذا العلم . وكان ممن تأثر بهذا الكتاب
روجر بيكون . ويستدل من رسالة الكندي في الموسيقى ان
العرب عرفوا الاوزان العملية والقياسات الموسيقية قبل ان عرفتها
اوربا المسيحية بقرون .

وقد ترجم بعد ذلك بمدة في زمن المنصور كتاب هندي
السندهند الى العربية في بغداد في عام ٧٧١ . وفي مطلع
القرن التاسع ثبت بأن زيجا مضبوطا استخدمت فيها آلات دقيقة
للرصد تستعمل في جنديسابور من عهد قديم احدى الجوامع العربية
وقبل منتصف هذا القرن شيد الخليفة المأمون مرصداً في بغداد
وآخر في نواحي دمشق . وقد جهزت المراصد في تلك الايام بآلات
لقياس الارتفاع والانحرافات وغيرها
وغيره . وقد اجرى الفلكيون المسلمون من ادق العمليات
الجغرافية وهي قياس طول الدرجة الأرضية ، ورموا بذلك الى تحديد
حجم الأرض ومحيطها على افتراض ان الأرض مدورة . والقياس
الذي اجروه في سهل سنجار شمالي الفرات وكذلك بالقرب من
تدمر ادى الى نتيجة جعلت طول الدرجة ستة وخمسين ميلا عربيا
وثلثي الميل وهو رقم لا يزيد على الرقم الصحيح سوى ٢،٨٧٧ قدما .
وكان على رأس العلماء الفلكيين الذين ساهموا في هذه العملية
الخوارزمي ، وهو من اشهر رجال العلم في الاسلام ، وقد ترك اثراً
بالغا في الفكر الرياضي ثم ترك تأثيره في العصور الوسطى وفضلا
عن ذلك من جمع زيجه الفلكي الزيج ، وضع كتابين
كتابا في الحساب وآخر في الجبر والمقابلة ، وكلاهما
منقول الى اللاتينية . وبقي مؤلفه هذا في الجبر كتاباً مدرسياً
رئيسياً للرياضيات في جامعات اوربا حتى القرن السادس عشر .
وبواسطته تعرفت الى اوربا كلمة الجبر ومعه علم هذا العلم
الذي اقتبسته كل اللغات الاوربية عن العربية . والى مصنفات

الخوارزمي حتى عهد الفصل في نقل الارقام العربية التي تسمى
بعرب الارقام اعتمدة دلالة على الاصل الذي انحدرت منه الى
العرب

وكان اعظم ما امتاز به العرب في العصر بعد الحساب والبحث
وارتبطت مآثرهم في علم الكيمياء الذي ما يزال مخصصاً باسمه العربي
في جميع اللغات الاوروبية فهي مرتبة الكيمياء ، وتعد من العلوم
المخصصة أدخل العرب التجربة الموضوعية ، وهي خطوة تحصل
راهن على [illegible] لا [illegible] على [illegible] من اقدارهم
على ملاحظة الظواهر [illegible] وحذقهم في [illegible] وحذر [illegible]
في رسم النظريات [illegible] واستخراج نتائج [illegible] ، فكان
هذا جمع الخواص في [illegible] عبقريتهم

وكان ابو الكيمياء العربية جابر بن حيان الذي [illegible] في
الكوفة حوالى ٧٧٦ وقد وجه جابر همه [illegible] شأن اسلافه
في العلم من مصريين ويونان وهو [illegible] ان [illegible] المعادن [illegible] مثل
الحديد والنحاس يمكن تحويلها الى ذهب [illegible] بواسطة مادة
غامضة [illegible] بحث عن [illegible] الكيمياويين [illegible] في [illegible]
الكيمياويين [illegible] البحث [illegible] وفي [illegible] خطوات
واسعة في [illegible] الكيمياوي من [illegible] والعملية
وينسب اليه الروايات العربية [illegible] كشف عن عدة مركبات
كيمياوية لم تذكرها [illegible] العربية الاولى والمصريون [illegible] من
المؤلفات [illegible] والظاهر ان اكثر الكتب [illegible] الى جابر
[illegible] في [illegible] العربية و [illegible] . [illegible] لامر فهذه

الكتب المنسوبة اليه صحبت حتى القرن الرابع عشر أشد الكتب
الكيمياوية تأثيراً في اوروبا واسعة . ومن المؤكد ان بعض الحقائق
العلمية حول التكلس تحويل المعدن الى مسحوق او رماد
بواسطة الاحتراق والتصعيد وقد جاء ذلك في رسائل التبخر
والتصعيد والتقطير والتبلور وعرف جابر طريقة تحضير الحامض
الكبريتي المركز وحامض النتريك المركز وعول على مزاج
الماء الملكي لحامض النتروهيدروكلوريك من خلطهما الذي
يمكن اذابة الذهب والفضة فيه . وعلى العموم فانه عدل نظرية
ارسطو في تركيب المعادن على اساس . مما نتج عنه تغييرات
كبيرة الى زمان عصر الكيمياء الحديث في القرن الثامن عشر

وقد اهتدى العرب الى دراسة الجغرافية حول [illegible] منهم
فرضة الحج وتوجه المسلمين نحو مكة في الصلاة وضرورة معرفة
القبلة بالضبط كي يوجه المسلم عند الصلاة وجهه شطر مكة . كما ان
عن المسلم الذي يعتقد بان هذا من خصوص الله والفرض لكل موضع
في الارض [illegible] على الاسلام بجغرافيته [illegible] ان تجار الاسلام
كانوا قد عبروا منذ القرن [illegible] والتسع اخذ في الشرق برا
وبحرا ، وانتهوا الى جزيرة سيلان ، ووصلوا سواحل افريقيا جنوبا ،
ووصلوا في روسيا شمالا ، وهم حتى في اسفارهم عرضا للامواج
وبحر [illegible] الاسكي [illegible] فكان للاخبار التي عادوا بها
تأثيرها في اثارة اهتمام القوم بالاطلاع على شؤون البلدان القصية
والشعوب الغريبة . وغيت الجغرافية بنصوص الى العربية
مراراً من اليونانية مباشرة ومن الترجمات السريانية . وغيت [illegible]

الخوارزمي الذي أصبح فيما بعد مرجعاً لعلماء صورة الأرض ،
ساهم في رسم نسخة وسموها خارطة وهي أول خارطة في الإسلام
تظهر السماوات والأرض . وكان أول جغرافيي العرب قد أخذوا
عن الهند فكرة القول بأن للعالم مركزاً أسموه أرين من مخرج
الحكمة وسمي « أوزين » في جغرافية بطلميوس . وهو مركز مدينة
هندية قديمة فيها مرصد فلكي على خط طول ... قبة الأرض فيه ،
وأن ... هذا المكان هو على خط الاستواء بين طرفي الشرق والغرب
وقد اعتمدوه ... خط الطول في الغرب ... على بعد ستين
درجة من هذه القبة الوهمية . واعتبر جغرافيو الإسلام عدة قياس
خط الطول ... من خط الطول الأول الذي مر به بطلميوس ،
وموقعه في الجزائر المعروفة اليوم بجزائر الكناري .

وكما اعتمد كتّاب العرب على أصول الجغرافية ... ...
الكون كذلك اعتمدوا على الأصول العربية في التاريخ والإنشاء
الأدبي . فقد نشأ التعبير عن التاريخ من طريقة رواة الحديث
الإسلامي ، بمعنى أن كل حادثة كانت تروى نقلاً عن الثقات من شهود
العيان والمعاصرين ثم تتناقلها الخلف الى أن تصل الى راويها الأخير
وهو المؤلف الذي يذكر سلسلة الأسانيد كلها . ونجد شاهداً هنا على
ضبط الحوادث وحفظ ... . إلا أن مقياس صحة
الرواية كان يقوم عندهم على مواصلة الأسانيد وعدم انقطاعها وثقة
رواتها أكثر مما يقوم على نقد الواقعة ذاتها وتمحيصها . ثم إن
المؤرخين لم يكونوا ثقات ورووا المتناولات غير أن ... ... بتحليل
هذه المتناولات ونقدها ومعارضتها وتمحيصها كان قليلاً

ومع ان مؤرخي العرب اعتنوا كثيراً في حوادث ذلك الزمن

ولم يقتصر معظمهم على الابحاث المحررة في الحديث او علم العقائد

الدينية وفي خلال مدة القرون والنصف الى عقب وفاة محمد

[illegible] الاقوال والاعمال المنسوبة اليه التي جمعها [illegible]

ومرت مدة وكان كثيراً من خلاف في الاسلام بين فرق

وفرق اخرى [illegible] كان [illegible] [illegible] تدون كل من

الفرق من يؤيد دعواه بكلمة عن النبي او حكم صدره صحيحة

كانت هذه الكلمة او هذا الحكم او ملفقة

ولكن [illegible] الاحاديث واسند [illegible] الاسناد

و[illegible] الاوسع الحقيقي حدثني فلان قال حدثنا فلان

من فلان عن فلان انه قال [illegible] وهذه [illegible] التي [illegible] عنها

المؤلفون في كتب التاريخ والادب وفي كل هذه الموضوعات كان

النقد عنده [illegible] مقصوراً على [illegible] من صدق الرواة

ولم يكن في القرون الوسطى عند الرومان احد غير العرب

[illegible] الشريعة فانشأ نظاماً مستقلاً والفقه عندهم مبني في

الدرجة الاولى على القرآن والسنة اي الحديث ، ولا شك في انه

[illegible] الروماني [illegible] الفقه [illegible] الشريعة اي

اوامر الله المعروفة في القرآن الموضحة في الحديث ، [illegible]

اللاحقة .

وقد وضعت الشريعة الاسلامية معظم [illegible] من واجباتها

الدينية والسياسية والاجتماعية و[illegible] العلاقات الروحية والمدنية

[illegible] كذلك ادب السلوك [illegible]

والمعنى من قصد الشريعة إلى تقسيم أعمال الإنسان إلى خمسة ضروب هي (١) الفرض أي ما أوجبه الله بنص قطعي يجزى فاعله خيراً ويعذب تاركه (٢) المستحب ما يجزى فاعله ولا يلام تاركه (٣) المباح (٤) المكروه الذي يثاب تاركه ولا يعذب فاعله (٥) الحرام الذي يعذب فاعله .

والمؤلفات في علم الأخلاق المنسوبة إلى الفرس والمترجمة عنهم كثيرة . لا يسعنا ذكر ما في الآداب العربية التي تبحث في هذا العلم ، الأخلاق ، وكانت هذه المؤلفات الأخلاقية تهتم بتحديد فضائل معينة كالزهد في الدنيا والقناعة والتحمل ، وتجنب الرذائل علاوة على تحليل النفس بحيث يصبح الفرد المسؤول عن سلوكه الأخلاقي بنفسه أي بعيداً عن الجسم وما يترتب عليه ، فقد عنى بتحليل القوى النفسية وما يترتب على كل قوة من فضائل ورذائل خاصة بها .

ثم أدب اللغة العربية بقصة القصص فقد جمع وجه حواليه أمام الألف ليلة ، وقد ترجمت عن الفارسية في القرن الهجري . وهكذا انتقلت الأمثال والقصص الخيالية والتي ظهرت في العصور الأولى وهي تحمل أسلوب الرواية والإيجاز والمقصد في الحكم والأمثال على السجع . ومن أدب هذه اللغة انتقل العرب كتاباً واحداً ولا أهمية هو كتاب ألف ليلة وليلة ، وأصله قصص فارسية قديمة نقلت إلى العربية عن الجهشياري المتوفى عام ٩٤٢ بأن القصص الفارسية أضافوا إليه قصصاً أخرى كثيرة كما أضافوا إليه شهرزاد ، وعلى مر العصور أضيفت إلى المجموعة حكايات كثيرة جديدة

من [illegible] ومصره وشرقه

[illegible] ويطرق [illegible] أيضاً نوادر ونكات

[illegible] مجموعة [illegible]

[illegible] شكل [illegible] حتى القرن

الرابع عشر [illegible] في الغرب

[illegible] في [illegible]

وفي [illegible] في شكله

[illegible] كان [illegible] في العلم والأدب فقد أقصى

[illegible] ملحوظة في [illegible]

ولو [illegible] المؤلفات الإسلامية [illegible]

[illegible] كان [illegible] في

القرن الثاني عشر [illegible] في علوم

[illegible] وغيرها [illegible] والنجوم

[illegible] ذلك [illegible]

سواء في [illegible]

[illegible] في [illegible] على

[illegible] من [illegible]

الفنون الجميلة

شارك العربي في الفنون الجميلة كما شارك في سائر نواحي الحياة في
فنه وشعوره عنه بصحة ودقة وتقصير للتفاصيل وبصحة عما هو
نفسي موضوعي ، ولكنه بعد عن المقصورة على موازنة الأمور ،
المختلفة وضبطها وتطبيقها في كمال واحد شامل وجهوده في
الفنون كجهوده في العلوم أنتجت كثيراً من الآثار ...
وذلك في القرون العشر .. وقد تجاوزت فيها ... الهندسة
المعمارية والتصوير وغيره .

والعصر الأموي خلّد في بنائين عظيمين من أبدع ما أبقاه
الفن الإسلامي وهما المسجد الأموي في دمشق وقبة الصخرة في بيت
المقدس ولكن ضروب الأبنية الرائعة التي أرادت بغداد في
العهد العباسي لم يبق منها اليوم من أثر خلا بقية المدرسة المستنصرية.

التي شهدتها الحقبة المستنصرية سنة ١٢٣٤ وهي أجود نموذج للكتابة. وخراب الذي حركته الحروب الأهلية بين الأمين والمأمون والتدمير الذي أنزلته جحافل المغول سنة ١٢٥٨ وعوامل الطبيعة الضعيفة قد محت الأطلال والعمارات و[illegible] من [illegible] اليوم تعيين مواقع معظمها بالتأكيد.

.. في غير بغداد [illegible] وأطلال العباسيين لا تكفي [illegible] أقصى الى [illegible] خلافة المتوكل ٨٤٧ – ٨٦١ ، في الجامع المعظم في سامراء الذي [illegible] ، وهو [illegible] من قصر [illegible] على [illegible] والآثار [illegible] الى [illegible] التي ترجع الى آخر القرن [illegible] وفي سامراء [illegible] الى المسجد الأموي [illegible] ولا [illegible] على [illegible] الأموية [illegible] آثار الفن البيزنطي السوري.

و[illegible] العصر العربي [illegible] لم يستعمل [illegible] الشرب في المجتمع الاسلامي . كذلك [illegible] لأنواع الفن التصويري [illegible] دون [illegible] على [illegible] سلامة [illegible] الخليفة [illegible] قصره [illegible] كانت [illegible] الاستدلال على [illegible] وكانت للخليفة الأمين [illegible] على شكل الأسود والعقبان [illegible] وكانت للخليفة المقتدر دار فسيحة ذات [illegible] شجرة [illegible] عشر غصناً من الذهب والفضة. وكانت [illegible] على كل [illegible] من هذا [illegible]

يلبسون [illegible] المدبّج ويعدونه [illegible] تتحدث عن [illegible] وكأنهم

في وطنهم [illegible] أن اخضعته أيديهم في سبيل [illegible] من جدران

قصره منقوش [illegible] ومشاهد الصيد علاوة

على [illegible] وفي عهد [illegible] شاه [illegible] السوكلي [illegible] هذه

الصحة الموشاة [illegible] السوكلي [illegible]

التروق [illegible] هؤلاء [illegible]

و [illegible] أن هذه التراوق

أما [illegible] التصوير [illegible] الإسلامية

كما هي الحال في [illegible] والمودة [illegible]

[illegible] والتصوير [illegible]

[illegible] في [illegible] كان [illegible]

[illegible] التصوير الإسلامي [illegible] كالملاحي أوائل

القرن الرابع عشر ، والظاهر أنه مشتق من [illegible] الشرقية ،

والأحصى [illegible] والتصوير [illegible] زخرفة في

الكتب

ونستطيع [illegible] كانوا [illegible] في الزخرفة

والتصوير [illegible] الأسلام [illegible]

السجاد ، وهي [illegible]

[illegible] مشاهد الصيد والحدائق [illegible]

لصنع أنسب الألوان . وكانت منسوجات الحرير [illegible] من

صنع [illegible] في مصر والشام [illegible] أوروبا

حتى أن [illegible] سواها

وفي صناعة [illegible] وهي من [illegible] الى
عصور مصر [illegible] وعصور [illegible] المسلمون [illegible] صور
[illegible] الشرقي [illegible] والأشكال الهندسية والنباتية
[illegible] هذا الفن حتى درجة في [illegible] العصور الإسلامية . والأمير
[illegible] دمشق عن
[illegible]
في [illegible] الحروف
العربية [illegible] فأصبحت عملاً كبيراً في الفن الإسلامي .
[illegible] في [illegible]
[illegible] وفي [illegible]
[illegible] في القاهرة [illegible]
[illegible]
[illegible] في [illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible] في القرن الهجري
الثاني [illegible]
[illegible] وهو من [illegible]
[illegible]
[illegible] الذي [illegible] وقد كان
[illegible] الحكام [illegible]

سمعوا في الحضرة النبوية واضحة [illegible] سحر القرآن . ولقد حفظت لنا
كتب التاريخ والأدب العربية [illegible] من أخبارهم و[illegible]
عليهم الصوت الحسن بخلاف المبدعين العازفين والمصورين وصناع
الأواني المعدنية الذين سكتت هذه الكتب عن ذكرهم . ولعل فن
الخط هو الفن العربي الوحيد الذي ظل مزدهرا إلى يومنا هذا ، وإن
[illegible] من [illegible] في [illegible] و[illegible]
[illegible] في [illegible] أحسن ما أخرجه
الأقدمون .

[illegible]

ولم يكن [illegible] من الموسيقى [illegible] كان ذلك
في دمشق [illegible] ، وكان [illegible] الرشيد
الزاهي [illegible] في الشعر والأدب ،
[illegible] في [illegible] الموسيقى [illegible] في
[illegible] الموسيقى [illegible] الأوراق [illegible]
عدد كبير من الجواري والعبيد . وقد كانت هذه الفئة الراقية من
أهل الفن آثار لامعة من نوادر [illegible]
[illegible] وفي الأحمر [illegible] اشترك في مهرجان
موسيقي [illegible] من هؤلاء [illegible]
الرشيد [illegible] الأمين [illegible] أهل

الأصوات كلها [illegible] حتى تجتمع [illegible]

ومن الذين حذقهم [illegible] مخارق الذي اشتراه

[illegible] مرة إحدى المغنيات [illegible] ذي صوته القوي العذب على

النحو الذي كان يسمعه أبوه ويعجب بصوته [illegible]

وشدة عمقه [illegible] ذكروا أنه

[illegible] في إحدى الليالي [illegible] والدمع [illegible] على [illegible] في أحد

من سامعيه إلا بكى [illegible] وظهرت الشموع [illegible] من [illegible] دونه

في صحون القصور [illegible] يسمعون غناءه.

وكان مخارق [illegible] من أرباب الموسيقى في ذلك العصر

[illegible] من [illegible] الخلفاء الذين [illegible] فقد [illegible]

فضلا عن سرعة الخاطر وقوة الذاكرة [illegible] الكثير من

رقيق من الأشعار [illegible] والفكاهات، فهم إذاً مغنون

ونظامون وشعراء ورجال [illegible] على [illegible] ومع ذلك [illegible]

إلا [illegible] على غيره [illegible] أولئك الذين [illegible]

[illegible] هؤلاء [illegible] الجواري [illegible] أدوارهن في

الخفاء وراء الستر [illegible] في بيوت الحريم،

وعندما [illegible] واللحن [illegible]

حتى [illegible] صاحب مصر [illegible] عشرة آلاف دينار.

[illegible] ثلاثين ألفاً ثم [illegible]

[illegible] صاحب خراسان [illegible] أربعين ألفاً، [illegible] كان من مولاها إلا أن

أعتقها وتزوجها.

ومن الكتب الكثيرة التي ألفت في العصر العباسي [illegible] طائفة

أسباب تاريخ الموسيقى العربية . ومن هذه الأسباب الكتب العربية
ان اهم عناصرها الأولى في الموسيقى [illegible] من ثقافة وثنية سامية في
وادي [illegible] الصوت [illegible] والصورة [illegible] . ثم من [illegible]
العملية فان نماذجها عربية محضة . وفي هذه المرحلة اقتبس العرب من
الدول المجاورة موسيقى [illegible] آلات موسيقية [illegible] حتى
صار هذا الفن لعظمته [illegible] عدة العناصر القديمة — وقد
كانت في ذلك العهد [illegible] والموسيقى [illegible]
لفنه [illegible] وفارسي [illegible] فهي من اصل
يوناني [illegible] الأرض [illegible] من [illegible]

ولم [illegible] ان [illegible] في
اصل [illegible] والموسيقى العربية [illegible]
العرب [illegible] كانت [illegible]
[illegible]
وليس [illegible] الموسيقى العربية [illegible] من [illegible] شرح
الكتب [illegible] في موضوع الموسيقى الكلاسيكية شرحاً
وافياً [illegible] علامات [illegible] وتعابيرها العامة .
وفي مقدمة هذه الكتب « كتاب الموسيقى الكبير » للفارابي
التركي الأصل المتوفى بدمشق سنة ٩٥٠

قرطبة جوهرة العالم

وفيما كان نجم الشرق من الإمبراطورية الإسلامية يبهر بعظمته الدنيا كان نجم العرب منه في الأندلس يسطع لا يقل عن ذلك إشراقاً وبهاء. وهكذا شهد الأندلس حيناً كانت الحضارة العربية تتقدم في أسبانيا تقدماً لا مثيل له وتكاد تبلغ فيه أوجها في أوائل العصور الوسطى. وكان من نتيجة ذلك نهضة الأوروبية الحديثة التي لم يكن للعرب نصيب في ركاب النهوض. وقد ازدهرت المدنية الإسلامية في الغرب وبلغت ذروة مجدها ما بين القرن التاسع والحادي عشر. وعلينا قبل أن نسير عبر هذه المدنية أن نعود فنلتمس عهدها في عهد نشأتها ونموها.

في ذلك العهد كان آخراً قضى العباسيون على الدولة الأموية في دمشق. ومن كان يتربع هؤلاء في كرسي الخلافة حتى انحدروا

يطاردون عقب النسب الأموي ، فيقتلون كل من استطاعوا الوصول اليه .

وكان من الأمراء القلائل الذين نجوا من ذبحهم عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام عاشر خلفاء دمشق . وكان عمره عشرين عاما وهو شاب طويل القامة نحيف الجسم أقنى الأنف ، خفيف العارضين احمر الشعر ذو ذؤابتين يتصف بالحزم والاقدام والطموح . تدرج بطرقه الى الشباب مقبلا على الحياة ، وتدرب على فنون الحرب الى ان اصبح سيفها المطاع ، وحفظ القرآن وتفقه في السنة الأموية التي كان يحظى فيها بشرف .

ونجا عبد الرحمن من الموت عن طريق الصدفة والحظ ، كان في خيمة لأهله مختبئا في مضرب خيامه المقام على ضفة الفرات واذا بفرسان العباسيين يحملون الرايات السود ويقتربون من المكان فعمد الى الهرب ومعه اخوه الاصغر [illegible] وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فالقى بنفسه في الفرات من الضفة وعاد الى مطاردته فرسان العباسيين فامسكوه وقتلوه ، وعبد الرحمن ينظر اليه ، ثم توارى في غابة حتى انقطع عن النظر .

هام عبد الرحمن على وجهه متنكرا دون مال او اصدقاء ، وسار متوجها جنوبا الى ان وصل فلسطين بعد صعوبات جمة ، وهناك لحق به مولاه بدر الوفي القدير فتوجه كلاهما غربا حتى وصلا شمالي افريقيا . واربع أعوام او تزيد في طلب ملجأ بعيد عن الخطر متنقلا مع بدر من قبيلة الى أخرى وجواسيس الدولة الجديدة تجد في طلبه الى ان وصل سبتة بعد خمسة اعوام . وكان اخواله وهم من

البربر يقيمون في تلك الانحاء ، حتى انهم فقدوا قوته

واتصل عبد الرحمن بالجيوش السورية المقيمة في الجهة الجنوبية من الاندلس عبر المضيق في الجهة الغربية لسنه ، فبايعوه بالزعامة . وسار على رأسهم متوغلا في البلاد فاخذت المدن الواحدة بعد الاخرى تسقط في يده ، وثابر على الجهاد سبع سنوات قبل ان خضعت له اسبانيا المسلمة كلها .

وفي وقت احدى الامارات عرفت شرلمان ملك الفرنجة بما اتصف به عدوه الجبار عبد الرحمن من شدة ومقدرة . وكان شرلمان هذا بمثابة حليف للخليفة العباسي وعدو طبيعي لعبد الرحمن الامير الجديد المتغلب في اسبانيا ، فبعث شرلمان بجيشه في عام ٧٧٨ قاصداً تحرير اسبانيا ، وتوغل في الجهة الشمالية من البلاد حتى وصل سرقسطة . الا ان الجيش اضطر الى الانسحاب عندما اغلقت هذه المدينة ابوابها في وجهه وهدّد اعداء امبراطوريته السكسونيون مملكة شرلمان في بلاده . وقد هاجم مؤخرة جيشه المتراجع في مضيق رونسفال اهالي بلاد البشكنش (Basques) وغيرهم من الجبليين فحطموا جيش الفرنجة وفتكوا فيه في الرجال والمتاع ومن القواد الذين قتلوا رولان الخالد الذكر في الاشعار المعروفة باسم رولان (Chanson de Roland) وهي اول ملحمة في الادب الفرنسي بل في آداب الاجيال المتوسطة الاوربية .

ولكي يضرب على ايدي مناوئيه اضطر عبد الرحمن الى انشاء جيش منظم مدرب قوامه اكثر من اربعين الفاً من البربر المرتزقة وقد تمكن من الاحتفاظ بولاء هذا الجيش بما كان يغدقه عليهم على

افراده من الاغتيال. وفي سنة ٧٧٣ أبطل الخطبة باسم الخليفة العباسي ولكنه لم يتخذ لنفسه لقب خليفة. وقد اكتفى هو ومن خلفه الى ايام عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١) بلقب امير او سلطان. وكانت الاندلس في عهد عبد الرحمن الاول اول الامصار التي خرجت عن سلطة خليفة اسلامي.

وبعد ان وحّد عبد الرحمن مملكته ونشر لواء السلام المؤقت عليها وجّه اهتمامه نحو سبيل حيث اظهر مقدرة تعادل مقدرته في الحرب. فجمّل مدن مملكته وابتنى لمد الماء قناة تحمله الى العاصمة التي احاطها بسور وشيّد دارة (فيلا) الرصافة في ظاهر قرطبة على نمط القصر الذي كان بناه هشام جده في شمال الشرقي من تدمر وجرّ الماء الى هذه الجنة ايضاً وأدخل فيها النباتات الاجنبية كالدراق والرمان. ويروى انه جاء بنخلة من الشام فلما رآها مفردة بالرصافة انشد من نظمه:

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرّب والنوى ... وطول التنائي عن بنيّ وعن اهلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي ... يسحّ ويستمري السماكين بالوبل

وأسس عبد الرحمن قبل وفاته سنة ٧٨٨ بعامين جامع قرطبة العظيم منافساً به جامعي الاسلام الكبيرين في بيت المقدس ومكة. وأصبح هذا الجامع بعد ان اكمله خلفاؤه ووسعوه قبلة المسلمين في الغرب. وفي عام ١٢٣٦ تحوّل هذا الاثر الرائع بأعمدته الفنية المصففة بتلاحق وتناسق كأنها غابة كثيفة ووجوهه الخارجية الفسيح الفخم الى كاتدرائية مسيحية لا تزال تدعى الى يومنا هذا

باسم « لامسكيتا » La Mezquita تحريفاً للفظة « المسجد ».
وقد حوت قرطبة عواصم العالم بهذا الجامع وبجسر قائم على الوادي
الكبير جرى توسيعه من بعد فصار يقوم على سبع عشرة قنطرة. ولم
تنحصر جهود مؤسسي الدولة الاموية في الاندلس في مصالح وغايات
مادية بل تعدتها الى المعنويات. فعبد الرحمن بذل قصارى جهده
محاولاً تشكيل امة واحدة من مختلف عناصر الدولة من العرب
والسوريين والبربر والنوميديين والعرب الاسبانيين والقوط الا
انها كانت محاولة عسيرة بعيدة التحقيق. والحق ان الفضل يعود اليه
من وجوه كثيرة في نشوء الحركة الفكرية التي جعلت اسبانيا
اسبانيا من القرن التاسع الى القرن الحادي عشر احد المراكز
الهامة في الثقافة العالمية.

وكان البلاط الخلفي في ايام عبد الرحمن الثالث، وهو الشخصية
البارزة في السلالة الاموية في الاندلس، من افخم ما عرفته
اوربا. فقد جاءت اليه رسل امبراطور بيزنطة وسفراء ملوك المانيا
وايطاليا وفرنسا. وبلغ عدد سكان العاصمة قرطبة نصف المليون
وكان فيها سبعمئة مسجد وثلاثمئة من الحمامات العمومية. ولم يكن
يعرف في العظمة من المدن سوى بغداد والقسطنطينية. وكان
قصر الخليفة فيها يضم بين جدرانه اربعمئة غرفة ومقصورة يسكنها
الوف الرقيق والحرس. وهو قائم في الشمال الغربي من المدينة على
احدى هضاب جبل الشارات (سييرا موربا) المشرف على
الوادي الكبير. وكان عبد الرحمن قد شرع في بنائه عام ٩٣٦ تل
خدمة، على ما تقول الاساطير، احدى جواريه التي اوصت ال

يُنفق هذا المال لافتداء الأسرى من أيدي النصارى . وقدم محمد
عبد الرحمن منهم جداً عمل بتشييد مدينة جديدة سماها الزهراء
وابتنى هذا القصر وسماه باسم جارية له من وصيفاته وحظيته .
وجلب إليه الأعمدة والأحواض المزدانة بالتماثيل من عدة جهات فقد استجلب
بعضها من القسطنطينية والبعض الآخر جاءه هدية من إمبراطورها .
واشتغل في بناء الزهراء عشرة آلاف صانع وألف وخمسمئة دابة
مدة عشرين سنة . وقدم الخلفاء الذين جاءوا بعد المنصور فوسعوا
الزهراء وحصنوها حتى أصبحت نواة لعاصمة ملكية عامرة ثم ترب
آثارها مثلما هي الآن . وقد جرت الحفريات في قسم منها عام
١٩١٠ وفيما بعده .

وفي الزهراء هذه احتفظ الخليفة بنفسه بحرس من الصقالبة عدده
٣٧٥٠ رجلاً يقومون على رأس جيش نظامي مع فئة منه . وكان
هؤلاء الصقالبة في بادئ الأمر أسرى من قبائل السلاف فقط عندهم
الألمان وسواهم فيبيعوهم من العرب . ثم أطلق هذا الاسم على جميع
الأجانب الذين اشتراهم العرب سواء أكانوا من الفرنجة أم الجليقيين
أو اللومبارديين وكانوا عادة يؤخذون أحداثاً ثم يستعربون .
وبمساعدة هؤلاء « الانكشارية » أو « المماليك » في إسبانيا استطاع
الخليفة القضاء على الثورة وقطع الطرق وإضعاف نفوذ
الأرستقراطية العربية القديمة . لذلك راجت سوق التجارة والزراعة
واتسعت موارد الدولة فبلغ دخل خزانة الخليفة ٦٢٤٥٠٠٠
ديناراً . فكان ثلث هذا المال يُنفق على الجيش وثلثه على المشاريع
العامة والثلث الأخير يدخر رصيداً احتياطياً . ولم تعرف قرطبة

من قبل مثل هذا الرخاء ، ولم تحز الاندلس قط مثل هذه الثروة . ويعود معظم الفضل في ذلك كله الى مقدرة رجل فرد عاش ثلاثاً وسبعين سنة وصرّح في اواخر ايامه انه لم يصف له من لذة الا اربعة عشر يوماً .

كانت السلطة في الحكم الاسلامي في عهد كل من دوله متعاقبة متزعزعة . فمن اسباب اضطراب الدولة الاموية بالسلطة الاسمية مما ترتب عليه عبد الرحمن الاول . على انه لما ارتقى العرش عبد الرحمن الثالث عام ٩١٢ كانت الاضطرابات الداخلية وثورات القبائل وعدم كفاءة الامراء في السياسة العامة قد عملت مفعولها في هذه الدولة فتقلصت ولم يبق منها الا قرطبة وضواحيها .

وخلف عبد الرحمن الثالث هذا جده عبد الله ، وعمره ثلاثة وعشرون عاماً . وكان كسلفه ذا عزم ومضاء وفطنة . فنشط لاسترداد ما ضاع من الامصار واحدة بعد الاخرى وادار الشؤون بحكمة ومقدرة . ودام حكمه نصف قرن (٩١٢-٩٦١) وهو من اطول مدات الحكم في تاريخ الخلافة . وكانت أهم حادثة سياسية في اوائل عهده إصداره امراً بان تكون الخطبة ابتداء من يوم الجمعة في ١٦ كانون الثاني سنة ٩٢٩ باسمه "خليفة" و"اميراً للمؤمنين" لا باسم الخليفة العباسي . وبه ابتدأت الخلافة الاموية في اسبانيا . وفي عهده وعهد خلفه الحكم الثاني (٩٦١ - ٩٧٦) وتحت ادارة حاجب المملكة الملقب بالمنصور (٩٧٧ - ١٠٠٢) بلغت السلطة الاسلامية في الغرب اوج مجدها . وفي هذه الحقبة تسنّمت العاصمة الاموية قرطبة مركزاً سامياً جعلها أعظم مدن اوربا ثقافة ،

فأصبحت مع القسطنطينية وبغداد احد مراكز ثلاثة للثقافة عالمية . واعتزت بما احتوته إذ كان فيها مئة وثلاثة عشر الف دار، وواحد وعشرون ربضاً (ضاحية) وسبعون مكتبة ، وحوانيت شتى تبيع فيها الكتب ، ومساجد وقصور . فحازت بذلك شهرة عالمية ، واجتذبت من اهل الامصار مجامع القلوب ، وبهرت بشوارع طولها اميال مضاءة تعدل الدول المحدثة ، في حين ان لندن لم يكن فيها قنديل واحد عمومي الى بعد سبعمئة سنة . اما باريس فظلت قروناً بعد ذلك كان الذي يخطو فيها عتبة داره في يوم ماطر لا يأمن من الخوض في لجّة من الوحل .

أما وجهة نظر العرب الى الاوربيين في الشمال – الجرمان البورديين – وغيرهم فيمكن الاستدلال عليها من قول صاعد بن احمد القاضي الطليطلي المتوفى عام ١٠٧٠ .

« ولافراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برد هواؤهم وكثف جوهم ، فصارت لذلك امزجتهم باردة واخلاقهم فجة ، فعظمت ابدانهم وابيضت الوانهم وانسدلت شعورهم ، فعدموا بهذا دقة الافهام وثقوب الخواطر ، وغلب عليهم الجهل والبلادة ، وفشا فيهم العمى والغباوة ... »

وكان أمراء ليون أو نافارا وبرشلونة اذا احتاجوا جرّاحاً أو مهندساً أو معمارياً او خياطة ولّوا وجوههم شطر قرطبة فذاع صيت العاصمة الاسلامية حتى اقاصي الارض حيث وصفت راهبة سكسونية قرطبة بأنها « جوهرة العالم » .

وكانت اسبانيا في عهد الخلافة أوفر بلدان اوربا ثروة وأشدها ازدحاماً بالسكان . وتباهت العاصمة بنحو ثلاثة عشر الف حائك

وبصناعة راقية للجلود. ومن اسبانيا عرفت صناعة صبغ الجلود
وترتيبها بنقوش مذهبة الى مراكش ، ومن هذين القطرين انتقلت
هذه الصناعة الى فرنسا وانكلترا . اما الحرير والصوف فكانت
الاقمشة تحاك منهما ليس في اوربة فقط بل في مالقة والمرية
وسواهما من العواصم وكان اهل الصين قد احتكروا صناعة الحرير
الى ان ادخل المسلمون الى اسبانيا صناعة تربية دود القز حيث
نمت وازدهرت وكانت ثمرته تنسج لا في قرطبة والمرية .
اما موطن صناعة الخزف فكانت في باترنة من اعمال بلنسية .
واشتهرت جيان والمرية بمعادن الذهب والفضة كما اشتهرت
قرطبة بالحديد والرصاص ومالقة بالياقوت . وكانت صناعة النصال
بدمشق معروفة في كل اقطار المعمورة بسيوفها . اما فن ترصيع
الفولاذ وسواه من المعادن بالذهب والفضة وترويقه بصور على
شكل زهر ، وهو فن منقول من دمشق ، فقد زهــا في صنعة
مراكز اسبانية واوروبة وترك اثره في اللغة يدل عليه لفظ في
اللغات الاوروبية الحديثة محرّفة عن لفظة دمشق .

وقد ادخل العرب الى اسبانيا الاساليب الزراعية المعروفة
في آسيا الغربية . فاحتفروا الترع وادخلوا أصنافاً جديدة من
الغرس وجوّزوا بساتين واشجاراً مثل الارز والبرقوق (المشمش)
و[illegible] (الدراق) والرمان والبرتقال وقصب السكر والقطن
والزعفران . وكانت سهول الجنوب الشرقي من اسبانيا مع خصب
الطبيعة باقليم معتدل وتربة صالحة ، فنشأت فيها مراكز هامة للزراعة
في المدن والارياف وعرف فيها كل انواع الحبوب وكذلك الزيتون

وانواع الفاكهة بعهدة الفلاحين الذين دفعوا على حق الأرض مقابل حصص يتقاضونها من المالكين .

وتعد هذا الرقي الزراعي من مفاخر الأندلس. ومن آثار العرب الخالدة في الاراضي الاسبانية الحدائق التي لا تزال الى يومنا هذا محافظة على الصبغة العربية. ومن اشهر الحدائق «جنة العريف» وهي من آثار الدولة النصرية في أواخر القرن الثالث عشر وكانت ملحقة بدار مخصصة في أطراف الحمراء. وكانت هذه الجنة على ما وصف ابن الخطيب «تشتمل على المغروس في حقل المعدود وانواع المسكوب والمتراسيين». وقد رتبت اقسامها شرفات فظهرت كأنها مدرج المتنزهات، بديع التنسيق ترويه مياه الجداول التي تتدفق في عدة شلالات ثم تتوارى بين الزهور والاعشاب والأشجار وهي لا تزال الى اليوم عبارة عن مجموعة بديعة من السرو والآس .

ووصلت حاصلات الأندلس الصناعية والزراعية عن حاجة البلاد . فكانت بشبانة ، وهي من اهم اسواق البيرة ، تصدر القطن والزيتون والزيت ومصنوعات الأقمشة والرقيق من مصر والهند من اوربا وآسيا . وشملت صادرات مالقة وجيان الزعفران والتين والرخام والسكر . وسارت حاصلات الأندلس عن طريق الاسكندرية والقسطنطينية حتى بلغت اقصى اسواق الهند وآسيا الوسطى . واتسع نطاق التجارة مع دمشق وبغداد ومكة بوجه خاص . وفي الألفاظ التي تعربت بها لغات اوربا الحديثة عن صناعة التجارة ما يشير الى سيادة العرب المطلقة في المجال

كأميرال « admiral » (أمير بحر) و « ترسانة » arsenal » (دار الصناعة). و « كابل » cable » (حبل).

وبدأت الحكومة تهتم بالبريد وسكّ النقود متبعة حسب النظم الشرقية فكان الدينار أساس التعامل في الذهب والدرهم في الفضة. وراجت المسكوكات العربية في ممالك النصارى شمالا وبقيت هذه البلاد حتى أربعمئة سنة ولم يكن فيها من المسكوكات الا العربية والفرنسية.

على أن عهد هذه الخليفة لم يكن في خدمته السياسة بل في الثقافة فكان الحكم بعكس جده عبد الرحمن الثالث عالماً يعمل على تشجيع العلم ونشره. فجرى على العلماء المرتبات وأنشأ في العاصمة سبعاً وعشرين مدرسة مجانية. وفي عهده ازدهرت جامعة قرطبة التي أسست حلقة في المسجد الكبير والتي أصبحت من معاهد العلم البارزة في العالم، فسبقت بتأسيسها الازهر في القاهرة والنظامية في بغداد. وأخذ يؤمها الطلاب من نصارى ومسلمين ليس من إسبانيا فقط بل من بلدان أوروبة الأخرى ومن أفريقيا وآسيا. ووسع الحكم نطاق المسجد الذي يضم الجامعة من جهاته وأجرى إليه الماء في الأنابيب الرصاص وزينه بالفسيفساء التي جاء بها مهرة الصناع البيزنطيين. واستدعى الى هذه الجامعة أساتذة من الشرق ورصد أموالاً خاصة ينفق منها على مرتباتهم.

وصارت العاصمة بعد الجامعة مكتبة من الدرجة الأولى في الغرب. وكان الحكم من هواة الكتب فبعث عماله الى مكاتب الإسكندرية ودمشق وبغداد قصد ابتياع المخطوطات أو نسخها. وحملوا منها

الى الاندلس الشيء الكثير فبلغ عدد المجموع من الكتب اربعمئة الف، حتى كان عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب اربعة واربعين مجلداً في كل مجلد عشرون ورقة فيها اسماء الدواوين الشعرية . واستوعب الحكم ، ولعله اعظم عالم بين خلفاء الاسلام قاطبة ، عدة من هذه الكتب علّق عليها في الحواشي ملاحظات زادتها قيمة لدى هواة الكتب في العهود المتأخرة . وبعث في « كتاب الاغاني » لمصنّفه ابي الفرج الاصفهاني الاموي الاصل الف دينار فارسل اليه بنسخة منه قبل ان يخرجه في العراق . وبلغت درجة الثقافة في الاندلس مستوى عالياً في هذا الوقت حدا بالعالم الهولاندي الكبير دوزي Dozy الى القول انه « كل فرد تقريباً (من افراد الاندلس) كان يُحسن القراءة والكتابة » . كل هذا بينما كانت اوربا المسيحية لا تعرف من العلوم الا مبادئ بسيطة اكثرها في حوزة عدد قليل من رجال الدين .

فضل العرب على المدنية الغربية

يستدل على اهتمام العرب بالعلم والثقافة والادب من العبارة التي كانت تظهر منقوشة على ابواب معاهد العلم في الاندلس «العالم يقوم على اربعة اركان : معرفة الحكيم وعدالة العظيم وصلاة التقي وبسالة الشجاع » ومن بعض التعبيرات المعروفة حوت في هذه العبارة ، التي تصف امثال هذا الاسلامية في اوروبا في المقدمة

ولقد كان للقوة العربية الحربية اثرها الفعال في العالم العربي وحكمه ولم تدم . ولكن الاسلامي لم يظهر حسب الاوربيين كثيراً . على ان التمدن العربي ترك وراءه سوابق تستشهد بها الاوربيون . اما العلم الاسلامي فقد وجه الفكر الاوربي من نواح عدة . ذلك ان الاندلس صدرت فصلاً رائعاً في التاريخ الفكري للعصور الوسطى الاوربية ، حتى منتصف القرن الثامن ومطلع

القرن الثالث عشر حسبما تقدم كانت الشعوب العربية المسلمة في مقدمة من حمل مشعال الثقافة والمدنية في العالم قاطبة . وبواسطة جهود هذه الشعوب نجا شيء لعلوم الاقدمين وقيض لها ان تعود الى اوربا مشروحة ومضافاً اليها . فمثل هذا سبيل نشوء عصر النهضة في اوربا جزئية . ولعل اعظم علماء الاندلس واكثرهم انتاجاً علي بن حزم (٩٩٤ - ١٠٦٤) وهو احد الاثنين او الثلاثة الذين يعتبرون احسن مؤلفي الاسلام واغزرهم مادة . وقد نسب اليه ابن خلكان والقفطي اربعمئة مجلد في التاريخ والديانات والحديث والمنطق والشعر وغيرها من العلوم . اما أهم كتبه لدينا الآن فهو كتاب الفصل في الملل والاهواء والنحل ، الذي يؤهل مؤلفه لاحتلال مركز الاولوية بين العلماء الذين عنوا بدرس الاديان على سبيل النقد والمقارنة . وفي هذا الكتاب نبه ابن حزم الانظار الى بعض مشاكل في قصص التوراة لم ينتبه لها فكر احد من بعده ، حتى ظهور مدرسة نقد التوراة العلمي في القرن السادس عشر .

اما في النثر والحكايات والروايات والقصص الادبية التي احدث تزدهر في اوربا الغربية خلال القرن الثالث عشر فهي بلا ريب تأثير الكتب العربية السابقة سواء أكانت هذه ام فارسية الاصل . اما حكايات « كليلة ودمنة » الشهيرة فقد نقلت الى الاسبانية برعاية ألفونسو العاشر الحكيم ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ - ١٢٨٢) . ولم تلبث ان نقلت الى اللاتينية على يد يهودي متنصر . ثم اصبحت ترجمتها الفرنسية عن طريق اللاتينية احد مصادر لافونتين حسبما

اقرّ لافونتين قصصه . وتمثل القصة (المسماة الحجرة , سكارمش)
Rues de حسب واتجهوا الى المقامة العربية وما تمتعت به من
السجع وحصته من ضروب التزويق اللفظي وما رمت اليه من
مغزى ادبي يستخرج من سرد مجريات بطل عصبة شعوذ .
وكان اول من وضع المقامة في العربية بديع الزمان الهمذاني
(٩٦٩ - ١٠٠٨) وتبعه الحريري (١٠٥٤ - ١١٢٢) وقطب
هذه المقامات تحوي بعض ضروب اروع مثل في الادب العربي بعد
القرآن . الا ان اعظم فضل للمقامة العربية على ادب العصور الوسطى
الاوروبية كان في اسلوبها الذي ساعد على تحرير القصة العربية من
الانظمة الضيقة المقيدة في قصص حب العصور الوسطى ، وسمح للادب
الاسباني بما فيه من حب وافر من مزج عربية مثال عليها اسكنة
في كتاب « دون كيخوته » Don Quixote الذي قضى مؤلفه
سرفنتس Cervantes في الجزائر ردحاً من الزمن سجيناً وادعى
على سبيل الدعابة ان كتابه يرجع الى اصل عربي .

وحين جدّت اللغة العربية وفي اي عصر انتشرت كانت وسيلة
اساسية في الانشاء الشعري شديدة ويصل متكلموها على الناس
السامعين لا تخفى امتع نغمة موضوع عجائب الوقع منهم
والوقع . وهذا الضرب الشعري الذي يسميه الشعور العاطفي
بالصدق فضلاً عن عذوبة الالفاظ وحسن السبك وبديع المعاني تحقق في
الاندلس . فقد كان الامير الاموي الاول عبد الرحمن شاعراً
ومثله عدد من خلفائه . وكان لأكثر هؤلاء الامراء شعراء يتبارون
في بلاطاتهم ويصحبونهم في اسفارهم وحملاتهم الحربية . وقد جرت

يشمله ، كثير عدد من الشعراء المعروفين المسلمين مع ان أئمة الشعر كانت استقرت لزمن طويل قبل هذا في قرطبة وانتقلت الى غرناطة ، كانت هذه حقبة للاسلام .

ومن افذاذ الشعراء ابو الوليد احمد بن زيدون (١٠٠٣–١٠٧١) الذي ينتمي الى بني مخزوم ، وهو فرع من قريش ويعدّه بعضهم اعظم شعراء الاندلس . وكان ابن زيدون في اول امره يقوم على خدمة ابن جَهْوَر رأس حكومة قرطبة الى ان غضب عليه . والسبب الراجح في ذلك عشقُ ابن زيدون للشاعرة الولاّدة بنت الخليفة المستكفي . فقضى الشاعر عدة سنين في السجن والمنفى الى ان دعاه المعتضد الى تقلّد رئاسة الوزارة وإمرة الجيش فسمّي بذي الوزارتين : وزارة السيف ووزارة القلم . وكانت الولاّدة هذه المتوفاة عام ١٠٨٧ أديبة شاعرة ذات ثقافة عالية في الظرف وحسن المعشر وكان مجلسها فرصة منتدى لأحرار العصر . ولقد اظهرت نساء الاندلس العربيات ميلاً خاصاً للشعر والادب . فخصّ المقّري جزءاً كاملاً من كتابه نفح الطيب بالنساء الشهيرات في الاندلس ، كي نعلم ان البراعة في اهل الاندلس كالغريزة لهم حتى في نسائهم وصبيانهم .

وتحرّر الشعر العربي الاندلسي الى حدّ معلوم من قيود التقليد فنشأت له اوزان جديدة واكتسب ذوقاً في تحسّس الجمال في الطبيعة بصورة تكاد تكون حديثة ونجد في أغانيه القومية واناشيده الغرامية عواطف الجمال التي سبقت عصر الفروسية في القرون الوسطى . وفي الاندلس ، كما في كل مكان وزمان ، بقيت

اواصر الارتباط وثيقة بين الموسيقى والشعر .

وينتشر الشعر العربي عامة والغنائي منه خاصة اعجاب شعري
الاندلسيين ، واصبح من العوامل الفعالة في طبعهم بطابع اندلسية
العربية . ومن الزجل والموشح نشأ ضرب من الشعر العامي القشتالي
استخدمه المسيحيون كثيراً في اناشيدهم الدينية ومن بينها اغاني
عيد الميلاد ولم يزل حتى الآن في لسان شعراء عاميين يحملون ما
يسمونه زجلاً وموشحاً .

ومن مآثر الشعر العربي ما ظهر في الشعر الاسباني العذري ،
فكرة في القرن الثامن ، من اسلوب خاص تحلى به مؤثرات الشعر
العربي وفي فرنسا الجنوبية لم تظهر شعراء التروبادور على اثر
الفتح حتى اواخر القرن الحادي عشر فاذا بقصائدهم فصيحة بلحن
الذوق تعبر عن حب مترعة بالشعور العفوي والخيال المتقد . وقدمت
جماعة التروبادور التي ظهرت في القرن الثاني عشر مغرب الجنوبيين
من منشدي الرحل . واتباعاً للانموذج العربي اصبح التغزل بالمرأة
شعراً ، امراً مألوفاً في اوربا الجنوبية الغربية . ثم ان اغنية رولان ،
وهي اسبق تراث في الادب الاوربي القديم ، فقد ظهرت قبل سنة
١٠٨٠ مؤذنة بطلوع شمس مدنية جديدة – مدنية اوربا الغربية –
والاغنية مدينة بظهورها لمعركة بين مسيحيي فرنسا ومسلمي اسبانيا .

ولقد قام التعليم الابتدائي في البلدان الاسلامية والشرق ، كما
استند على اساس الكتابة وقراءة من القرآن وعلى تعلم الصرف
والنحو والشعر . ومقام المرأة في الحياة العامة يبرهن على ان
الاندلس قد اعطت ادباً مصححاً للاقوال والاحاديث التي بثت عن

تعلم المرأة . أما التعليم العالي فكان يقوم على تفسير القرآن والحديث والفلسفة وأصول اللغة العربية والشعر وعلم المفردات والتاريخ والجغرافية . وازدانت بعض المدن الرئيسة بمدارس تصح تسميتها بالجامعات وفي مقدمتها قرطبة وإشبيلية ومالقة وغرناطة . ومن دوائر التدريس التي تضمنتها جامعة قرطبة دائرة للفلك وغيرها للرياضيات والطب والعلوم الكيمياوية والشرعية . وبلغ عدد طلاب المدينة الوافدين مع الآلاف وكانت شهادتها من أهم المؤهلات لشغل أرفع مناصب الدولة دخلا. وشمل منهاج الدراسة في جامعة غرناطة علوم الدين والفقه والطب والكيمياء والفلسفة والفلك . واستقدمت هذه الجامعة الطلاب من فرنسا وسواها من الأقطار الأجنبية .

ونشأت إلى جانب الجامعات خزائن للكتب من خزانة قرطبة الملكية ، أوسع المكتبات وأفضلها . وكان لبعض مشاهير الأئمة وبعض أمرائها مجموعات كتب خاصة . ولدى معرفة المسلمين هذه الفنون النفيسة ودور النشر التي انتشرت في بلاد اليونان ورومة ، فقد قضت الحضارة الإسلامية أن تكون الكتب الواسطة الوحيدة لتحصيل المعرفة .

ولولا صناعة الورق ونشرها في الأندلس ، وهي من أهم ما أسداه الإسلام إلى أوربا ، لما راجت سوق الكتب إلى هذا الحد كما لاحظنا في درسنا لبغداد . ومن مراكش التي أدخلت إليها هذه الصناعة من الشرق انتقلت إلى إسبانيا في منتصف القرن الثاني عشر . ومن الألفاظ التي تذكرنا بهذه الحقيقة « رزمة » العربية التي دخلت بحرفها في لغات أوروبية كثيرة . ثم تطرق فن صنع

الورق في شاطبة نحو سنة ١٢٧٠ ، فعمل أثر المسلمين في صقلّية على الراجح . اما في فرنسا فالفضل الاول في ظهور مصانع الورق يعود الى تأثير الاسبان لا الى تأثير الصليبيين العائدين كما ادّعى بعضهم . ومن هذه البلدان انتشرت هذه الصناعة الى سائر انحاء اوربا . وكان لعبد الرحمن كاتب اعتاد انشاء الرسائل الرسمية في حينه ثم إعدادها الى ديوان خاص يصير فيه ضبطها ، في نسخ عدة توزع على عمال الدولة .

وعقب تقلّص السلطة الاسلامية عن اسبانيا انقرضت معظم الكتب العربية فيها ولم يبق منها سوى النحو الاقل من الحدثان ، قام فيليب الثاني (١٥٥٦ - ١٥٩٨) وخلفاؤه في جمعها من مختلف خزائن الكتب العربية . فعدت هذه المجموعة نواة مكتبة الاسكوريال Escurial التي لا تزال قائمة حتى العهد الحديث . وحدث في النصف الاول من القرن السابع عشر ان الشريف زيدان سلطان مراكش ارسل خزانة كتبه على ظهر سفينة ، وكان هاربا من عاصمته ، فاتفق ان الربان ابى ان يوصل هذه الكتب الى المكان المقصود لانه لم يستلم اجرته كاملة سلفاً . وبينما السفينة في طريقها الى مرسيليا اذا بها تقع في ايدي قراصنة بحر الاسبانيين فأمر فيليب الثالث بايداع هذه النفيسة من الكتب التي يتراوح عددها بين الثلاثة والاربعة الآف في مكتبة الاسكوريال ، وبذلك اصبحت هذه المكتبة من اغنى المكاتب الاوربية بالمخطوطات العربية .

وليس بين كتّاب العصر الاندلسي من كان اغزر مادة في التاريخ من المعاصرَين ابن الخطيب وابن خلدون .

كان لسان الدين بن الخطيب (١٣١٣ – ١٣٧٤) متحدراً من أسرة عربية هجرت الشام فنزلت اسبانيا. وفي زمن سابع سلاطين بني نصر، يوسف أبي الحجاج، والسلطان محمد أطلق عليه لقب «ذي الوزارتين». وفي سنة ١٣٧١ فرّ من غرناطة بسبب الدسائس في البلاط ثم لم ينج بحياته لأنه مات خنقاً بعد ثلاث سنين في مدينة فاس بيد بعض أعدائه. وبموته خسرت غرناطة، بل لم نقل الأندلس كلها، آخر من نبغ من جهابذة الأدب والشعر والسياسة. ولم يبق من الكتب الستين التي صنفها ابن الخطيب – وأكثرها في الشعر والتاريخ والجغرافية والطب والفلسفة – إلا نحو ثلث. وأهم ما بقي من هذه المؤلفات كتابه «الإحاطة في تاريخ غرناطة».

أما عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ – ١٤٠٦) فقد وُلد في تونس من أسرة أصلها عربية يعود نسبها إلى قبيلة كِنْدة. وكان مؤسس هذه الأسرة قد هجر اليمن في القرن التاسع فنزل اسبانيا. وبقيت ذريته في إشبيلية حتى القرن الثالث عشر. وتقلب عبد الرحمن في مناصب عدة رفيعة في فاس قبل أن يغضب عليه ولي الأمر فيها. وفي عام ١٣٦١ التحق بسلطان غرناطة محمد السادس فاحتلّ وظائف مختلفة ولعب دوراً سياسياً هاماً إلى أن ثارت عليه عواصف الحسد فاعتزل الوظائف وعكف على التأليف. إلا أن شهرة ابن خلدون الواسعة ترتكز على مقدمته إذ فيها وردت لأول مرة نظرية النشوء التاريخي مبنية على الأخذ بحقائق الإقليم والجغرافية فضلاً عن الحقائق الأخلاقية والروحية. وعكس [illegible] ابن خلدون من حيث بحثه عن قوانين التقدم والانحلال القومي ومحاولته أن يجمع

قواعده مكتشفاً طريقة جديدة – هكذا قال هو عن نفسه في علم التاريخ والعمران . واقل ما يمكن ان يقال عنه انه مؤسس علم الاجتماعيات . والحق انه ليس من كاتب اوربي او عربي نظر قبله الى التاريخ نظرة تعادل نظرته شمولاً واطلاعاً فلسفياً . ويُعدّ الى حدود مجموع الاراء بين النقدة اعظم فيلسوف تاريخي اسلامي ، ومن اعظم فلاسفة التاريخ في العالم .

لم يكن لدراسة العرب الجغرافية الا اثر محدود في الغرب كان من نتائجه احياء الفكرة القديمة القائلة بكروية الارض حيّة . وقد اشرنا سابقاً الى الفكرة الهندية القائلة بان نصف الكرة الارضية المعروف ان كان له مركز او قبة على ابعاد متساوية من الخوافق الاربعة . هذه هي نظرية آرين التي وصلت الى مخطط لاتيني صدر سنة ١٤١٠ فاخذ كولمبس عنه مذهبه الذي قاده الى الاعتقاد بان شكل الارض يشبه الاجاصة وان في نصفها الغربي الذي يقابل آرين مركزاً آخر مرتفعاً ومماثلاً .

والحق ان العرب تخطوا بالغرب بعدة آراء جديدة ومعلومات واسعة النطاق في الجغرافية الفلكية والرياضيات . ففي اسبانيا بلغ عظم الاقبال على العلوم الفلكية بعد منتصف القرن العاشر وخصّ امراء قرطبة وطليطلة واشبيلية هذه العلوم برعاية وعناية . وكان معظم الفلكيين الاندلسيين يؤمنون بان عدد اكثر الحوادث التي تحدث للانسان ما بين ولادته وموته انما ترجع الى تأثير النجوم . واقتضت دراسة هذا التأثير الفلكي علم التنجيم – تحديد الاماكن في الارض ووضع مقاييس الطول والعرض لها .

ثم تطرقت هذه المؤثرات الشرقية بواسطة اسبانيا الى الغرب اللاتيني فذهب الى دراسة الفلك والتنجيم . وترجمت معظم كتب الفلك الاسلامية في اسبانيا الى اللاتينية . وما جداول الفلك الألفونسية التي وضعها الفونسو العاشر في القرن الثالث عشر إلا امثلة لمؤثرات علم الفلك العربي . ومن دراسات العرب للنجوم حصلنا اسس علم المثلثات الكروية والاسطوانية . فالعرب هم الذين وضعوا علم المثلثات كما وضعوا علمي الجبر والهندسة التحليلية . ومن بدائع اسماء النجوم التي تتحلى بها القبة الزرقاء ندرك حالا ان الفلكيين العرب كانوا اول من اطلق عليها اسماءهم واختاروها واليوم جمهرة اسماء النجوم في اللغات الاوروبية عربية الاصل فقط امثال « العقرب » Acrab و « الجدي » Algedi و « الطائر » Altair و « الفرقد » Pherkad بل ان كثيراً من مصطلحاتها الفلكية يرجع الى الفاظ عربية امثال « السموت » azimuth و « النظير » nadir و « السمت » zenith . وما هذا غير قليل من كثير مما اتحف به الاسلام اوربا المسيحية .

ومن امتع المفردات الرياضية وافيدها لفظة « صفر » في استعارتها اللغات الاوربية من العربية . نعم ان العرب لم يخترعوا الصفر ولكنهم هم الذين ادخلوه مع الارقام الى اوربا فعلّموا الغربيين طريقة استخدامها وبذلك سهّلوا استعمال الحساب في امور الحياة اليومية . وهذه الارقام يسميها العرب هندية لانهم اقتبسوها عن الهنود ، ويسميها الاوربيون عربية لانهم اخذوها عن العرب .

على ان انتشار الارقام الهندية في اوربا عبر اسبانية كان بطيئاً جداً . فقد بقي علماء الحساب المسيحيين طيلة القرن الحادي عشر والثاني عشر وبعض الثالث عشر يستعملون الارقام الرومانية القديمة القائمة على بعض حروف الهجاء . واستخدمت هذه الارقام بقصد علمية لاول مرة في ايطاليا . ففي سنة ١٢٠٢ وضع ليوناردو فيبوناتشي من اهالي بيزا – بعد ان درس على اساتذة مسلمين في طلب العلم في شمالي افريقيا . فنشر كتاباً كان المقدّم الرئيسي في تعريف الارقام الهندية الى اوربا . زد على ذلك انه مهد الكتب تعتبر بداية عهد الرياضيات في اوربا . ولو بقيت الارقام القديمة المبنية على الحروف لتأخر التقدم والارتقاء في علم الحساب في بعض فروعه . ولا مبالغة في القول ان علامة الصفر والارقام الهندية هي اساس علم الحساب على ما نعرفه اليوم .

وفي موضوع التاريخ الطبيعي ، ولا سيما علم النبات ، كما في الفلك والرياضيات زادت بحوث العلماء العرب في ثروة العلم . ولقد ابدى العرب ملاحظات صائبة في موضوع الفرق الجنسي النباتي بين الفحل والأنثى ، وقسّموا النباتات على مبدأ ما ينمو منها من الغصن وما ينمو من البذور وما ينمو من تلقاء نفسه . وحوالي نهاية القرن الثاني عشر وضع ابن العوّام رسالة في الزراعة هي اهم ما صنّفه المسلمون في هذا الموضوع بل أهم مؤلفات العصور الوسطى فيه . وقد اقتبس الكاتب بعض مواده عن اليونان القدماء وعن مصادر عربية وجاء بعضها نتيجةً لاختبارات المزارعين في اسبانيا . ويعالج ٥٨٥ نبتةً ويشرح طريقة تربية اكثر من خمسين

شجرة مثمرة ويورد ملاحظات جديدة في موضوع التطعيم وفي
حفظ ثمره والسماد وبحث في عرض عدة من امراض الاشجار
والكرمة مع اوصاف حرفية معجبة .

وكان اشهر علماء النبات ولد في الاندلس بل في العالم
الاسلامي عبدالله بن احمد بن البيطار الذي توفي في دمشق سنة ١٢٤٨
تاركاً وراءه اعظم رسائل العصور الوسطى في النباتات مسطرة
بعنوان « الجامع في الادوية المفردة » .

وكان معظم الذين انصرفوا الى صناعة الطب من عرب الاندلس
يتخذونها مهنة كاملة الى جانب غيرها من منصرفاتهم . فابن رشد وابن
ميمون وابن باجة وابن طفيل كانوا في الدرجة الاولى فلاسفة . اما
ابن الخطيب كما قدمنا فكان شاعراً ومؤرخاً تقلد منصب الوزارة
شأن غيره من الاطباء . وفي عهده انتشر مرض الطاعون الهائل في
اوربا في منتصف القرن الرابع عشر ووقف على العدوى جيداً
محكوماً في الايدي حسبما يعلمه وقديماً وضع هذا
العربي الخطيب اسم رسالة دافع فيها عن نظرية العدوى حيث
يستدل من الفقرة التالية

« ان قيل كيف نسلم دعوى العدوى وقد ورد الشرع بنفي ذلك قلنا
وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والاخبار
المتواترة ، وهذه مواد البرهان . وغير خفي عن نظر في هذا الامر
وادركه هلاك من يباشر المريض بهذا المرض غالباً وسلامة من لا يباشره .
كذلك وقوع المرض في الدار والمحلة بثوب او آنية حتى ان القرط اتلف
من علق بأذنه واباد البيت بأسره . ووقوعه في المدينة في الدار الواحدة

ثم انتقلت منها الى البلاد المشرقية ثم في جنوبهم وغربهم ووراء آرام خاصة حتى يسمع الشرق . وفي مدن السواحل الشمالية حتى ... ان غني بها في البحر من عدوة الحرق قد شاع عن ... »

وكانت الثقافة شرقية ، في القرون الأولى من الحكم الاسلامي للاندلس ، منتشرة في اسبانيا على مستوى عال ، وجد علماء الاندلس يرحلون في طلب الاستزادة من العلم الى مصر وسورية والعراق وفارس والى ما وراء النهر يبحثون وينقبون ، حتى اذا كانت القرن الحادي عشر والقرون اللاحقة انعكست الآية ، وخصوصاً في القرن الثاني عشر ، حتى صارت المعارف الاندلسية اشدها وبلغت من الغزارة حداً جعل منه منبراً على اوروبا . وفي نقل كتب عربية الى اوروبا بعثت افريقية شمالية العربية واسبانيا لا سيما طليطلة ، حيث عاش جيرارد الكريموني وميخائيل سكوت اللذان ادّيا دوراً هاماً . وهكذا استطاعت الثقافات الثلاث الاسلامية واليهودية والنصرانية ان تلتقي في مركز واحد فتندمج . وبواسطة الترجمات انتقلت الى اللغات الاوربية الفصحى عربية عدة كلمات كثيرة محرفة عن مفردات هذه اللغات

بيد ان اسمى درجات الرقي بين شعب الفكر العربي في الاندلس اتاحت في حقل الفلسفة . فبيد حكام العرب آخر الحلقات واهمها في تلك السلسلة التي نقلت فلسفة اليونان الى الغرب اللاتيني بعد ان طبعها العرب في الشرق والغرب بطابعهم الخاص والبسوها ثوباً جديداً . وكان اهم ما اتحفوا به الفلسفة هو توفيقهم بين الايمان والعقل وبين الدين والعلم . فقد اعتبر مفكرو الاسلام ان تعاليم

ارسطو وتعاليم افلاطون وتعاليم القرآن كلها تعاليم صادقة . وقالوا
ان الصدق واحد لا يتجزأ وانه فلا بد من التوفيق بين عقيدة
المسلم لتلائم واندمجت في نظام موحد . هذا وقد وجه علماء الاسلام
جهودهم الى معالجة هذه المعضلة . ولقد واجه فلاسفة النصارى
المدرسيون (السكولاستك) المعضلة عينها الا ان موقفهم كان
اصعب لما حواه اللاهوت عندهم من مبادئ كالطقوس والاسرار
الكنسية . والحق ان الفلسفة كما وضعها اليونان وديانة التوحيد
الى انشاد انبياء العبرانيين كانت ، حسب شرحنا سابقاً ، اثرين من
الغرب القديم والشرق القديم من تراث واحد .

ولما نصل الى العصور المظلمة وفجر النهضة المدرسية تتدفق
الافكار الجديدة عن طريق الاندلس الى اوربا الغربية ، لاسيما في
الفلسفة والطب . والواقع ان هذا الاحتكاك بالفكر العربي
والفلسفة اليونانية عن طريق العربية احيى الفكر وانعش الروح
العلمية والفلسفية في اوربا ومهد السبيل الى حياة فكرية جديدة
مستقلة ادت الى النهضة الفكرية الحديثة التي لا نزال نجني الى
اليوم ثمراتها .

ولا يمكن ان نذكر في هذه العجالة الا القليل من أعلام
الفلسفة في الاندلس . منهم ابن طفيل الذي توفي سنة ١١٨٥ واهم
مؤلفاته رواية فلسفية مبتكرة عنوانها « حي بن يقظان » ويقوم
الفكرة الاساسية في هذه الرواية على ان المقدرة الانسانية تكفي
دون مساعدة خارجية للتوصل الى معرفة العالم العلوي وان في وسعنا
الوقوف تدريجياً على ضرورة الكشف على الكائن الاعلى . وقد

جعلت هذه الطرفة التي تعدّ من امتع ما في ادب العصور
الوسطى واشده ابتكاراً الى اللاتينية سنة ١٦٧١ . ثم نُقلت الى
معظم لغات اوروبا (الهولاندية ١٦٧٢ والروسية ١٩٢٠
والاسبانية ١٩٣٤) وقد حاول بعضهم ان يجد فيها مصدراً لقصة
« روبنسن كروزو » Robinson Crusoe الانكليزية المعروفة .

أما اعظم فلاسفة الاسلام تأثيراً في الغرب فصاحب
التفكير الاسلامي العربي ابن رشد شارح ارسطو . ولد ابن رشد في
قرطبة سنة ١١٢٦ وكان هو [illegible] مؤلفه ، لكانت
في [illegible] الاخرى لا تحسب من مرتين واوضح
بها وطبعة شكّه لعمل . اما في العالم اليهودي والمسيحي فقد
شهرته فهي في الدرجة الاولى على مكانته كشارح لارسطو . ويجب
ان نذكر ان عمل الشارح في العصور الوسطى . كان ينطوي على
وضع مؤلف علمي وفلسفي مستقل فيه على كتاب قديم كاساس
واطار . وان شروح ابن رشد سلسلة رسائل تحمل عناوين كتب
ارسطو مع تأويل مختلف . والحقيقة ان ابن رشد ينتمي الى اوروبا
النصرانية اكثر منه الى آسيا وافريقيا الاسلامية . فقد عرفه العرب
من بعده بلقب « الشارح » كما عرف ارسطو بلقب « المعلم » .
وليس من كتابات حركت عقول فلاسفة النصارى في العصور
الوسطى بقدر ما حركتها كتابات ارسطو على ما شرحها ابن رشد .
وعدّت فلسفة ابن رشد من اواخر القرن الثاني عشر الى اخر
القرن السادس عشر مدرسة عالم الفكر على الرغم من ردّ الفعل
الذي احدثته بين المسلمين في اسبانيا اولاً والتلموديين ثانياً

والاكليروس ثالثاً . وكان ابن رشد من القائلين بوجوب تحكيم
العقل في جميع الامور الا في عقائد الاديان المنزلة ولكنه لم يكن
كما اعتقد الكثيرون ابا الفكر الحر والالحاد وعدو الاديان وكان
اتباع ارسطو من امثال الكندي قد حسبوا بعض الكتب الملفقة
ومنها بعض مؤلفات المدرسة الافلاطونية الحديثة من وضع ارسطو
نفسه . اما الآن فقد حررت فلسفة ابن رشد دعوة الى العودة الى
فلسفة ارسطو العلمية الصحيحة غير المزيفة . وقد اعتبر بعض
رجال السلطة من الاكليروس كتابات ابن رشد وحسبوها منبع
افكار غير مرغوب فيها فاصبحت كتباً للتدريس في جامعة باريس
وسواها من معاهد العلم الغربي . والحق ان الحركة الفكرية التي
اوجدها ابن رشد عاشت من بعده وما انفكت منذ يومها
تعتبر عاملاً هاماً في الفكر الاوروبي حتى مولد العلم التجريبي الحديث .

وكان المتقدم الاول بين فلاسفة هذا العصر بعد ابن رشد معاصره
اليهودي ومواطنه الاندلسي ابن ميمون ، اشهر اساتذة اليهود
وفلاسفتهم طوال هذه الحقبة العربية . وولد ابن ميمون في قرطبة
سنة ١١٣٥ ولكن اسرته هجرت الاندلس بسبب الاضطهاد الذي
اثاره الموحدون فنزلت القاهرة حوالي سنة ١١٦٥ . اما زعم
القفطي وابن أبي أصيبعة ان ابن ميمون كان في الاندلس يدّعي
الاسلام علانية ويدرس اليهودية سراً فقد تعرّض مؤخراً لنقد
صارم . وفي القاهرة اصبح ابن ميمون طبيب البلاط في عهد صلاح
الدين وعهد ابنه الملك العزيز ومن سنة ١١٧٧ فما بعد غدا ابن
ميمون رئيس ملة اليهود في القاهرة وفيها مات عام ١٢٠٤ ، وعملا

بوصفه حمل اتباعه حثهم على الاتكال على الطريق التي سلكها بني
موسى فلا غدق في طوره من اطوار فلسطين حيث لا يزال ضريحه
الوضيع مقصداً لجماهير الحجاج . والى اليوم نرى ذوي الحاجة من
مرضى يهود مصر يطلبون الشفاء بالاقامة ليلاً في دهليز الكنيس
المسمى باسمه في القاهرة .

كان ابن ميمون فلكياً ولاهوتياً وطبيباً ممتازاً . وكان فوق
ذلك كله فيلسوفاً . ففي علم الطب حسّن طريقة الخضاب وسن علاج
البواسير اي الامساك ووضع منهجاً لعلاج تقدم الطبيب المؤلف
اكثره من الخمر . كانت اعمق افكاره الطبية بشأن حفظ الصحة
واشهر كتبه الطبية « الفصول في الطب » . وفي مؤلفه الرئيسي في
الفلسفة « دلالة الحائرين » حاول ان يوفّق بين اللاهوت اليهودي
وفلسفة ارسطو المعروفة عند العرب . وبكلمة اخرى سعى الى
التوفيق بين الايمان والعقل . ومن الرؤى المسوقة في الاسفار المنزلة
فقد عالجها كأساطير ذاتية عن معانيه . وبذلك وقف موقف المدافع
عن الفكرة العلمية الحرة ضد فكرة حرفية النصوص فثار غضب
اللاهوتيين المحافظين الذين سموا كتابه « ضلالة » . أما آراؤه الفلسفية
المعبّر عنها في هذا المصنف وسواه فتطلعنا على غرار فلسفة
ابن رشد مع انه لم يطلع على بحثه في وقتها . وابن ميمون كابن
رشد لم يعرف اليونانية بل اعتمد على الترجمات العربية . أما نظرية
الخليقة التي يتطلبها الايمان بها فتوجب نظرية الجوهر الفرد التي
تختلف عن النظريتين الاخريين اللتين نادى بهما المتكلمون العرب اي
نظرية الاستمرار المتصلة التي قالت بأن الله خلق كل شيء ونظرية

الفلسفية في قالب من أتباع الافلاطونية الحديثة واتباع ارسطو أو كتبه فقد وضعت كلها بالعربية بعضها واحد منها ، ولكن بحروف عبرية . ثم لم تلبث ان ترجمت الى العبرية وبعد ذلك بزمن الى اللاتينية . وظل تأثيرها على توالي الزمن وتعدد الاقطار أشد ما يكون في اليهود والنصارى . وبقيت كتبه حتى القرن الثامن عشر الواسطة الوحيدة التي اوصلت الفكر اليهودي الى الاوساط غير اليهودية ، ويعتقد عدد من يرون في فلسفة سبينوزا Spinoza وكانت Kant وفي تعاليم بعض الدومنيكيين الكاثوليك كالبرتوس ماغنوس Albertus Magnus ما يشف عن أثر ابن ميمون .

اما في التصوف فكان زعيم هذا العصر بلا منازع محيي الدين ابن عربي ، اعظم المفكرين من ارباب التصوف الاسلامي . وقد نجم ابن عربي في مرسية ومات في دمشق سنة ١٢٤٠ ولا يزال ضريحه قائماً في احد ضواحيها . وفي كتاب « الاسراء الى مقام الأسرى » شرح ابن عربي مفصلاً قصة الاسراء بمحمد وصعوده الى السماء السابعة ووضع بحثه مثلاً احتذاه على ما يظن بعضهم دانتي ، في نظم شعره الخالد .

وفي خلال القرن الثالث عشر كان قد تم نقل العلوم العربية والفلسفة العربية الى اوروبا ، بعد ان شقت الدروب الفكرية الممتدة من ابواب طليطلة وصقلية عبر جبال البرانس وعرجت حتى بلغت بروفانس ومضايق الألب ثم انحدرت الى اللورين والمانيا وأوروبا الوسطى وعبرت الخليج الى انكلترا . واصبحت مرسيليا وتولوز وناربونة وسواها من مدن فرنسا الجنوبية مراكز هامة

للفكر العربي . اما في شرق فرنسا فقد كانت مدينة كلوني التي آوت في ديرها الشهير عدداً من الرهبان الاسبان كانت في القرن الثاني عشر مركزاً هاماً لنشر العلوم العربية . وفيها تعهد بطرس المحترم (١١٤١ — ١١٤٣) اول ترجمة للقرآن الى اللاتينية ووضع عدة كتابات ناقش فيها عقائد الاسلام . وحين دخل العلم العربي اللورين في القرن العاشر اصبحت هذه الناحية مركزاً هاماً طوال القرون اللاحقة . وغدت لييج وغورز وكولونيا وسواها من مدن اللورين اخصب تربة لنمو العلوم العربية . ومن اللورين عبرت موجة الدراسات العربية الى سائر الجهات ومنها انتقلت الى انكلترا النورمندية بواسطة علماء ولدوا ونشأوا في اللورين . وهكذا تغلغلت العلوم العربية الاندلسية في سائر انحاء اوربة الغربية

أول نجم العروبة في الشرق والغرب

ان كان ثمة ما يجدر ع السرعة المدهشة التي فتح بها ابناء البادية العربية معظم العالم المتمدن في القرن الاسلامي الاول فهو سرعة انحطاط السلطة العربية منذ منتصف القرن الثالث والرابع من بعد محمد. فحوالي سنة ٨٢٠ كان قد استقام لخليفة بغداد من السلطة الواسعة ما لم يستقم لعاهل آخر في تلك العصور. حتى اذا كانت سنة ٩٢٠ كان الخليفة قد اضاع كل سلطته حتى في بغداد نفسها. وما وافت سنة ١٢٥٨ حتى سقطت بغداد واصبحت خراباً. وبسقوطها زال السؤدد العربي واضمحلت الزعامة العربية وانتهى تاريخ الخلافة العربية شاملة

واذا بحث الاسباب المؤدية الى هذا الانحطاط والسقوط وجدنا ان هجمات القبائل البربرية من مغول وتتر على كثرتها وشدتها

كانت في الواقع ثورة . كذلك نشوء الدول العديدة والامارات
المستقلة في قلب الخلافة وعلى أطراف مختلفة ما كان الا عرضاً
من أعراض داء الخلافة لا سبباً من أسبابه . ومثل الخلافة في ذلك
مثل الامبراطورية الرومانية الغربية من قبل التي اصبحت شبيهة
رجل عليل على فراش الموت فسهل لخصومه فرصة مرضه فسطوا
على بيته ونهبوا حصصاً من ميراثه

ان العوامل الداخلية في سقوط الخلافة اهم من العوامل
الخارجية . وإن القوى التي سببت الضعف بطيئة لا ريب ادرك
الاسباب الحقيقية ولاحظ مفعولها خلال قرون . والكثير من
الفتوحات الاسلامية الاولى لم يكن الا اسمياً . ولم تكن طريقة
الحكم وما رافقها من الاستبداد بحقوق الشعب واستغلاله وجباية
الخراج بما يعين على الاستقرار والدوام . وبقيت حسب الفوارق
الجنسية والدينية بين العرب وغير العرب وبين المسلمين واهل
الذمة بعيدة مفقودة حتى في الجزيرة العربية نفسها . فالعداوة قديمة
بين اهل الشمال واهل الجنوب بقيت مستحكمة . ولم يكن هنالك
امتزاج كاف بين الفرس الايرانيين و بين الترك الطورانيين والبربر
الحاميين وبين العرب الساميين ليكونوا منهم امة متجانسة
موحدة من خلط هذه العناصر مجتمعة بلا رابطة متينة تحكم
اوثاقها . فهؤلاء الايرانيين لم ينسوا قط مجدهم الشعبي القديم ولم
يرضوا بالنظام الجديد رضى تاماً . اما معشر البربر فلا ادل على
شعورهم القبلي وكثرة انحلالهم من انضمامهم الى مختلف الفرق
الاسلامية غير السنية . كان اهل الشام لا يبرحون يترقبون ظهور

وعمّ استقلالي يرفع عن كواهلهم كابوس النير العباسي . ولقد ظهر حتى نطاق الدين نفسه من النزعات المتطرفة ما لا يقل اثراً عن فعل الاحزاب السياسية في تقويض الامر . ومن هذه النزعات نشأت الشيعة والقرامطة والاسماعيلية وجماعة الحشاشين وغيرهم . الا ان هذه الفرق لم تقصر همها على الدين وحده . فالقرامطة قد حاولوا الجانب الشرقي من الامبراطورية حركات هدامة . وما طال امر لهم حتى استولوا على الامصار العربية . والواقع ان الاسلام عجز عن دمج أتباعه في وحدة متراصة كما عجزت الخلافة عن ربط الاراضي الممتدة من البحر المتوسط الى نواحي آسيا وجعلها كلها دولة واحدة منسجمة

وهناك عوامل اجتماعية واخلاقية كانت هدامة في كيان عرى الدولة وتماسكها . فاختلاط دم العرب بغيرهم على كرّ الاجيال جعل الموالي تقتبس خصائص العرب وادّى الى ضياع سلطة العرب . وباختلاط الجنس القومية العربية وهبطت قوى العرب وضعفت معنوياتهم فانحدرت السيادة شيئاً فشيئاً الى ايدي الاقوام المغلوبة حتى صارت لهم مكانتها . وكان للتسرّي وما تبعه من منشآت الحريم والخصيان ضلع في تقويض معنويات الامة . ورافق ذلك اقتناء الجواري والغلمان فادّى هذا كله الى انحطاط مقام المرأة وفساد اخلاق الرجل . وبالسراري المتعددات تكاثر الابناء المولودون من امهات مختلفات في بلاط الخلافة واتسع المجال للتحاسد والحقد وعظم الترف والبذخ تبعه الاسراف في الشرب والغناء فكل هذه العوامل ومثيلاتها امتصت حيوية الاسرة المالكة

فنتج عن ذلك ظهور اولياء عهد صغار الاحلام و النفوس . ومما زاد في الاضطراب ان حق التعيين في الخلافة لم يكن منصوصاً عليه بصراحة .

كذلك كان للعوامل الاقتصادية اثرها . فالخراج ارهق و جسيم البلاد اذ اقتطعت تحكما فقدت الاثرة فصحب الخوف او من اصحاب الزراعة والصناعة . فكان الشعب يزداد فقراً كلما ازداد الحكام غنىً وقامت دويلات حتى دول اتخذ ارباب الامر منها اموال الرعية . وقضت الحروب المتواصلة بنقص عدد الرجال فغدت المزارع مهجورة خربة . وزاد تكرر الفيضان في الجد العراق الجنوبية و تجمعت في مختلف انحاء الامبراطورية في مصائب القوم وشقائهم . وانتشرت الاوبئة من طاعون وجدري وملاريا وسواها من الآفات التي وصف الاطباء حدها في العصور الوسطى مكتوفي اليدين فتكت في السكان فتكاً ذريعاً . وقد سجلت المدونات العربية للقرون الاربعة الاولى من التاريخ الاسلامي ما لا يقل عن اربعين وباء كبيراً .

اما اسباب انحطاط السيادة الاسلامية في اسبانيا وغيرها من الاقطـار الاوربية فكانت على وجه العموم من نوع الاسباب التي ادت الى سقوط الخلافة في منطقتيها الشرقية والوسطى من الامبراطورية . الا ان الضربة القاضية هنا جاءت على يد المسيحيين لا المغول . فعلى اطلال الخلافة الاموية في قرطبة التي سقطت سنة ١٠٣١ نشأت مجموعة من دويلات اسلامية صغيرة انهمكت قواها في الخصومات . فشهد النصف الاول من القرن الحادي عشر ما لا يقل

عن عشرين دولة دمت في نحو عشرين سنة أو مقاطعة وساسها زعماء
وأمراء يُعرفون بـ « ملوك الطوائف ». واستتبت الزعامة الاولية
في البداية لاشبيلية التي تتمتع بلا ريب بحصة من الازدهار لم تبزّها فيه
غير قرطبة . وقبل انصرام القرن وقعت دولة اشبيلية مثل غيرها
فريسة لدولة من بربر مراكش . ومن هنا ابتدأت زعامة البربر في
اسبانيا .

وعُرفت دولة البربر التي حكمت افريقيا الشمالية العربية
والاندلس (١٠٩٠ – ١١٤٧) بدولة المرابطين . والمرابطون في
الاصل أخوة دينية عسكرية كانوا كأحفادهم « الطوارق » مضاربين
في صحاري الجزائر الى هذا اليوم ، ملثمين وجوههم من دون العيون
باللثام ، فعُرفوا بالملثمين . وتلا هذه الدولة دولة أخرى من البربر
عُرفت بدولة الموحّدين . أما اشهر دولة من دول الطوائف العربية
فكانت دولة بني نصر في غرناطة التي شيد احد أفرادها محمد الملقب
بالغالب (١٢٣٢ – ١٢٧٣) داره الشهيرة في الملقبة بالحمراء .

والواقع ان انحطاط السيادة الاسلامية قد بدأ بنشوء
دُويلات ملوك الطوائف في الشرق وفي الغرب . واذا كان لا يصعب
هنا تتبّع تقدّم هذه الدويلات فبحسبنا على الاقل تدوين اهمّ
من هذه القصة لانها قصة عهد السيادة الاسلامية الاخير في اوربا .
وهي قصة ممتعة تدل بجلاء ووضوح على الاتجاه نحو الاندماج والتنسيق
بين مختلف الشعوب والثقافات حتى في الاوقات التي كانت تحاول
الفئة فيها إبادة الاخرى . والحق ان مقدرة المرء على تحاشي غيره
عنه وفيه دليل على ما في مدنيته من رفعة وديمومة .

بدأ استرجاع النصارى للاندلس بعد سقوط الخلافة الاموية في القرن الحادي عشر . والواقع ان المؤرخين الاسبان يعتبرون موقعة كوفادونجا Covadonga سنة ٧١٨ التي صدّ فيها الزعيم الاستوري بلايو Pelayo تقدّم المسلمين بدء عهد الاسترجاع . ولو تمكن المسلمون في القرن الثامن من القضاء على آخر بقايا السلطة النصرانية في الجهة الشمالية الجبلية لكان توزيع اسبانيا الحالي غير ما هو عليه اليوم . وقد عاق عملية الاسترجاع في اول الامر النزاع والتناحر بين زعماء النصارى في الشمال ولكنها زادت سرعة حالما تمّ توحيد قشتالة وليون سنة ١٢٣٠ . ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى تم تقريباً استرجاع البلاد باستثناء غرناطة التي بقيت بايدي المسلمين . وكانت طليطلة قد سقطت سنة ١٠٨٥ وتبعتها قرطبة في ١٢٣٦ واشبيلية في ١٢٤٨ .

واستهدفت اسبانيا بعد منتصف القرن الثالث عشر غايتين رئيسيتين : اولا تحرير البلاد وثانياً توحيدها . وقد انطوى تحرير البلاد على استرجاع ممتلكاتها وعلى توحيدها . ولقد تم التوحيد من شبه جزيرة ايبيريا الذي تأصلت فيه جذور الاسلام كان حيث زهت الحضارة السامية القرطجنية من قبل . ومثل ذلك يصدق على صقلية ، وهو امر له اهميته . فعلى وجه العموم كان الحد الفاصل بين الاسلام والنصرانية يطابق الحد الفاصل القديم بين المدنية السامية القرطجنية والمدنية الغربية . ولم يحل القرن الثالث عشر حتى اصبح الكثيرون من المسلمين في جنوب البلاد وغربها تحت سلطة النصارى بين داخلين او متعاهدين . ولكنهم فيما عدا ذلك

حافظوا على شرائعهم ودينهم . وقد أطلق على أمثال هؤلاء من
المسلمين اسم المدجنين ، وكثيرون منهم كانوا قد نسوا العربية
لغة الرومانس الاسبانية وادخلوا في اللغة الاسبانية
لم يكن يوجد اسبانيا حتى ذلك الوقت ولكن كان ثمة
وكانت البلدان المسيحية كلها آخذة تتألف من مملكتي قشتالة
وأراغون . وبعد زواج فردينند ملك أراغون من ايزابيل
ملكة قشتالة في سنة ١٤٦٩ صارت المملكتان وحدة تماماً
ولم يبق الا القضاء على سلطة المسلمين في غرناطة . ولم يكن في مقدور
ملوك بني نصر الصمود امام هذا الخطر المحدق المتزايد . وقد
تورط المتحاربون منهم في مشاكل سلالية زادت مركزهم تقلقلاً
وتعاقب على السلطة واحد وعشرون اميراً حكموا البلاد من
سنة ١٢٣٢ الى ١٤٩٢ تولى كل منهم الأمر مرتين ، وواحد
تولاه ثلاثاً . وفي ٢ كانون الثاني من سنة ١٤٩٢ ، وهي السنة التي
كتشف فيها كولمبس اميركا ، دخلت الجيوش المسيحية غرناطة
بعد حصار طويل شديد وحل الصليب محل الهلال في ابراجها

ولكن صاحبي الجلالة الكاثوليكية فرديناند وايزابيل نكثا
العهد ونقضا الشروط . ففي سنة ١٤٩٩ انتدب الكاردينال خيمنس
Ximenez كاهن الملكة الخاص ليتزعم حملة اكراه المسلمين على
التنصر . واراد الكاردينال اول الامر مصادرة الكتب العربية
التي تعنى بالاسلام وحرقها . وفي غرناطة جمعت المخطوطات العربية
أكواماً واضرمت النار فيها . ثم انشئ ديوان التفتيش وهو من
الدواوين التي حازت سمعة مشهورة في التاريخ . وصار كثيرون

من المسلمين في مغادرة البلاد . ثم من تأخر سلالة من المسلمين
بعد سقوط غرناطة فسمى بالـ « موريسكو » Morisco وهي لفظة
اطلقت اولاً على معتنقي الاسلام من الاسبانيين . وكان الرومان
قد اطلقوا على افريقية الغربية اسم « موريتانيا » وعلى سكانها
« موري » ولعل اصل هذه اللفظة فينيقي ومعناها « غربي » . وهكذا
جاء الاسم بالاسبانية « مورو » Moro وفي الانكليزية « مور »
Moor . والبربر هم المور الحقيقيون . غير ان هذه اللفظة أطلقت
اصطلاحاً على كل مسلمي اسبانيا وافريقية الشمالية الغربية . وبعض
المحليون من مسلمي جزر الفلبين لا يزالون يعرفون بهذا الاسم .
وقد اطلقه الاسبانيون عليهم عندما اكتشفوا علاقتهم بهذه الجزائر
في سنة ١٥٢١ .

وكان للمسلمين من الاسبان لغة رومانسية . الا انهم استخدموا
حروفاً عربية لكتابتها . ويعتز الكثيرون من الموريسكو ، بأن
لم يكن اجدادهم من اصل اسباني . وبعضهم حتى الآن يذكرون
أن اجدادهم قد كانوا نصارى وان عليهم قبول المعمودية او تحمل
العواقب . ودخل المدجنون والموريسكو في فئة واحدة فتظاهر
الكثيرون منهم بالنصرانية لكنهم مارسوا الاسلام سراً . وتزوج
كثيرون منهم علناً وفق شعائر المسيحية ثم عادوا وتزوجوا سراً
حسب السنة الاسلامية . ومنهم من اتخذ اسماً مسيحياً عرفه به
الناس وآخر عربياً عرف به سراً . وفي سنة ١٥٠١ صدرت ارادة
ملكية تقضي على من في قشتالة وليون من المسلمين إما بالرجوع
عن دينهم او بالجلاء عن البلاد . والظاهر ان هذه الارادة لم تنفذ

وفي سنة ١٥٢٦ واجه مسلمو الأرغون المعاملة نفسها . وفي سنة ١٥٥٦ اصدر فيليب الثاني قانوناً يقضي على البقية الباقية من المسلمين بالتخلي فوراً عن لغتهم وعاداتهم ومعتقدهم وعاداتهم . وامر ايضاً بهدم الحمّامات الاسبانية باعتبارها من تراث عهد الالحاد فتعالت الشكوى بين المسلمين ونشبت الثورة مرة ثانية في غرناطة وانتشرت الى ما جاورها من الجبال ، الا ان امرها لم يطل . اما القرار الاخير بالطرد فقد اصدره فيليب الثالث سنة ١٦٠٩ ونجم عنه إجلاء كل المسلمين تقريباً عن الاراضي الاسبانية قسراً . وقيل ان عدد الذين جرى نفيهم على هذه الطريقة بلغ نصف مليون نزل بعضهم سواحل افريقيا وركب بعضهم الآخر سفناً حملتهم الى اقاصي البلدان الاسلامية . ومن هؤلاء الموريسكو تألف معظم قراصنة البحر المراكشي . وبهذا اختفت المشكلة الاسلامية في اسبانيا التي شذت عن القاعدة القائلة بثبوت المدنية العربية الدائم حيثما حلّت اقدام العرب . وبهذه المناسبة يقول احد ثقات الانكليز المحدثين : « واُقصي المسلمون عن البلاد وأشرق نجم اسبانيا المسيحية ردحاً من الزمن كالقمر ذي النور المستعار ثم حلّ الخسوف ، وما زالت البلاد تتسكع في الظلمات منذ ذلك الحين »

واندرست جميع معالم الفن الديني في الاندلس ما عدا مسجد قرطبة ، وهو من أقدم تلك الآثار واعجبها . وضع أساسه عبد الرحمن الاول سنة ٧٨٦ في الموقع الذي قامت فيه كنيسة كانت في الاصل هيكلاً رومانياً . وأكمل ابنه هشام الاول الجامع الرئيسي من هذا المسجد سنة ٧٩٣ وأضاف اليه مئذنة مربعة الشكل .

وقد اتبع في بنائه الاسلوب الاموي الافريقي الراجع الى اصل شامي . وكان يدعم سقف هذا المسجد ١٢٩٣ عموداً ظهرت كأنها غابة كثيفة الاشجار ، وأعلى العواميد مكسية بخشب من اخشاب الكنائس وكان في ثرية واحدة يوقد فيها ألف مصباح ، أما صغرى هذه الثريات فكان فيها اثنا عشر مصباحاً . واستخدم في زخرفة هذا الجامع بيزنطيون مهرة مما يدل على انهم استخدموا في بناء مسجد دمشق . وكان مؤسسه قد انفق في بنائه نحو الف قطعة ذهب من عملة نقودهم . وظلت عملية التوسيع والاصلاح تتوالى على هذا المسجد حتى زمن الحاجب المنصور (٩٧٧ – ١٠٠٢) ، وهو يقوم [illegible] امر امراء [illegible]

أما الآثار الشهيرة فتعتبر قصر (Alcazar) في اشبيلية والحمراء في غرناطة وهي اعظم الآثار الفنية لما تحويه من الزخرفة العربية البديعة . والقسم الباقي من القصر في اشبيلية بناه مهندس معماري طليطلي لأحد امراء الموحدين سنة ١١٩٩ – ١٢٠٠ . والموحدون هم الاسرة البربرية الثانية التي حكمت الاندلس بعد دولة المرابطين . ثم اعيد بناء هذا القصر على الطراز الاسلامي بامر بطرس الظالم سنة ١٣٥٣ . وقد قام بهذا العمل صناع المدجنين وزينته الاسرة المالكة خير تزيين . وليس من قصور الاندلس الشهيرة في قرطبة وطليطلة وسواها ما هو قائم الى اليوم إلا قصر اشبيلية وهو اشهرها . ومما يؤسف له ان هذا القصر اصيب باضرار خلال الثورة الاسبانية الاهلية الاخيرة .

وأما في الزخرفة الاسبانية العربية فنبع نوع جديد في قصر

الحمراء . والحق ان هذا « الاكروبيس » غرناطة ، فيه من
الافراط في التزويق بالتعقيد والمدلات الكثيفة من السقوف
والنقوش والعناصر تظهر جميعه ، لم تعد تخرج شيء من هذا النوع .
وكان محمد الاول الغالب من بني نصر قد شرع في بناء الحمراء حوالي
سنة ١٢٤٨ ، ولكن بناءها لم يتم حتى منتصف القرن الرابع عشر .

وكانت القنطرة ذات الشكل النعلي التي تميزت بها هندسة البناء
الاسلامية في الغرب معروفة في الشرق الادنى قبل الاسلام . وقد
ظهر شكلها النعلي المستدير في الجامع الاموي في دمشق . وكان هذا
النوع الاخير الذي عرف في المغرب « بالحدوة المغربية » معروفا
بلا شك في اسبانيا قبل الفتح العربي ولكن المعماريين الاسبانيين
وبخاصة اهل قرطبة ادركوا امكانياته الفنية والزخرفية فطبقوه
عليه . وثمة ميزة اخرى لمذهب عرب قرطبة هي تحول بناء الاقبية
القائمة على قسي متقاطعة وضلوع ظاهرة متقاطعة . فهذه وسواها
من خصائص الفن المعماري ازدهرت في قرطبة وانتقلت منها على
يد المستعربين الى طليطلة وسواها من مراكز الشمال في شبه
الجزيرة . ومن هنالك تمازج المقصد النصراني والمقصد الاسلامي
انموذج جديد في الفن المعماري قوامه القنطرة النعلية والاقبية .
وبلغ هذا الفن المزدوج على ايدي الصناع المدجنين درجة عالية
من الجمال والكمال فلم يلبث ان بز فن الاسلوب القوطي .

ولقد ظل لاهل الرقص والغناء من العرب نصيب وافر في
عرض الملاهي على ارض اسبانيا والبرتغال الى ما بعد سقوط غرناطة
بزمن طويل . ويميل البحاث بعض المستشرقين الاسبان الى الاعتقاد

دان موسيقى اسبانيا الشعبية لا بل موسيقى الجنوب الغربي من اوربا خلال القرن الثالث عشر وما بعده . ان الروايات الغرامية العاطفية والمحبة في تلك الاوساط ، ترجع في الاصل الى منبع اندلسي وعن طريق العربية الى مصادر فارسية وبيزنطية ويونانية . وكما ان الفلسفة وعلم الرياضيات والطب انتقلت من بلاد اليونان وروما الى بيزنطية وفارس وبغداد ثم الى اسبانيا ومنها الى كافة انحاء اوربا هكذا انتقلت عدة فروع من الموسيقى العربية الغنية .

وليس من شك في ان البلاد الاوربية الوحيدة التي اصبحت فيها الثقافة العربية منتشرة انتشارها في اسبانيا هي صقلية . ففي سنة ٦٥٢ وجه العرب حملات متقطعة للاستيلاء على هذه الجزيرة ولكن فتحها لم يتم الا سنة ٨٣٧ . وعدت صقلية خلال [illegible] والسبع والثلاثين السنة التي مرت تحت سلطة حكامها المسلمين جميعهم كانوا او معظمهم قطعة من العالم العربي وعاصمة دولته بالرمو .

وكما كانت اسبانيا مركزا لشن الغارات الاسلامية على الشمال واحتلاله موقتاً هكذا اصبحت صقلية بالنسبة الى ايطاليا وحملات العرب عليها . وكان الامير ابراهيم الثاني من الاغالبة تونس الذين حكموا صقلية قد جرّد قبل موته سنة ٩٠٢ حملات عبر المضيق الى الجهة الجنوبية الغربية من ايطاليا المعروفة بقلّوورية (كلابريا) . وهو من اول عربي وطئت قدماه تربة ايطاليا . وبعد سقوط [illegible] بوقت قصير اخذ قواد الأغالبة من افريقية الشمالية يتدخلون في المنازعات بين اللامبرديين من سكان ايطاليا الجنوبية امراء « الكبس » و « الابهم » من القدم الايطالية فكانا

يومئذ لا تزال خاضعة للامبراطور البيزنطي . ولما استنجدت نابل (نابولي) سنة ٨٣٨ بالعرب لم يترددوا عن النجدة . وصارت معاقل جنوب ايطاليا تقذفها سفن الحرب . وبعد مضي اربع سنوات وقعت باري على البحر الادرياتيكي في يد المسلمين واصبحت القاعدة الرئيسية لهم مدى الثلاثين السنة اللاحقة . وفي هذه الآونة ظهر المغيرون بجوار مدينة روما . وفي سنة ٨٤٦ هددوا رومة بعد ان نزلوا في مرفئها البحري اوستيا Ostia . وإذ عجزوا عن اختراق اسوار المدينة اكتفوا بنهب كاتدرائية القديس بطرس في ضاحية الفاتيكان وكاتدرائية القديس بولس خارج الاسوار ونبشوا قبور البابوات . وبعد ثلاث سنوات وصل اسطول اسلامي آخر مرة اوستيا ولكن الاسطول الايطالي تمكن بمساعدة عاصفة عربية بوجه من القضاء عليه . وهذه الصورة من رسم رافائيل تمثل هذه الموقعة البحرية وتجد رومة تحتمي . الا ان سيطرة المسلمين على ايطاليا بقيت محكمة حتى ان البابا يوحنا الثامن (٨٧٢-٨٨٢) رأى من الحكمة دفع الجزية لهم طوال سنتين .

ولم تقتصر الاغارة العربية على شواطئ ايطاليا . ففي سنة ٨٦٩ نهبوا جزيرة مالطة . ومن ايطاليا وسافوا امتدت في القرن العاشر غزوات تعرضت من منطقة الالب حتى اوروبا الوسطى . وفي الالب اليوم عدد من القلاع والاسوار التي يقول الادلاء للسياح انها ترتقي الى الفتح الاسلامي . ومن اسماء بعض الاماكن في سويسرا عربية الاصل .

وحين استرجع البيزنطيون باري (سنة ٨٧١) بدت نهاية الخطر

على ايطاليا واوربا الوسطى من الشمال. وكان قواد الجيش العربي في
باري قد جمعتهم الامارات اعتبروا انفسهم سلاطين، مستقلين عن
الامير المقيم في بلرم. وفي سنة ٨٨٠ نشط الامبراطور البيزنطي
باسيليوس الاول فانتزع طارنت (تارنتو)، وهي قلعة حصينة،
من ايدي المسلمين في قلورية. وبعد انتهت آخر مراحل
التوسع العظيم الذي كان مؤذنه في جزيرة العرب البائسة قبل قرنين
ونصف القرن. وحتى هذا اليوم نجد الشاطئ الجبلي الى الجنوب
من نابولي Naples لا يزال مغطى بعدد من الابراج العربية التي كانت
تستعمل للاعلان عن مقدم الاساطيل العربية من صقلية أو من
افريقيا.

وبدأ الفتح النورمندي لجزيرة صقلية باحتلال الكونت روجر
Roger بن تانكرد دي هوتفيل Tancred de Hauteville في سنة
١٠٦٠ لمدينة مسينا الامر الذي ادى الى سقوط بلرم سنة ١٠٧١
وسرقوسة (Syracuse) في ١٠٨٥. وانتهى الاستيلاء على كل
الجزيرة في ١٠٩١. وفي سنة ١٠٩٠ احتل روجر مالطة. وقد كان
هؤلاء النورمنديون الاشداء دولة قوية في القرون الاوسطى، وها هم
الآن تشهد آثارهم في الممالك الحديثة.

وشاهدت صقلية في عهد النورمنديين ظهور ثقافة مزدوجة
اسلامية ونصرانية وسرت الى عموم الجزيرة. وهي حافلة بذكريات
العهد البائد. فصارت الجزيرة مركزا يجري الثقافة الشرقية التي
امتزجت بتراث اليونان والرومان التي ظهرت بشكل خاص
تحت لواء الحكم النورمندي وصبغت ثقافة النورمنديين بميزها

الجامعة . وكان العرب الى هذا متمسكين بجذورهم وخصوصياتهم فلم
يتسع لهم الوقت ليرددوا النصوص التي تروج لهم السير . أما الآن
فقد طفقوا ينفضون عن نواصيهم الخمسة واخرجوا [illegible] قيماً في الفن
والثقافة العربية النورمندية .

ومع أن روجر الاول كان عرابياً غير متثقف فقد جعل معظم
جيش ابنه من المسلمين وشمل العلوم العربية بعطفه فاحاط نفسه
بالفلاسفة الشرقيين و [illegible] والاطباء ، ومنح [illegible] كامل
الحرية في ممارسة طقوسهم ، حتى ان بلاطه في بالرم كان شرقياً
اكثر منه غربياً وبقيت صقلية مدة تزيد على قرن
فريدة من حيث كونها مملكة نصرانية [illegible] بعض
المناصب العليا فيها الى رجال مسلمين .

واقدم وثيقة مكتوبة على الورق في اوروبا هي التي تحمل امراً
دارياً اصدرته باللغة اليونانية والعربية زوج روجر الاول وذلك
في الراجح سنة ١١٠٩ . والمظنون ان هذه الوثيقة كانت على
ورق استورده عرب صقلية من الشرق

وكان روجر الاول [illegible] العربية من ملوك صقلية .
وتلاه في [illegible] ابنه روجر الثاني (١١٣٠ – ١١٥٤) . ثم
فردريك الثاني . اما روجر الثاني فارتدى الملابس الاسلامية حتى
[illegible] ، وكانت [illegible] تزدان بالحروف
العربية . وفي ولاية حفيده وليم الثاني (١١٦٦ – ١١٨٩) شاهد
ابن جبير [illegible] في [illegible] المسلمات .

وكان الادريسي وهو اشهر عالم في الجغرافية ورسم الخرائط في

العصور الوسطى ألمع شخصية ازدهرت في بلاط روجر الثاني . ولد
ابو عبدالله محمد بن محمد الادريسي سنة ١١٠٠ من ابوين عربيين
اندلسيين وتوفي سنة ١١٦٦ . وكتب مؤلفه في بلرم حيث
وقف حياته على الابحاث الادبية برعاية روجر الذي
رسالته : كتاب روجر ، الموسوعة . نزهة المشتاق في اختراق
الآفاق . فلا تقتصر اهميتها على فحص موضوعات الرئيسة حتى
تعتبر من الكتب السابقة كمؤلفات بطليموس والمسعودي بل
فاقت في اعتمادها الاول على غيرها مسافرين بعثهم الملك روجر . وكان
قد أوفدهم في رحلات منظمة لكي يأتوه بالمعلومات والملاحظات .
وقد أظهر الادريسي في عرضه هذه المواد وتحري حقائقها رجاحة
عقل كبرى ، وفهماً لدقائق الامور كادراكه كروية الارض ،
وهو الذي عيّن منبع نهر النيل في نجاد افريقيا الاستوائية على
الرغم من العرف الشائع بان اكتشاف منبع هذا النهر لم يتم الا في
اواسط القرن التاسع عشر . وفضلا عن هذا المؤلف الضخم فان
الادريسي صنع لروجر بعض الاسطرلابات وكرة سماوية وخريطة للعالم
في شكل قرص ، وكلها من الفضة .

كان روجر الثاني احد سلطاني صقلية العظيمين . اما
السلطان الآخر فهو حفيده فردريك الثاني الذي بسط حكمه على
صقلية والمانيا . وعلاوة على تتويجه بعد سنة ١٢٢٠ لقب
لامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ، فقد اصبح ملك
بيت المقدس بفضل زواجه من وارثة العهد ايزابل البرينية
Isabelle of Brienne . وإذاً فقد كان الامبراطور فردريك اعظم

صفحة مدنية في العالم المسيحي لذلك العهد . وبعد زواجه بثلاث
سنوات قام بحملة صليبية غير ذات شأن وقد ازداد تأثره بالافكار
الاسلامية .

وكان فردريك في عاداته الشخصية وحياته الرسمية شبه شرقي
حتى انه اقام لنفسه شبه حريم شرقي . وبرز في بلاطه فلاسفة من
سورية وبغداد ذوو لحى مسترسلة وملابس فضفاضة وقيان وراقصات
شرقيات وجنود شرقيون وعبيد سود . وقد اظهر اهتماماً خاصاً بالعلم
الاسلامي تجلى في علاقاته السياسية والتجارية الحسنة التي كانت مع سلطان
مصر الايوبي . واستدعى اخصائيين من مصر لاجراء التجارب في
تفقيس البيض وتحضينه بحرارة الشمس . واحضر من سورية رجالاً
ذوي كفاءة وبراعة في ترويض البزاة ، وكان يراقبهم في تدريب
هذه الطيور التي كانت تجرى التجارب عليها بتخييط عيونها ويطلقها
ليتحقق فيما اذا كانت تهتدي الى صيدها بواسطة حاسة الشم . وعهد
الى ترجمانه ومنجمه ثيودور ، وهو نصراني يعقوبي من
انطاكية بنقل رسالة عربية في موضوع البزاة . وعهد بترجمة ،
وترجمة اخرى من الفارسية ، ومن المحتمل ان الكتاب الذي وضعه
فردريك في ترويض البزاة والصيد ، وهو اول مصنف في التاريخ
الطبيعي . وكان قد سبق ثيودور في خدمة الملك المنجم ميخائيل
سكوت الذي تتلمذ على العلوم الاسلامية في صقلية واسبانيا من
سنة ١٢٢٠ – ١٢٣٦ ، وقدم ميخائيل سكوت للامبراطور
عن طريق الترجمة من العربية الى اللاتينية موجزاً يتضمن خلاصة
مؤلفات ارسطو في البيولوجيا وعلم الحيوان مع شرح ابن سينا

فقدّمه الى ولي نعمته. فهذه الروح التي تكاد تكون حديثة – روح
التنقيب والبحث والاختبار التجريبي التي امتاز بها بلاط فردريك –
كانت فاتحة عصر النهضة لعقلية الايطالية .

اما أعظم مآثر فردريك فتأسيس جامعة نابل في سنة ١٢٢٤
وهي اول جامعة في اوربا تأسست ببراءة رسمية . وقد اودع
فردريك هذه الجامعة مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية . وأمر
بترجمة مصنفات ارسطو وابن رشد فأصبحت كتباً تدرس فيها .
وقد أرسلت نسخ من هذه الترجمات الى جامعتي باريس وبولونيا
Bologna . وكان في عداد تلامذة جامعة نابل توماس الأكويني
احد اعلام الفلسفة المسيحية المدرسية (سكولاستيك) . وفي القرن
الرابع عشر والقرون اللاحقة غدت الدراسات العربية جزءاً من
مناهج عدة جامعات في اوربا ومنها جامعتا اكسفورد وباريس .
وكان الباعث على ذلك اختلافه عما كان عليه سابقاً والسعي الى ان
يكون إعداد المرسلين المسيحيين في البلدان الاسلامية .

وكانت صقلية نقطة تلاقي ثقافتين مختلفتين . ولقد توفرت
فيها الأسباب لتكون واسطة لنقل علوم العصور القديمة والعصور
الوسطى . وكان سكانها يتألفون من عنصرين : عنصر يوناني يتكلم
اليونانية وآخر اسلامي يتكلم العربية وفئة ثالثة من العلماء يحسن
افرادها اللاتينية . فدرجت هذه اللغات الثلاث على ألسنة القوم في
المجالس العامة والخاصة واستخدمت في السجلات الرسمية وفي
إصدار البراءات الملكية .

ولما كان الملوك النورمنديون وحفدتهم يحكمون علاوة على

جزيرة صقلية وإيطاليا الجنوبية فقد أمكنهم أن يكونوا جسراً
تعبر عليه شتى عناصر الثقافة الإسلامية إلى شبه الجزيرة الإيطالية
وأوربا الوسطى . وحوالي منتصف القرن العاشر بدأت آثار العلوم
العربية تظهر في غرب أوربا . أما أثر [illegible] في الآخرة فقد تكون
غير متفقة وأصلها من مصدر عربي معين ولكنه لا ريب في أنها
شرقية الأصل استمدها [illegible] شعر من أدب أوربا [illegible] منذ
العهد . وهذه المؤثرات شرقية لم تتعرف إلى العرب بواسطة
مجرد [illegible] ظاهرة في ميدان [illegible] ظهورها في مصر والأندلس
ولفنون الصناع [illegible] وحذاق [illegible] يزدهرون في صقلية وجنوبي
إيطاليا لأمد طويل بعد خضوع صقلية والقسم الجنوبي من شبه
الجزيرة للحكم المسيحي . تشهد بذلك أنواع [illegible] والنقوش في
كنيسة [illegible] شهير [illegible]
[illegible] في مصر [illegible]
الرسمية [illegible] على [illegible]
الشرقية [illegible]
[illegible] لم تكن في حوزته رداء شرقي واحد على الأقل

وفي خلال القرن الخامس عشر عندما كانت البندقية (فينيس)
المسيطرة على الأسواق الشرقية وتعمل على نشرها ، اكتسبت الكتب
المجلدة في المصانع الإيطالية حلة شرقية وظهرت الكتب [illegible]
حاملة خصائص التجليد العربي ومن أهمها زخرفة الجلد [illegible] على
[illegible] وفي الوقت [illegible] نقل [illegible] عدة مدن
إيطالية ، عن الصناع الشرقيين ، طرقاً جديدة في زخرفة [illegible]



صقلية وايطاليا الجنوبية من القرن العاشر الى القرن الحادي عشر

عن كتاب « الاحتلال الاسلامي » [illegible] الطبعة [illegible] ص ٨٧

للكتاب وترتيب دواوينه . زد على ذلك ان صقلية أصبحت موطن صناعة عربية أخرى فنية على ترصيع النحاس الاصفر بالذهب أو الفضة أو النحاس الاحمر . وعلى الجملة فقد بقيت صقلية من حيث نقلها للثقافة الاسلامية جديرة بأن تحتل دون ارتياب أهمية تفوق سورية شأناً في زمن الحروب الصليبية

وفي الوقت الذي كان يقضى فيه على آخر السلطة الاسلامية في الاندلس كانت الخلافة في بغداد قد فقدت أعصابها الاخيرة بداعي الفتن الدموية والدسائس في الدولة . وظهور الدولة الطولونية في قلب الخلافة الاسلامية خلال القرن التاسع وخروج على ما تسبب هذه الخلافة من الكوارث وعلى نسبيه ونفوذ . ولقد كانت الدولة الطولونية أكبر شكل مستقل فيها بعد العصر التركي الذي لم يكن له من قبل أثر محسوس . ومن ثم ان أعقب هذه الدولة دويلات تركية أخرى ذات شأن ومدى . ومنذ احمد بن طولون الذي استولى على السلطة سنة ٨٦٨ بدأ يشتد الكثيرون ممن شدوا على أقاصي الخلافة استطاعة دويلات تنفصل عن الخلافة انفصالاً تاماً أو عرفت بإقرار الخليفة فقط . وسيرة احمد تعرض على مقدار الاستقلال الذي تمكن قواد الطولونيون من الاستئثار به عند اعتمادهم على الجيش وافرادهم بالسلطة بسبب على حساب الحكومة المركزية التي كانت تعتمد وضعف تمسكهم وبعد القصور دون ادارتها بقدرة وكفاءة . الا ان الدولة الطولونية ومن عقبها من دويلات لم تكن ترتكز على أسس قومية في البلاد التي تولتها ولذلك لم تعش طويلا . وكان مصدر الضعف فيها عدم وجود

حرية كبيرة في البلاد من العنصر الحاكم نفسه للدولة . والحكام انفسهم اذن كانوا غرباء معظمهم انتصروا بحرس او جيش مأمور امراؤه دخلاء على البلاد على ان معظمها كانت لا تدوم ، ولا تقوم القائمين بها من ذوي الشخصيات البارزة والمواهب الفائقة . حتى اذا ما فقدت همة منشئ الدولة او اميرها اعتور الانحلال جسم الدولة كلها . فلا عجب اذا كانت الدولة التي شيدها ابن طولون رجعت الى حوزة العباسيين في ولاية شيبان (٩٠٤ – ٩٠٥) ابنه ورابع خلفائه .

ثم الدولة الوحيدة التي دامت مدة وعرفت نوعاً من الاستقرار وسطرت صفحة رائعة في التاريخ فكانت دولة الخلافة الفاطمية . وهي الخلافة الشيعية الرئيسة الوحيدة في الاسلام . وقامت هذه الخلافة في تونس سنة ٩٠٩ متحدية الزعامة الاسلامية التي مثلها خلفاء بغداد العباسيون . ثم تم الامر حتى انتشر لواء هذه الدولة على سائر افريقية الشمالية ومصر . وفي عهدهم بلغت القاهرة من الازدهار والعز شأواً بعيداً . ولكن دولة الفاطميين ، على الرغم من هذا السؤدد الذي تمتعت به ، لم تدم مدة اطول . اذ احدثت الدسائس المألوفة بعض ... وخلق الفساد تصدعاً من كل جانب . زد على ذلك تعثر احوال عامة الشعب الذي كان يعتمد في قوته على فيضان النيل ، وما اصابه من المجاعات والاوبئة وما فرض عليه من الضرائب الباهظة التي تتعب كاهله . الا ان هذه الامور انتهت بظهور صلاح الدين في عهد العباسيين وخلعه آخر خلفاء الفاطميين سنة ١١٧١ وبعد احتلاله البلاد جميعها ، من الناحية السياسية ، فجر عصر

[illegible] في [illegible] التي [illegible]

[illegible] في [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] وكان [illegible]

[illegible] ولا

الخدمة تلك في [illegible] عشرين ألف [illegible]

وتتألف من [illegible] وفي [illegible] من ذلك من الحوانيت

يؤجر أحدهم [illegible] والعشرة في الشهر وكانت شوارع

الرئيسية مسقوفة ومصابيح [illegible] . وكانت لأصحاب الحوانيت

أسعار محدودة للبيع [illegible] من أحدهم غش في [illegible]

الشهير ، كي أركب على حمار وطيف به في سوق المدينة على

صوت الأجراس [illegible] على [illegible] وحتى [illegible]

والصراف كان يترك [illegible] غير مقفلة . وكان في الفسطاط

القديمة سبعة جوامع وفي القاهرة ثمانية . وتمتعت البلاد كلها بقسط

من الأمن لا [illegible] من [illegible]

يقول : « لم استطع حصر ثروتي ولا قدرها ولم يسبق لي رؤية تلك النعمة في بلد آخر » .

وبينما كان الفاطميون يحكمون مصر وافريقيا الشمالية كان الانحلال يدب بسرعة في قلب الامبراطورية الشاسعة في بغداد . في هذه الظروف قامت دولة السلاجقة الترك فمنحت الخلافة دفعة رائعة من النمو والسمو في الشرق الاسلامي . وولي طغرل بك [illegible] الحكم في عاصمة الخلافة سنة ١٠٣٧ وحشدت قوة جيش السلاجقة بما انضم اليه من قبائل الترك الشجعة فوسعوا فتوحاتهم في جميع النواحي حتى غدت الامبراطورية مملكة اسلامية موحدة . وبعثت السلطة الاسلامية بعد انحلالها وعاد الى الاسلام مجده . وبذلك بدأ عصراً جديداً من ايام الوحدة بعد الفوضى الجامحة فشهد [illegible] الاسلام في [illegible] الى [illegible] والواقع ان هؤلاء السلاجقة لكنهم [illegible] المؤمنين من امة محمد ثم اعتنقوا الاسلام [illegible] [illegible] في تاريخ هذا الدين . وقد سلك مسلكهم اقوام اخرى منهم ابناء عمهم المغول في القرن الثالث عشر ودور ورثهم الترك من آل عثمان في مطلع القرن الرابع عشر . وهكذا كان [illegible] للاسلام في اشد [illegible] من محن في خطيرة ما يساعده على تحقيق اهدافه ومتابعة انتصاراته .

واخيرا حدثت [illegible] التي [illegible] الاسلام مجموعه وذلك عندما ظهر في سنة ١٢١٦ جنكيزخان على رأس جيش جرار مؤلف من مئتي الف من اقوام المغول المتوحشة على خيول سريعة [illegible] [illegible] من [illegible] لا تشكل . واجتاح البلاد والقى الرعب في

للنهب وأمعن في التخريب والتدمير الجائحين . وقد اختفت امام
هجمات المغول معالم الثقافة في عواصم الاسلام الشرقية فسحب
الدمار التي ذهب بقصورها الفخمة وخزائن كتبها فغدت قصصاً وقفراً
خاوية لا حياة للعلم فيها . وجرت الدماء على طول الطرق التي
سلكتها عساكرهم تاركة اثراً لا يمحى . فهذه مدينة هراة كان سكانها
مئة الف لم يبق منهم الا اربعون نفساً . وهذه مساجد بخارى المشهورة
باتت لا فقهاء ولا علماء ، جعلت اصطبلات لجميع احصنة الخيول
المغول . وكثيرون من سكان سمرقند وبلخ استبيحت دماؤهم او
وقعوا في الاسر . اما خوارزم فخربت واصبحت اثراً بعد عين .
وفي رواية متأخرة ان جنكيزخان لدى فتحه بخارى وصف نفسه
في خطبة له ألقاها بانه آفة من الله أرسلت الى الناس قصاصاً على
معاصيهم . . وهكذا اصبح هذا القائد المغولي العـــــدو الاسلامي
ووضع الاساس لأكبر امبراطورية شهدتها المعمورة في النصف
الاول من القرن الثالث عشر اذ كانت تمتد من بحر الصين
والادرياتيك ، واكتسح جندها بعض انحاء اوروبا الوسطى وروسيا
حتى شرقي بروسيا . ولو لم تفاجئ ابن جنكيزخان وفاته سنة
١٢٤١ لما نجت اوروبا الغربية من هذه الغارات المغولية .

وفي سنة ١٢٥٣ غادر هولاكو حفيد جنكيزخان بلاد المغول
على رأس جيش جرار عازماً على ابادة الخلافة . فكانت موجة
مغولية ثانية اكتسحت في طريقها كل الامارات التي كان يسعى
اصحابها في توطيد ملكهم على انقاض الامبراطورية . وفي كانون
الثاني من سنة ١٢٥٦ هجم هولاكو اسوار بغداد واعمل المنجنيق

حتف . ومن أشنع وحشيتهم انهم فتحوا ثغرة في احد ابراجها فخرج الوزير
ابن العلقمي ومعه جاثليق النساطرة . وقد كانت لهولاكو زوجة
نصرانية تعطف على المسيحيين . الا ان هولاكو رفض مقابلتهما ولم
يصغ الى كلامهما لقد نسبت الى الخليفة كلمات من بعض الذين يتحرزون
على قهر مدينة السلام او سنين من حكمه في العباسيين وانه ومتى
قتل الخليفة احتلّ نظام العالم واختفت الشمس وامتنع القطر
والنبات . فلم يعبأ هولاكو بشيء من هذا الا ان احدث مذبحة
مخيفة فلم يكن اليوم العاشر من شباط حتى اقتحمت عساكره
المدينة فخرج الخليفة وثلاثة من حاشيته خاضعين مستسلمين دون قيد
او شرط فامر الفاتح بقتلهم بعد عشرة ايام . واخذ جنده النهب
والسبي والقتل في المدينة حتى محوا سواد سكانها وفيهم اسرة الخليفة .
وقد قتل هولاكو من كبار رجال الخليفة العديد واشلاء القتلى
المطروحة في الشوارع ما اضطر هولاكو ان ينقلع عن المدينة
اياماً وان يقيم عسكره على ابواب بغداد واحرقت مساجد فاقام بعض
منها خربت امكنة في امكنة اخرى . لكنه عفا عن جاثليق النساطرة
معاملة طيبة وابقى على بعض المدارس والمساجد ورمم بعض الآخر
مما تهدم . ولاول مرة في تاريخ الاسلام خلا كرسي الخلافة من
خليفة يُدعى له من على المنابر في خطبة الجمعة .

وفي سنة ١٢٦٠ زحف هولاكو الى جبال الشام فتهددها . وبعد
استيلائه على حلب وقتله سيفه في رقاب خمسين الفاً من سكانها
دخل حماة وحارم . ثم اخذ طريقه لحصار دمشق ولكن وفاة اخيه
الخان منكو اضطرته الى الرجوع الى ايران . بعد ان احتشد الذي

تركه وراءه في الشام جيش من احداث الثورة الى ان قضى عليه
في العام نفسه بيبرس قائد المماليك يعمل في خدمة احد سلاطين
مماليك مصر بالقرب من القاهرة ، وقد صار فيما بعد من سلاطين
المماليك اللامعين .

وتوفي هولاكو سنة ١٢٦٥ وكان اول من اتخذ لنفسه لقب
ايل خان اي الخان الصغير . ولم يكد يمضي على دولته نصف قرن
حتى اعتنق جميع الخانات الاسلام دينا للدولة ، فحدثت ثورة
حدثاً ذهبياً في عهدت لا تجوزه حتى ... اللاحقة .

وفي هذا الوقت كان الاسلام معرضا في الجهة الغربية من
البلاد لهجوم آخر حضرت حوادثه صفحة رائعة في تاريخ الامة
ولمع فيه نجم اعظم ابطال الاسلام بلا شبهة الحسين وصلاح الدين

الحروب الصليبية

تمثل الحروب الصليبية فصلاً مستفيضاً من فصول تلك القصة الطويلة في [illegible] بين الشرق والغرب . وهي قصة متصلة منذ حروب طروادة وحروب الفرس واليونان الى عصرنا الحاضر المتميز بالاستعمار الاوربي . ومن وجهة خاصة فقد كانت الحروب الصليبية بمثابة رد فعل ضد الاسلام في العالم المسيحي ، وبمثابة هجوم اوربا المسيحية على آسيا الاسلامية التي كانت اتخذت خطة الهجوم منذ سنة ٦٣٢ م على سوريه وآسيا الصغرى فقضت على اسبانيا وصقلية ايضاً . وللحروب الصليبية اسباب اخرى منها النزعات الحربية والميول القومية في الهجرة التي امتازت بها قبائل التيوتون الذين غيّروا خريطة اوربا مذ تدفقوا على املاك الامبراطورية الرومانية . ومنها هدم كنيسة القيامة بأمر

الحاكم الخليفة الفاطمي سنة ١٠٠٩ وهي مدينة كان يحج اليه الوف
الاوربيين، وكانت هذه الحج قد ازدهرت سنة ١٠٨٠ اي شرفت على
سبيل البركة من حجاج اوروشليم ... على دفع الصعوبات التي
كان يصعب لها ملاحقة السجون في سبيل الحج من المصري أثناء
مرورهم في ... المصري لزيارة بيت المقدس ... ان ... للمشر
على هذه الحروب فكان الاستنجاد الذي ارسله سنة ١٠٩٤ الامبراطور
ألكسيوس كومنينوس الى البابا اوربانوس الثاني عندما اكتسح
السلاجقة ممالك الامبراطور الاسيوية حتى بلغوا مرمرا واحدقت
جيوشهم ببلاد القسطنطينية عينها. وقد ... رأى في ذلك
الاستنجاد فرصة لجعله اصغر الكنيسة البيزنطية الى كنيسة رومة
وكان الانشقاق التام النهائي في الكنيسة المسيحية قد حدث سنة
١٠٥٤

وقد ... الخطبة التي القاها البابا اوربانوس في ٢٦ تشرين الثاني
سنة ١٠٩٥ في كلارمون من اعمال فرنسا الخطبة الشهيرة ...
مستنهضاً بها همم المؤمنين ... لتحرير ... الى كنيسة
القيامة وانتزاعها من ايدي الكفرة الاشرار والاستيلاء عليها ...
هذه الخطبة اشد خطب التاريخ ... وللحال نادى
الشعب ... الحرب صارخين ... ارادة الله ... وترددت كلام هذه
الصيحة وتجاوبت اصداؤها في كل ناحية فتحركت جوامع القلوب
... جميع ... الاوربية حتى استجاب للدعوة الى السلاح نحو
مئة وخمسين الف رجل اكثرهم من الافرنسيين الذين كانوا يدعون
فرنك Francs اي فرنجة وهو الاسم الذي اطلق فيما بعد على

العربيين جميعاً وأمور معدتهم. واحتشد هذا الجيش في القسطنطينية وبذلك بدأت الحملة الصليبية الأولى. وقد وصفت بهذا الوصف اشارة الى الصليب الذي حمله اعضاؤها علامة على صدورهم.

وجدير بالذكر انه ليس كل من اشترك في هذه الحملات كان مدفوعاً بالعاطفة الدينية. فعدد من الامراء ومنهم بوهيمند مثلاً كان هدفهم الرئيسي اقتطاع اراضٍ جديدة يقيمون عليها أعلامهم [illegible] بيزا والبندقية وجنوى فكان رائدهم مصالح تجارية. فعوامل هذه الحروب كثيرة تشمل مطامع الامراء و[illegible] شقوة وشداد الارزاق مع امل الغفران. وحتى [illegible] التعبير عن معتقداتهم. والواقع ان اندفاع الاوربيين في فرنسا والمانيا وايطاليا وصقلية نحو الى المشرق لحروب لم يكن كله صحيحاً بل مزيجاً للأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعصف بهذه البلدان.

اما تصنيف هذه الحملات الصليبية الى سبع او تسع، على ما ذهب المؤرخون فمبني على اساس غير دقيق. ذلك لأن مجرى هذه الحملات كان متواصلاً ومن الصعب فصل الواحدة منها عن الاخرى فصلاً واضحاً لا غموض فيه. ومن هنا كان الاصح تقسيم هذه الحروب الى ادوار ثلاثة اولاً دور ظفر الافرنج وقد امتد حتى سنة ١١٤٤. وثانياً دور رد فعل اسلامي انتهى بانتصارات صلاح الدين الباهرة. وثالثاً الحروب الاهلية و[illegible] التي انتهت سنة ١٢٩١ عندما فقد الصليبيون آخر سلطة لهم في بلاد الشام. والدور الاول يقع معظمه قبل بداية ما هو معروف بالحملة الثانية (١١٤٧ – ١١٤٩) في حين انتظم الدور الثالث


السلاجقة
بلاد الروم
قبرص
الرقة
مقاطعة
الاتابكة
تدمر
العريش
الخلافة
الفاطمية
الولايات الصليبية في سورية
حوالى ١١٤٠
المقياس بالأميال

[illegible]

[illegible] ١٢٠٢ – ١٢٠٤ [illegible] على مصر

١٢١٨ – ١٢٢١ [illegible] ١٢٧٠

٥ [illegible]

[illegible]

[illegible] لأوطان

العرب العربي من [illegible]

الترك على [illegible]

[illegible] ١٠٩٩ [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ٧ حزيران

سنة ١٠٩٩ وقف جيش [illegible] من

[illegible] المقدس الذي [illegible]

[illegible] ولا [illegible]

المدينة [illegible] أسوارها كما

سقطت أسوار [illegible] الذي

[illegible] وفي الخامس عشر من

تموز هاجم العدو المدينة [illegible]

دون تمييز حتى شوهدت أكوام الرؤوس والأيدي والأرجل في

شوارع المدينة [illegible] حتى إذا [illegible]

كثيرون من الصليبيين [illegible]

عائدين الى اوطانهم الاوربية .

وبقي القواد بوهيمند Bohemond وبلدوين Baldwin وغودفري Godfrey وتنكرد Tancred تحت رئاسة [illegible] وريموند ده تولوز Raymond ، وهو اعظم شأن [illegible] وممتلكاته لاتينية في سورية . اولها امارة شمالي سورية وعاصمتها انطاكية ، وثانيها في فلسطين وعاصمتها اورشليم وهي التي اصبحت تسمى مملكة ، وثالث في طرابلس على شاطئ الساحل . وقد جرى انشاء غيرها فيما بعد ذلك. غير ان هذه الدويلات [illegible] وحصونات . وليس يرجع في [illegible] تاريخ اوربا لا من تاريخ بلاد العرب . ولكن [illegible] في هذه الحقبة هو علاقات اوربا واسيا [illegible] العرب [illegible] البلاد اوطانهم .

ثم ان الفرنجة في الاراضي المقدسة وهم يحسبون انفسهم ارفع مرتبة من اهل [illegible] ولكنهم ما كادوا يحكمون [illegible] حتى [illegible] عشرة [illegible] عيوبهم . اما الاثر الذي تركه الفرنجة في نفوس المسلمين فقد عبر عنه المؤرخ العربي [illegible] بقوله في كتاب الاعتبار [illegible] فيهم فضيلة الشجاعة [illegible] لا غير » ولكن الاختلاط الذي [illegible] من الجانبين في ايام السلم — وهي اطول من ايام الحرب كثيراً — ادى الى تحول الشعور بين الفريقين [illegible] علاقات الصداقة وحسن الجوار . وصار الفرنجة يستخدمون صناعاً وفلاحين [illegible] شعوبهم [illegible] النظام الاقطاعي الذي [illegible] حال دون

واصبح على مرور الايام ملائماً لاحوال البلاد . واتخذ الفرنجة لانفسهم
الحيوانات العربية والنياق وكلاب الصيد واستعملوا اذ ذاك مع العرب
الحمام [illegible] من الاعداء . كذلك تعلم الفرنجة [illegible]
[illegible] السكر [illegible] فوضعوا بذلك نواة حرفة عرفت في
مراكب . واتبع الفرنجة عن [illegible] الاوربي واستعملوا الادوية
الوطنية التي كانت ادعى الى الراحة واكثر ملاءمة لطبيعة البلاد .
واكتشفوا ادوات جديدة في طعامهم فتذوقوا كثيراً من الاطايب التي يكثر
فيها استعمال السكر والتوابل وتعلموا كيف يصنعون الشراب
التي تتوسطها صحون مكشوفة واسعة من [illegible] . وتزوج
بعضهم بوطنيات ومن هذا الزواج نشأ جيل جديد متوسط بين
الجنسين يشير الى افراده بعبارة بولاني [illegible] وبلغ احدهم
بالفرنجة درجة احترموا معها العادات التي تتبع المسلمين
واليهود . وكان البلاد في بعض خصوصياتها مستمرة في [illegible]
يتحولون بعده [illegible] الذين كانوا يحسبونهم قبلا كفاراً وكذلك
فعل المسلمون ، فكثيراً ما [illegible] الافرنج [illegible] اخوانهم
المسلمين .

وقد احدث حلول الصليبيين لسورية ومعظم القطر المصري
ردّ فعل في العالم الاسلامي شرع به زنكي التركي سلطان الموصل
وخلفه ابنه نور الدين سلطان دمشق ، وبلغ اشده درجته في ايام
الملك الناصر السلطان صلاح الدين يوسف . وولد صلاح الدين في
تكريت على دجلة سنة ١١٣٨ من ابوين كرديين ولا نعلم الا
القليل عن طفولته ودراسته الاولى في سورية . والظاهر ان سورية

وهو [illegible]

حتى سنة ١١٦٤ [illegible] على [illegible]

[illegible] في [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ٦٩ [illegible]

[illegible]

[illegible]

العباسي المستضيء، فامتثلوا لامره.

و [illegible] صلاح الدين [illegible]

حتى اول [illegible] من سنة ١١٨٧ [illegible]

[illegible] جرت معركة حطين. بدأ القتال يوم الجمعة

الذي كان صلاح الدين كثيراً ما يختاره لمعاركه [illegible] يوم [illegible] وشؤم

على الفرنجة. وكان في معسكر الفرنجة نحو عشرين الفاً انهكهم

العطش والحرّ فوقع حدّهم في قبضة جيش صلاح الدين. وكان في

مقدمة الاسرى المشاهير غي دي لوسينيان Guy de Lusignan ملك

اورشليم. فحسن السلطان صلاح الدين [illegible] استقباله.

اما رفيقه الملك رجينالد دي شاتيون Reginald of Chatillon موقف

من الحرب فنال معاملة اخرى. ولعل رجينالد هذا كان اشد زعماء

اللاتين مغامرة واكثرهم تعدياً ونقضاً للعهود و [illegible] باللغة

العربية. وحين كانت الكرك في عهده اوقع مراراً بقوافل الامة

يسلب أمتعة بينما كان أصحابه يجوبون الطرق خلف أسوار
حصنه . كل هذه الأمور أعد خروجاً على شروط العهود والهدنة
وبلغ منه الكيد للمسلمين أن جهز أسطولاً أخذ يعيث في شواطئ
الحجاز فساداً ويلحق الأذى بمواكب الحجاج . وكان صلاح الدين
قد أقسم اليمين أن يقتل بيده هذا الرجل الذي ينكث العهود ولم
يحترم شروط الهدنة . وقد [illegible] ،
ومثل الاثنان أمام السلطان بعد أن شرب الماء في خيمة صلاح الدين وهو
عرف من العادات العربية نجاة من يشرب دون إيقاع الأذى بمن شرب ماء
القوم . وإذ قد شرب الماء دون إذن من صلاح الدين فلم يحظ بأمانه
بل جوزي على غدره بأن ضرب صلاح الدين عنقه وجمع من عنده
من فرسان الداوية Templars والأسبتارية Hospitallers ممن
ثم فقد رمت أعناقهم على مشهد من الناس .

وجرت الانتصارات بعد ذلك متوالية على الفرنجة . وبعد حصار
أسبوع سلمت أورشليم في ٢ تشرين الأول سنة ١١٨٧ وقد [illegible]
في موقعه حتى من يسمع صوت المؤذن من على
المسجد الأقصى عوضاً عن ناقوس النصارى ، وأنزل رجال
صلاح الدين الصليب الذهبي من على قبة الصخرة

وبسقوط عاصمة المملكة اللاتينية دانت لصلاح الدين معظم
المدن الافرنجية في سوريا وفلسطين . وبعد سلسلة حملات بحرية
سقطت أغلب القلاع وكادت هزائم الفرنجة تؤدي الى جلائهم التام
عن البلاد . ولم يبق في حوزتهم إلا أنطاكية وطرابلس وصور
وبعض المدن الصغيرة والقلاع .



المسيحية
الاسلام
الاسلام والمسيحية
في الحروب الصليبية

ولقد استثار سقوط المدينة المقدسة حمية اوربا فسير حكامها حملتهم الصليبية الثالثة ونشط فردريك بربروسا Barbarossa امبراطور المانيا وريتشارد قلب الاسد Richard Coeur de Lion ملك انكلترا وفيليب اوغسطس Philippe Auguste ملك فرنسا الى حرب المسلمين ، وعلى اكتاف هؤلاء الثلاثة وهم اعاظم ملوك اوربا آنئذ وقعت الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ – ١١٩٢) وهي اكبر الحملات عدداً . ولقد وقف هنا العداء الشخصي بين شخصية صلاح الدين وقلب الاسد الانكليزي في الروايات الشرقية والغربية موضع الافراد .

وكان اول من شرع بالسير الى الحرب فردريك الذي سلك طريق البر فغرق وهو يعبر نهراً في كيليكية وتشتت معظم افراد جيشه الى بلادهم ، ورجع من بقي منهم في طريقهم الى عرض فلسطين . وقد قدر لهذه الحروب ان تنحصر في عكا آخر معقل للصليبيين زمناً من البلاد السورية .

وبقي الامل في البلاد المقدسة ان عكا هي الآن المدينة الذي تمكنهم به استرداد ما خسروه من ممتلكاتهم فعملوا على تجميع قواتهم مع من بقي من جيش فردريك وكذلك ملك فرنسا . وتزعم الهجوم الملك غي (Guy) الذي كان صلاح الدين قد اطلق سراحه فلا آخذ عليه العهد بالا يعود لقتال المسلمين ، فحنث به . ووصل صلاح الدين في اليوم التالي لينقذ المدينة . فنصب معسكره قبالة العدو . ونشب القتال براً وبحراً . واستمرت المعركة بقدوم ريتشارد فشددوا واشعلوا نيران الحرب ، وفي اثناء الحصار جرت عدة حوادث نادرة

ووقع دوق ... حواليه ... لاتي معسكرين حسب تشوش صلاح الدين
وقلب الاسد اعداء الداء على اعجاب واحد منهما بالآخر . ولكنهما
لم يجتمعا قط . وكان ريتشرد يكافئ بسخاء كل من يجرح حجراً من
اسوار المدينة فحفز ذلك المحاربين والنساء على الاتيان باعمال باهرة
من البطولة . ودام هذا الحصار الذي يعد من الاعمال الحربية
الباهرة في القرون الوسطى سنتين (٢٧ آب سنة ١١٨٩ – ١٢
تموز سنة ١١٩١) . وبعد ما عاد الفرنجة تفوق اسطولهم وعدد قطعهم
الحديثة . اما المسلمون فانحصرت اهميتهم في توحيد القيادة في
شخص واحد . واخيراً انصرفت حامية عكا الى التسليم

وكانت اهم شروط الصلح تسريح الحامية مقابل مئتي الف دينار
وارجاع المسلمين للصليب المقدس . واذ لم يدفع المال بعد شهر امر
ريتشرد باعدام الاسرى البالغ عددهم زهاء الفين وسبعمائة . وهو عمل
شائن يناقض تماماً معاملة صلاح الدين لأسرى اللاتين عندما احتل
بيت المقدس . فصلاح الدين ايضاً كان قد اشترط ان يفتدي الفرنجة
انفسهم بالمال ولكن عدداً من الفقراء مع ثلاثة الالاف عجز عن
تأدية الفدية المفروضة ، فعفا صلاح الدين عن سبعة آلاف منهم نزولاً
عند رغبة اخيه واطلق سراح فريق آخر منهم اجابة لرجاء
البطريرك . ورأى صلاح الدين ان اخاه والبطريرك قد أخذا
الزكاة بهذه الحسنة شعر انه عليه ان يقوم بقسطه من هذا الواجب
فاطلق سراح الشيوخ وبينهم عدد من النساء والاطفال .

واحتلت عكا بعد سقوط اورشليم مرتبة الزعامة . وقد
نمت وصارت تضج بحركة بين الفرنجة المحاربين دون انقطاع ...

كان ريتشارد كثير الأفكار الخصبة فقد اقترح زواج اخته من الملك العادل اخي صلاح الدين على أن تعطى اورشليم هدية للزوجين فهي بذلك العذراء المستحكم بين النصارى والمسلمين . وفي احد الشعانين ٢٩ آذار سنة ١١٩٢ انعم برتبة الفروسية على الملك الكامل ابن العادل في حفلة شائقة . واخيراً عقد الصلح في ٢ تشرين الثاني سنة ١١٩٢ على ان يكون الساحل للاتين والداخل للمسلمين ولا يتعرض احد لذوي الحجيج الوافدين على بيت المقدس . ولكن صلاح الدين لم يكتب له الا اشهر قليلة يقضيها في ثمرات الصلح . ففي ١٩ شباط من السنة اللاحقة اصابته حمى في دمشق مات بعد اثني عشر يوماً وهو في الخامسة والخمسين من عمره . ولا يزال قبره في العاصمة السورية ، ملاصقاً للجامع الأموي ، محط الزائرين .

ولم يكن صلاح الدين بطلاً وحسب للحرب فقط بل كان مشجعاً للعلم والعلماء ومشجعاً للدراسات الدينية ومصلحاً اجتماعياً واقتصادياً . فقد انشأ المدارس والمساجد وانشأ السدود وحفر الاقنية . ومن آثاره القلعة التي بناها في القاهرة التي اخذ في تشييدها مع اسوار المدينة في سنة ١١٨٣ فاستخدم فيها حجارة من الاهرام الصغرى . وصلاح الدين عند العرب في مصاف هرون الرشيد والمنصور وفي مقدمة من تهواهم مخيلات الشعب عامة وخاصة الى يومنا هذا . اما في اوربا فقد اصبح في ذكراه المشهور في العصور الوسطى وحكم في ذلك الرواة والمؤرخون العصريون . وهو لا يزال يعتبر حتى اليوم مثال الفروسية الكاملة .

واستمرت المفاوضات الحربية بين الفريقين بعد هذا الدور مدة

قرابة نصف قرن لم يستطع خلاله الافرنج امراً سوى المحافظة على مراكزهم . ولولا حوادث الحملة الصليبية السادسة التي تزعمها لويس التاسع لما كان في عهد الدولة ما يستحق الذكر .

وقد احتل هذا الملك المعروف في التاريخ بالقديس لويس مدينة دمياط في مصر سنة ١٢٤٩ ، حتى اذا زحف بجيشه على القاهرة قطع زحفه كثرة المستنقعات وتشعب الاقنية ، وكان النيل في على اوجه ، فتفشى الوباء في الجيش وقطعت عنه الامدادات فهزم واسر الملك لويس ومعظم رجاله . وبعد شهر اطلق سراحهم مقابل ما دفعه من جزية وما رجع به من تسليم دمياط . وقد قاد لويس هذا في سنة ١٢٧٠ حملة صليبية اخرى خاسرة على تونس ، حيث مات . ويعد لويس من اشرف امراء الصليبيين بطهارة سيرته وحسن اخلاقه . قال فيه مؤرخه : « انه كان كلما كان غدوة عن صلاة ، وكان قصده الاسمى العمل بمشيئة الله »

وجاءت دولة المماليك ، فكان رابع امرائها الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ – ١٢٧٧) اول السلاطين الذين انزلوا بالصليبيين الضربات الاخيرة القاصمة . ففي سنة ١٢٦٣ احتل الكرك وهدم كنيسة الناصرة ، ثم غزا قيسارية ويافا واخذ كنه على ارسوف في وجه هجماته العنيفة ، فاضطرت الى التسليم . وفي سنة ١٢٦٨ اعدم حامية انطاكية التي كان يبلغ عددها ستة عشر الفاً وسبى من رجالها ونسائها واطفالها نحو مئة الف باعهم في الاسواق ، فكان ثمن الصبي يومئذ اثني عشر درهماً وثمن الطفلة خمسة دراهم ولما جرى تقسيم الغنائم كانت الأموال تكال كيلاً . ولم يستطع

انطاكية لبيبرس بعد عهد سكانها الى يوسف الخاص . وفي سنة ١٢٧١ انتزع بيبرس حصن الأكراد من ايدي الفرسان . امـا المرقب بجوار طرطوس فانتزعه سنة ١٢٨٥ خليفته قلاوون الذي استولى على طرابلس بعد ذلك باربعة اعوام .

وهكذا لم يبق من مراكز الفرنجة الهامة إلا عكا والغد جرى حصارها في عهد ابنه الاشرف خليفة قلاوون . وبعد حصار دام شهراً واستخدام نحو ستين منجنيقاً فتحها المسلمون في ايار ١٢٩١ واعملوا السيف في رقاب حاميتها من الفرسان الداوية فقتلوهم جميعاً . وهكذا سقط آخر حصن منيع للاتين في الشرق. وفي السنة نفسها استولى المسلمون على صور وصيدا وبيروت وطرطوس. وكذلك اسدل الستار على اروع فصول الحرب في تاريخ سورية المتوسط

والحق انّ الحروب الصليبية حوت عدة الحوادث الباهرة والوقائع النادرة غير ان الربح الذي وقع فيه ، لا سيما في الغرب وهو ربح محصور في الفنّ والصناعة والتجارة دون العلم والأدب . اما في سورية فقد تركت هذه الحروب معها الدمار والخراب . وما ورثه الشرق الادنى عن تلك الحروب ذكريات التعصّب الذي [illegible] بين المسلمين والنصارى .

كانت الثقافة الاسلامية في الشرق عهد الصليبيين [illegible] متداعية وكان من اعلامها في الفلسفة والطب والموسيقى وسواها من العلوم والفنون نحو [illegible] ومن هنا كانت سورية التي تحركت العلاقات فيها بين الاسلام والنصرانية العربية طيلة القرن

الثاني عشر والثالث عشر اقلّ اهمية من اسبانيا او شمالي افريقية ،
ولن اقلّ اهمية من الامبراطورية البيزنطية من حيث نقل المؤثرات
العربية الى الغرب . ومع ان الاسلام اثّر في الحضارة الاوروبية
عن طريق الاحتلال بصورة وعن طريق الاصطدام المباشر
بالصليبيين وما احدثه هذا الاصطدام من تجارب في الغرب فان
آثاره الروحية والفكرية لم تكن محسوسة . ومن جهة اخرى فانه
علينا ان نذكر ان الفرنجة في سورية ، فضلاً عن كونهم تدعمهم دولة
تقاوم اعداءهم ، فقد كانوا في الغرب جماعات عسكرية اجنبية تنزل
في قلاع وثكنات وتعتمد في حياتها على عدة نفر من الفلاحين
والصناع ، دون اتصال بالطبقة المفكرة . زد على ذلك ان النعرات
القومية والعصبيات الدينية والعداوات المستحكمة حالت دون تبادل
الافكار والثقافات . ولم تكن عند الفرنجة من العلم والفلسفة ما
يلقّنونه ابناء البلاد . اما الثقافة التي انتقلت عن طريق الصليبيين فمثالها
النوادر الطريفة التي رواها أسامة الذي هو احد من طرق معالجة
بقصّابة اذ اعتمدوا في علاجاتهم على البتر والرمي في الماء .

وبعد القرن الثاني عشر بدأت تنشأ في جميع انحاء اوربة دور
المرضى والمستشفيات واهمها تلك التي تعنى بالبرص . وهذا يبرر لنا
الافتراض ان طريقة التداوي المتبعة استمدت جذورها من الشرق
الاسلامي . وان الشرق ايضاً يعود الفضل في ارجاع الحمامات العمومية
الى اوربة . وكانت رائجة عند الرومان الا ان المسيحية لم تحبذها .

اما في الآداب فقد كان الاثر اوسع مدى . ففي الاقاصيص
المنسوجة حول قصة الكأس المقدسة التي استعملها المسيح في عشائه

الاخير عشر لا ريب في انه سوري الاصل . وليس من شك في ان
الصليبيين حملوا قصصاً «كليلة ودمنة» و«الف ليلة وليلة»
محفوظة الى اوطانهم . وفي حكايات الشاعر الانكليزي تشوسر
Chaucer قصة من «الف ليلة وليلة» . ومن اصحاب [illegible]
اسمه بوكاشيو Boccaccio الايطالي حكايات شرقية ادخلها في كتابه
«دكاميرون» Decameron . ويمكن ان ننسب الى الصليبيين
الفضل في اقبال الارساليات التبشيرية الاوربية على دراسة اللغة
العربية وسواها من اللغات الاسلامية .

اما في ميدان الحرب فكان من الطبيعي ان يكون التأثير اكثر
ظهوراً . فتعلم الغربيون القوس الثقال والدروع بسبب الفرسان والخيل
واستخدام الوسائد المحشوة تحت الدروع كلها من اصل شرقي .
وفي سورية ادخل الفرنجة في جيوشهم الموسيقى العسكرية للطبول
والطبل ولم يكونوا يستعملون من الا البوق والنفير . وتعلموا من
اهل البلاد استخدام حمام الزاجل لحمل المخابرات الحربية وتعلموا
منهم عادة الاحتفال بالظفر باشعال الانوار واجراء مباريات الخيل
ولعب الجريد . والمقرر ان جانباً كبيراً من مبادئ الفروسية
نشأ في ميدان سورية . اما انتشار علامات النسب على الاسلحة
وشارات الفرسان فمحققة عن الاحتكاك بالفرسان المسلمين .

وقد انعشت هذه الحروب ايضاً فن الحصار وحسنته فشمل
امر الهدم والنقب واستخدام المجانيق والكبوش [1] والمواد الحارقة

---

(1) جمع كبش (رمح بخيط محدد) : آلة من آلات الحرب كانت تدفع
على جدران الحصون .

للأسلحة والقذائف. والظاهر ان البارود جرى اختراعه في سورية او اوربة اللاتينية، والرأي الاخير ارجح، وذلك حوالى آخر هذه الحقبة. اما دعوى الصينيين انهم اخترعوه فلا تؤيده المكتشفات. ولكن لا شبهة في قوة البارود الانفجارية لرمي القذائف اي اختراع الاسلحة النارية، وهي خطوة اشد خطورة، فامر لم يحدث قبل الربع الثاني من القرن الرابع عشر. ونجد اول صفة اوربية لتركيب البارود في ذيل كتاب وضعه في اللاتينية نحو سنة ١٣٠٠ رجل اسمه مارك اليوناني.

اما في الزراعة والصناعة والتجارة فمدين الغربيون الى سابق اعظم من مدة التي امضوها في الشرق. والى هنا يرجع انتشار نباتات جديدة في بلدان البحر المتوسط الغربية مثل السمسم والخروب والدخن(١) والارز والليمون والبطيخ والمشمش والبصل عسقلان. وهذه النباتات تحمل اسماء اوربية محرفة عن اسماء شرقية. اما المشمش فكان يعرف في سورية بخوخ دمشق.

واكتسب الفرنجة بنتيجة اقامتهم في بلاد الشرق اذواقاً جديدة وبخاصة ما يتعلق منها بالروائح العطرية والتوابل والحلويات وسواها من محصولات المناطق الحارة التي تعرضت بلاد العرب والهند والتي كانت اسواق سورية زاخرة بها. ثم ان هذه الاسواق الجديدة ادت الى انعاش التجارة في المدن الايطالية وسواحل البحر المتوسط. فشهرت انواع البخور وسواها من مجموع الذخيرة العربية الزكية الرائحة ومنه الورد الدمشقي والروائح العطرية التي استعرت بـ

(١) الدخن (بالضم) حب صغير أملس جدا كحب السمسم.

دمشق وغيرها من الزيوت والعطور الفواحة المشهورة في فارس ،
ومن العقاقير الخدمية التي تعرفوا بسبب خمر الشب والند . ثم ان
انواع كثيرة القرعي والتوابل المركبة والمسك والشراب وغيرها
كل ذلك درج استعمالها في الغرب خلال القرن الثاني عشر ومن
ذلك الوقت الى اليوم ولو ان البعض لا يستعمل على مائدته دون ان
يدخل بعضها التوابل . وفي مصر عرف الصليبيون الخشخاش واخذوا
يجعلونه من الوان طعامهم . واهم من ذلك كله السكر ، فقد كان
الاوربيون لا يعرفونه من قبل وكانوا يستعملون العسل لتحلية
اطعمتهم فعلى اثر عودتهم حيث ترى الاوربي في هذا اليوم
عندما وصل السكر عرف الاوربيون هذا النبات الذي احدث منذ
ذلك الحين دورا هاما في الحياة الاقتصادية وفي تركيب
الصناعات عينه . وكان السكر اول مادة للتجارة التي ادخلت
الى الغرب ولم يستعد فيه اخرى تستعمله الاوربية
ومع السكر دخلت الاشربة غير الكحولية الذي يخلط فيه
بواسطة التقطير خلاصة الورد والبنفسج وسواها من الزهور
وكذلك دخلت شتى انواع الخضروات الدمشقية الموصلية والدمشقية
والاقمشة وغيرها من الانواع من الشرق العربي كما هي
اسماؤها في اللغات الاوربية محرفة عن العربية

وكان ظهور الاسواق الجديدة في اوربا مسبب الزراعة
والصناعة الشرقية كما كانت الحركة التي اقتضتها ضرورة حمل
الحجاج والصليبيين وامدادهم قد ادت الى توسيع طرق الحركة
البحرية والتجارة العالمية الى درجة لم تكن معروفة منذ ايام الرومان

وغدت مرسيليا تزاحم الجمهوريات المستقلة من مدن ايطاليا ،
واصبحت مركزاً للشحن البضائع الى جنوى وبيزا والبندقية
الثروة الناتجة عن ذلك . وبفضل هذا الوضع الجديد كثرت اكثر
من النقد فجرى سكه وزاد تداوله . وتولد عن ذلك ابتداع
الحوالات المالية واستعمالها فظهرت شركات الصيرفة في جنوى
وبيزا مع فروع لها في الشرق . وصارت الفرسان الداوية تستعمل
كتب الشيوخ المالية وتستلم الاموال كودائع لاصحابها وتسلمها
لهم بعد مدة . وكانت البوصلة ابرة الملاحين من اهم الاختراعات
ذات العلاقة بهذه الحركة التجارية البحرية . والراجح ان الصينيين
هم اول من اكتشف ان الابرة الممغنطة من طبيعتها الاتجاه الى
جهة معينة . ولكن الصينيين الذين كان لهم في عصرهم تجارة
نشيطة مع سواحل الخليج الفارسي وبحر الشرق الاقصى كانوا اول من
اخرج هذا الاكتشاف في حيز العمل اذ استعملوا الابرة في
الملاحة . وعن طريقهم تعرف العرب الى هذا الاكتشاف .

في خلال هذه الحقبة كانت الامبراطورية العربية في تقلص دائم
وكان العقل الاسلامي يرتد تدريجياً امام الاوربي فكان ينفتح عقله
على آفاق جديدة وتتسع شخصيته وامكاناته من عمران منبسط
الارجاء . ولكن قبل ان نقضي على هذه الامبراطورية العربية
تكاملت فيها دولة جديدة تحاول بعثها ، أعني دولة المماليك السورية
المصرية التي سنتكلم عنها في الفصل التالي .

دولة المماليك

دولة المماليك هي آخر دول العصر العربي في العصور الوسطى وأشدها غرابة . وقد عقبت الدولة الأيوبية (١١٧١ - ١٢٥٠) المنسوبة الى صلاح الدين وتألفت من أسرتين البحرية أو التركية (١٢٥٠ - ١٣٨٢) والبرجية أو الجركسية (١٣٨٢ - ١٥١٧) ومن الصعب على دارس التاريخ أن يعثر في عصر الاسلام مكانة تشبه دولة كدولة المماليك وبجمعها ما جمعته من عز وفلاح . فالمماليك كانوا كما يدل اسمهم أرقاء من مختلف الاجناس والعناصر شكلوا حكومات عسكرية في بلاد هم غرباء عنها . فحكمهم كان نتيجة طبيعية لفساد الحياة الاجتماعية العربية خلال قرون عدة . ولهذه الدولة ميزة تامة بحجة عما حققته بنفسها من الاعمال الباهرة . ومن هنا كان هؤلاء السلاطين المماليك يستحقون صفحة مشرقة في آخر

فهم سلاطين المماليك في خلال عهد الصدمات التي تمكنهم
السورية المصرية . ووقفوا وقفة صامدة في وجه جيوش هولاكو
وتيمور المرعبة التي كانت حقيقة . ولولاهم لكان تغيّر مجرى التاريخ
والثقافة في آسيا الغربية ومصر . ولو حدث ذلك لتعرّضت مصر
للدمار الذي نزل بسورية والعراق . فتمتعت بثقافة موحدة
واحتفظت بها مستمرة . ولم تتوفر لأي بلاد إسلامية أخرى خارج
الجزيرة العربية . فطوال مدة قرنين وثلاثة أرباع القرن
(١٢٥٠ — ١٥١٧) سيطر المماليك على بقعة من بقاع الأرض
اضطراباً محافظين أبداً على مراتبهم الحاكمة الموحدة . ومع أنهم
كانوا على وجه العموم عديمي الثقافة متعطشين للدماء فإن تذوقهم للفن
ومهارتهم الفنية على حد سواء أهم دولة مستقلة جعلت من القاهرة من
أجمل المدن في العالم الإسلامي . وأخيراً جاء السلطان سليم العثماني
فقضى على أمرهم في سنة ١٥١٧ . وبذلك زالت آخر الدويلات التي
نشأت على أنقاض الخلافة العربية وتمهّد السبيل لقيام خلافة
جديدة غير عربية هي خلافة الترك العثمانيين .

وليس من شك في أن أعظم سلاطين دولة المماليك ومؤسسها
الحقيقيّ هو رابعهم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس (١٢٦٠ —
١٢٧٧) وهو في الأصل رقيق تركيّ . وكان بيبرس رجلاً طويل
القامة أسمر اللون جهوري الصوت شجاعاً نشيطاً ذا صفات
الزعامة . بدأ في خدمة الدولة الأيوبية التي اتبعت سنة خلفاء
بغداد في إدخال الأتراك الأجانب في الحرس والجيش . فما عتم

هؤلاء الأحباش والأرقاء الذين وفقوا بذكائهم في المقدرة والإقدام أن أصبحوا كما كان زملاؤهم من قبل في بغداد – أمراء الجيش ومن ثم سلاطين الأمة . ومن هؤلاء بيبرس الذي ابتاعه السلطان الصالح الأيوبي أولاً بقيادة فصيلة من حرسه الخاص ولم يلبث أن ترقى بالعنف والبطش وإهراق الدماء الى أسمى منصب في البلاد ولكن مكانته في دولة المماليك ووراثته كانت من حق الأقوى، وقد ظل الأقوياء فيها بضعة قرون من ذوي الأصل ومن درجة الأرقاء .

وقد اشترك بيبرس في هذه الأمور بكل الفخر، ولكن أشهر يوم انتصاره على جيش هولاكو في عين جالوت بفلسطين عام ١٢٦٠ . على أن شهرته تقوم في الأكثر على حملات الهدم التي جردها على الصليبيين ، بعد الحملات التي قصمت بها ظهر مقاومة الفرنجية . وفي أثناء ذلك توالت عشر سنوات حكمه على العرش وحروب على النوبة التي استقرت منذ الآن بحكم السلطان المصري .

ولم يكن بيبرس رجل حرب فقط ، ولكن كان مصلحاً مدنياً في تنظيم الجيش وتعمير الأسطول وتحصين قلاع سورية . ثم حفر وربط الى الحصون الأقنية وتحسين الموانئ وربط القاهرة ودمشق بواسطة مصلحة بريد سريع تحمل الرسائل بين المدينتين في أربعة أيام . وكانت بدائل الخيل تقف على أهبة الجري في كل محطة للبريد حتى لقد كان في مكنة السلطان أن يلعب الصولجان في كلتا العاصمتين خلال مدة لا تزيد على أسبوع واحد . وفيما سوى البريد العادي فقد اتخذ المماليك فن استخدام حمام الزاجل الذي كان منذ أيام الفاطميين .



مملكة أرمينيا
الرها
الرقة
البحر الأبيض المتوسط
القاهرة
الفيوم
أسوان
مملكة المماليك
في منتصف القرن الرابع عشر
المقياس بالأميال
٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠

بريّ ومحفوظة نسخة في سجلات خاصة . وكان بيبرس ينشّط
الأشغال العامة ويحسّن الجوامع ويقيم المؤسسات الدينية والخيرية
ومن مشيّدات الشهيرة الباقية التي شيّدها الجامع الكبير والمدرسة
التي تحمل اسمه . اما الجامع فقد جعله نابليون فيما بعد قلعة ثم اصبح
مستودع ارزاق لجيش الاحتلال البريطاني . وهو اول سلطان بمصر
عيّن اربعة قضاة يمثلون مذاهب السنّة الاربعة ووضع للمحمل
المصري نظاماً دائماً فلزومه حسب السنة وسيرته ادبية واعتد
الذي اكسبه اسم الجهاد كل هذه جعلت له شهرة حتى هي شهرة هرون
الرشيد في عصر العباسيين . وفي التاريخ الخرافي . . . اسمه فوق اسم
صلاح الدين . و « سيرة بيبرس » و « سيرة عنترة » لا يزال الاقبال
عليها في البلاد العربية اشدّ من الاقبال على « الف ليلة وليلة » الى اليوم .

ومن ميزات عهد بيبرس المعاهدات العديدة التي عقدها مع ملوك
المغول وملوك اوربا . ومن بين هذه عقدها بعد تقلّده السلطة مع
زعيم حصون الخلول في قسم من وادي العاصي . كذلك امضى
المعاهدات تجارية مع تشارلس دي آنجو Charles of Anjou ملك
صقلية شقيق لويس التاسع ومع جيمس ملك أراغون والفونسو
ملك إشبيلية .

ولعل اروع الحوادث في ملك بيبرس اقدامه على تجديد الخلافة
العباسية واحيائها ، وذلك بالاسم فقط . وكان جلّ قصده من ذلك
جعل سلطته شرعية ، واكتساب سلطانه روعة في نظر سائر الاقطار
الاسلامية ، وقمع حركة الشيعة التي كان يخشى شرورها في مصر خصوصاً
منذ ايام الفاطميين . لذلك استقدم من دمشق في حزيران سنة ١٢٦١

ثم استقدم آخر خلفاء بغداد العباسيين ، وكان قد نجا من مذبحة بغداد ، فبايع له بيبرس والناس حتى خطبائهم ، وكتب بيبرس في النواحي بخطبة اسمه للخطبة ونقشه بختمه على الدنانير ونقش اسمه في السكة ، واتخذ الخليفة لقب المستنصر . وكان قدومه لمصر القاهرة من سورية صحبة جماعة من امراء العرب ، فخرج السلطان لملاقاته ومعه الوزير والقضاة والامراء والشهود والمؤذنون حتى اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم . فكان يوماً مشهوداً . وقد البس خلعة واشهد على نفسه بثبوت نسبه الشريف امام قاضي القضاة ومجلس العلماء . ثم جرت امور السلطان ، وقلده الخليفة بيده شارات السلطنة وفوض اليه الامور في البلاد الاسلامية وقلده الحكم على مصر وسورية وديار بكر والحجاز واليمن والعراق . وبعد ثلاثة اشهر توجه بيبرس من القاهرة ، ومعه الخليفة ، قاصداً في اعادة بغداد الى املاك الخلافة ولكنه لم يرافقه الا الى دمشق فودعه فيها وعاد الى مصر . ولما ان جاء المستنصر الى بغداد اغار عليه حكام المغول ببغداد في الصحراء ، فكان ذلك آخر عهد به .

وتعاقب افراد على الخلافة مدة قرنين ونصف وليس لهم منها الا الاسم فقط بنقش اسمائهم في السكة والخطبة لهم من منابر مصر وسورية وقد انتزع السلطان سليم العثماني مصر في سنة ١٥١٧ من يدي المماليك ونقل معه الى القسطنطينية الخليفة المتوكل آخر هذه الاسرة

وهكذا استهل المماليك عهدهم بمصر بزعامة سلاطين ظاهرين منصورين دحروا واستأصلوا آخر الممالك الصليبية في سورية وتمكنوا من الحيلولة بين المغول وبين التوسع العام . ومما رافق بداية هذا العهد

الذي سادت فيه حكومة جمعة عسكرية حتى نشبت الحروب بين
الجماعات المتعادية وأهملت العقود وثقلت الضرائب وفقد الأمن
على الحياة والممتلكات وتفشى الطاعون والأوبئة وانتشرت الثورات
وكاد الخراب يعمّ مصر وسورية لسحقه لهما. وفي وادي النيل
خصوصاً راجت سوق الخرافات تغذيها الشعوذة وضروب السحر
وتمازجت مع العقائد الدينية وحجبتها وأخفتها فلم تترك للتقدم
العلمي مجالا. وفي أحوال كهذه لم يكن من الممكن نشوء حركة
فكرية راقية. والواقع أن منتصف القرن الثالث عشر شهد جميع
انحلال العالم العربي بفقدان الثقافة التي كانت تسود منذ القرن
الثامن. وشاع مذهب التصوف الذي حطم أعصاب الجهاد
والاستسلام الأخلاقي الذي حكم على ذكاء المروءة والثقافة بالتلاشي
في كل مكان.

وبعد منتصف القرن الثالث عشر لم يبق للعرب من مكانة في
العلم إلا في فرعي الفلك – الرياضيات وفي حقل علم حساب
المثلثات، والطب، وبخاصة طب العيون. ومن أشهر أطباء هذه
الحقبة ابن النفيس الذي درس في دمشق حيث توفي سنة ١٢٨٩،
وقد كان رئيس الأطباء في مستشفى القاهرة. وعلى الرغم من أن
اكتشاف الدورة الدموية منسوب إلى سيرفيتس Servetus
البرتغالي فإن ابن النفيس سبقه إلى هذا بثلاثة قرون. وكانت هذه
الحقبة خصبة بوجه خاص في إنتاجها ذلك النوع من المؤلفات الغرامية
الذي نسميه اليوم بـ «الأدب الجنسي». على أن الأدب العربي
كان في مراحله جميعاً طافحاً بقصص الفكاهة والنكتة التي تعجب

في عصره الحاضر من النوع الذي .

بيد أن الغرب لم يحس أي تحف من عصر المماليك ، على ما كان فيه من شأن عظيم للحروب والاهوال ، الا انه ازدهر في العمارة وسمق على اسلوب لا مثيل له في تاريخ مصر منذ ايام البطالسة والفراعنة . ويعود ذلك الى [illegible] مدرسة ، اسهمت في العمارة في مؤثرات سورية وعراقية انتقلت بعد ما اصبحت مصر في القرن الثالث عشر مأوى للفنانين والصناع الفارين من الاحتلال المغولي من الموصل وبغداد ودمشق من الغزوات المغولية . ولما انتهت الحروب الصليبية انصرفت مرة اخرى [illegible] الخصوم على حدودها [illegible] من مقاتليها في شمال [illegible] عن الآخر في عمارة المدن . واقبل السلاطين بتشييد الجوامع والمدارس ذوات الشكل المصلب وظهرت القبة في هذه الفترة بالاشكال المتميزة من حيث الخفة والظرافة ودقة الزخرفة . اما العمارات ذوات الخطوط الملونة كالقصر الابلق للملك الناصر سنة ١٣٤٠ فناشئة عن استعمال حجارة ذات الوان مختلفة في خطوط متناوبة وهو اسلوب يعود الى اصل روماني او بيزنطي . وجدير بالذكر ظهور [illegible] المقببة في هذه الحقبة . [illegible] الزخرفة الاسلامية الاشكال الهندسية والحروف الكوفية . اما الاشكال الحيوانية فقد كانت قبل العصور الاسلامية قليلة استعمالاً في مصر وسورية منه في اسبانيا وفارس . ويلوح من حسن الطالع ان تكون افضل نماذج لمهارات الزخرفة في عصر المماليك باقية حتى اليوم وهي من امتع المشاهد التي [illegible]

وطلاب العلم

حتى إذا كانت أواخر القرن الرابع عشر انتهى عهد [illegible] أن يكون من أحلك عهود تاريخ سورية ومصر . فكان عدد من سلاطينهم عامة [illegible] ، بل لم يحسن من كان [illegible] . في حين كان أكثرهم لا يملكون شيئاً من الكتابة أو الثقافة . فبدا المؤيد شيخ (١٤١٢ — ١٤٢١) ، الذي اشتراه الملك الظاهر برقوق من تاجر جركسي ، كان سكيراً يقترف جميع الفظائع . وذلك برسباي (١٤٢٢ — ١٤٣٨) ، وهو كذلك من مماليك برقوق ، لم يكن يحسن اللغة العربية . ومن مساوئه أنه أمر بقطع رأسي طبيبيه عندما تعسر عليهما شفاؤه من داء نزل به . أما إينال (١٤٥٣ — ١٤٦٠) ، وهو أيضاً من مماليك برقوق ، فكان [illegible] يجهل القراءة والكتابة . وعلى الرغم من طول عهد سلطنته فإنه لم يكن يقدر على وضع اسمه على المناشير والمراسيم إلا بعد أن يرسم له الموقّع [illegible] فيعيد هو على ذلك بالقلم . وإنهم [illegible] هذا [illegible] كأنهم يتأسون من قبله . وكانت [illegible] العلمان [illegible] في زمن العباسيين مزدهرة في أيام هؤلاء السلاطين المماليك . أما يلباي (١٤٦٧) ، ثالث خلفاء إينال ، فلم يكن أمياً وحسب ، بل معتوهاً . وأما قايتباي (١٤٦٨ — ١٤٩٥) ، الذي كان [illegible] اشتراه بخمسين ديناراً ، فقد أمر بالكيمياوي علي بن المرشوشي أن تقطع يده وتجدع [illegible] لعجزه عن تحويل المعادن السفلى ذهباً .

وقد زاد في سوء حالة البلاد الاقتصادية سياسة السلاطين المعيبة

القائمة على مصالحهم الشخصية . من ذلك ان برسباي منع استيراد التوابل من الهند ، وفي حصر الفلفل المرغوب فيه كثيراً ، وقبل ان ترتفع اسعاره وضع يده على الكميات الموجودة منها في البلاد وباعها من الناس بسعر حدده هو وحده . كذلك احتكر صناعة السكر وبلغ به الطمع ان حظر زراعة قصب السكر زمناً ليكون من نصيبه أرباحه . وفي عهده اجتاح الطاعون مصر والبلدان المجاورة ، وهو ضربة تكررت في البلاد تكراراً ، فكثر الطلب على السكر اذ كان يستخدم علاجاً ضد هذا الداء . ومع ان الطاعون لم يفتك بالناس فتك « الموت الاسود » Black Death في اوربة فقد توفي من جرائه ، على ما قيل ، نحو ثلاثة آلاف نسمة في العاصمة وحدها خلال ثلاثة اشهر . وحيث استُعيذ من الوباء بحسبه عقاباً من الله لانتشار المعصية بين الناس . وعدّ خروج النساء في الاسواق علة ذلك فلا غرابة من ذلك . ثم انه سعى الى التكفير عن سوء اعماله بفرض ضرائب جديدة على اليهود والنصارى .

على ان ابتزاز الاموال لم يقتصر على عهد السلاطين . ولما كانت الحكومة لا تعرف نظاماً معيناً لجباية الضرائب فلم يكن لهؤلاء السلاطين سبيل الى جمع الاموال اللازمة لحملاتهم الحربية ولابراز ذوقهم الفخم في هندسة البلاط وتشييد العمارات الكبرى الا باستدرار الاموال من الرعية ومصادرة اموال ذوي المناصب في الدولة الذين أثروا على حساب الجمهور . أضف الى ذلك ان عرب البدو في الدلتا والصحراء الشرقية كانت تغير على الفلاحين الآمنين في مزارعهم في وادي النيل فتسلبهم ، ولم تجد السلطات الى ذلك سبيلاً . ثم ان

الحروب كالاوبئة ، كانت تجتاح البلاد بين الحين والحين حتى أصبح الجوع حقيقة مزمنة تقتضي شرعة خاصة في سني القحط والجفاف استثنى من الحد من أكل في سني ... وقد فقدت سورية ومصر بسبب ذلك كله في عصر المماليك نحو ثلثي مجموع سكانها .

وفي آخر هذه الحقبة أحدثت بعض العوامل الخارجية تزعزع البلاد فتزيد ضعفها . ففي سنة ١٤٩٧ اكتشف الملاح البرتغالي فاسكو دا غاما (Vasco da Gama) ... طريقاً بحرية جديدة حول رأس الرجاء الصالح . وهو حدث خطير كان له أثره السيء في تاريخ المملكة السورية المصرية ، إذ حوّلت السفن البرتغالية بضائع من الهند وأوربة عن سبل المماليك في البحر الأحمر وسورية وما تقدمه وكانت قبل ذلك تحمل إلى ... حركة تجارة دولية وسوقاً من المحصولات والمنتوجات ... بين الشرق الأقصى وبلاد الغرب تتدفق من الموانئ السورية والمصرية ... وكانت البلاد تجني من ذلك الرفق لدى كل مرحلة على طريقها فوائد كثيرة .

وفي مطلع القرن الخامس عشر حلّت بسورية ضربة أخرى ربما كانت أشد من زحف تتريّ من وراء النهر كانت أشد من ضربات هولاكو . ذلك هو تيمورلنك (تيمور الأعرج) الذي ولد سنة ١٣٣٦ في ما وراء النهر من سلالة وزير لجنكز خان ، ولكن ... أسرته ادّعى التحدّر من جنكز خان نفسه . ... على عرشه الذي ترجم لتيمور . ... وكان ... أسقف ... وما كان به من الفتوة الدافعة إلى ارتكاب الجرائم . ففي بعض البلاد ... عشرة آلاف ... سهم ...

تاجري في مجده فاحتل بغداد كسرة على عقبه فسمي ملك اي
« عرج » . وفي سنة ١٣٨٠ سار على رأس الوف من التتر في سلسلة
حملات متواصلة احتلت افغانستان وسجستان وبلاد العجم وفارس
وكردستان . واستولى سنة ١٣٩٣ على بغداد . ودوّخ ارض
الرافدين . ففي تكريت مثلاً ، مسقط رأس صلاح الدين ، انشأ
هرماً من رؤوس القتلى . حتى اذا كانت سنة ١٣٩٥ زحف على ارض
القفقاس واحتل موسكو فدمرها فوق اهلها . وبعد ثلاث
سنوات غزا الهند الشمالية وقتل مئة الف من اهالي دلهي .

وكانت ضربته الكبرى حملة تيمور لسورية الشمالية سنة ١٤٠١ اشبه
بعاصفة تمر بالبلاد فلا تبقي ولا تذر . ففي حلب اذن عساكره نحو
ثلاثة ايام يأسرون وينهبون ويقتلون ويستبيحون كل شيء . ولقد
عمل تيمور من رؤوس نحو عشرين الف من سكانها انشأ منها أكيمات
صغيرة (أكمة) يحيط كل واحدة منها عشرون ذراعاً وارتفاعها
عشرة اذرع جاعلاً الوجوه بارزة الى الخارج يراها من مر بها .
وهدم أجمل ما فيها من مساجد ومدارس ، فلم يعد احد يعرفها
حتى الآن . وتوجه تيمور الى دمشق ماراً في طريقه بحماة وحمص
وبعلبك . ولم يقوَ الجيش المصري على الصمود في وجهه فهزم
هزيمة شنعاء . وسقطت دمشق بعد ان دافعت عنها حاميتها قرابة
شهراً . واعمل جيش تيمور في دمشق النهب والسلب والنار حتى
لم يبقَ من الجامع الاموي الا بعض جدرانه . ومن دمشق اسرع
هذا الغازي السفاح راجعاً الى بغداد ليثأر من اهلها لقتلهم بعض
رجاله فأعمل في اهلها السيف واحداً في الخميس ويقطع نفس

نحو مئة وعشرين برجاً من رؤوس ضحاياه .

وفي السنتين اللاحقتين زحف تيمور على آسيا الصغرى فسحق جيش العثمانيين عند انقرة في ٢١ تموز سنة ١٤٠٢ واخذ السلطان بايزيد الاول اسيراً في قفص . واستولى ايضاً على عاصمته بروسه وعلى ازمير . ولحسن حظ المماليك مات تيمور بعد سنتين وهو زاحف لافتتاح الصين تدفعه اشد رغبة واطمعه . اما خلفاؤه فقد قسموا ملكه في اثر حروب داخلية .

وجاءت الضربة القاضية على الامبراطورية العربية من جانب العثمانيين في اوائل القرن السادس عشر . ولقد سبقت الاشارة الى دخول الترك العثمانيين في بلاد العرب والى اختلاطهم بالقبائل الايرانية في آسيا الوسطى وفي دويلات آسيا الصغرى حيث انتزعوا السيطرة تدريجاً من ايدي غيرهم السلاجقة والمغول حتى اذا ما جاء منتصف القرن الرابع عشر انشأوا مملكة كتب لها ان ترث الامبراطورية البيزنطية والخلافة العربية

وفي سنة ١٤٨١ بحثت المشكلة العثمانية في وجه سلاطين مصر فقضّت عليهم مضاجعهم . وبدأت الشقة بين الجنسين تقوى وتعظم . ولقد ظهرت اول امرها في مناوشات متقطعة بين عمالها على حدود آسيا الصغرى وسورية . فادى ذلك تدريجياً الى نشوب الحرب ، واهم مواقعها معركة مرج دابق بين جيوش المماليك بقيادة قانصوه الغوري (١٥٠٠ - ١٥١٦) وجيوش الترك في ٢٤ كانون الثاني سنة ١٥١٦ بالقرب من حلب ، التي انتصر فيها العثمانيون على المماليك انتصاراً باهراً . ولا عجب فقد كانت

تجهيزات الجيش التركي بمعدات الحديثة من المدافع وبندقيات وسواها من الاسلحة ذات المرمى البعيد بعكس معدات الجيش المصري. فكان الجيش المصري خليطاً من البدو والسوريين الذين لم يكن لهم خبرة في استعمال هذه الاسلحة. زد على ذلك انه سبق للترك استعمال البارود مدة من الزمن، في حين احتفظ السوريون والمصريون بعروبتهم القديمة ذات البطولة الشخصية هي العرض الحاسم في القتال. وهكذا دخل سليم السلطان العثماني مدينة حلب ظافراً ورحب به بعضهم متخذاً من خلع المماليك. وما لبثت سورية بأسرها ان سقطت في حوزته. ومن ثم زحف هذا الفاتح جنوباً الى مصر وفتحها سنة ١٥١٧. وبذلك قضى على سلطنة المماليك قضاء مبرماً. ولما كانت الحجاز بحاضرتيه مكة والمدينة ملحقة بالمملكة المصرية فقد اصبحت الآن بحكم التبعية جزءاً من السلطنة العثمانية. اما القاهرة التي كانت مركز السلطة الاسلامية في الشرق فقد صارت مدينة من مدن الامصار، فخطب الوعاظ من على منابرها قائلين:

«وانصر اللهم السلطان ابن السلطان مالك البرين والبحرين، وكاسر الجيشين، وسلطان العراقين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك المظفر سليم شاه. اللهم انصره نصراً عزيزاً، وافتح له فتحاً مبيناً، يا مالك الدنيا والآخرة يا رب العالمين».

وسواء أصحت الدعوى القائلة بأن المتوكل آخر الخلفاء العباسيين أوصى بالخلافة الى السلطان العثماني أم لم تصح فالامر الواقع ان امير القسطنطينية التركي اكتسب على مسرح منتديات

الخلافة ، لم يجد هذا اللقب الخطير . ومع أن بعض خلفاء سليم تسمّوا بالخلفاء وخوطبوا بلقب الخلافة فإن هذا اللقب لم يكن إلا من قبيل التحبب ولم يعترف به خارج مناطق نفوذهم وأن أول وثيقة سياسية معروفة تشير إلى السلطان العثماني بلقب الخلافة والاعتراف له بسلطته الدينية على المسلمين خارج الولايات العثمانية هي المعاهدة الروسية التركية التي عقدت سنة ١٧٧٤ .

وهكذا أصبح سلاطين القسطنطينية الخلفاء أعظم أمراء الإسلام وورثة خلفاء بغداد وقرطبة وخلفائه في وقت معاً . [illegible] تحوّل مركز السلطة الإسلامية غرباً . ذلك أن مركز الحضارة العالمية أيضاً كان قد انتقل في هذا الزمن غرباً ، وبعد ، كشف أميركا والطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح وبدء عصر جديد .
وهنا ينتهي تاريخ الخلافة العربية والدول الإسلامية التي نشأت في العصور الوسطى على أنقاض الامبراطورية العربية وبداية سيطرة العثمانيين على العالم العربي .

العصور المظلمة وفجر النهضة الحديثة

بينما كان الأوروبي يتخبط في دياجير العصور الوسطى كانت البلدان العربية ترتع في عصورها الذهبية رافعة مشعل النور والعرفان. ولقد حدث كذلك في غمرة من الصفحات التي دهمت أوروبا فيما الى أن استولى على زمام الملك ثم الأتراك العثمانيون فقد دوّر هؤلاء الأتراك مشيد امبراطورية من أعظم الامبراطوريات الاسلامية وأطولها عمراً. وهم فضلاً عن استيلائهم في صدر القرن السادس عشر على جميع البلدان العربية فقد نشروا سلطانهم حتى بلغت حدود الفرس شرقاً وأبواب فينا غرباً وجعلوا من عاصمتهم القسطنطينية التي اغتصبوها من البيزنطيين عام ١٤٥٣م مركزاً تحسب له دول أوروبا حساباً. في هذه الحقبة عمّ الكسوف البلاد العربية بحواضرها المدنية ودمشق وبغداد والقاهرة؛ هذه الحواضر

التي كانت كل منها عاصمة لامبراطورية ومركزاً لثقافة فأصبحت
الآن مقراً لولاة يعينهم الباب العالي ومن خلفهم تتوسطهم الآستانة،
تلك المدينة التي تحولت اليها معاني ما في أسماء دمشق وبغداد
غير مرة عندما كانت الأولى عاصمة الأمويين والثانية عاصمة العباسيين

واستضمت الامبراطورية العثمانية عدا العنصر العربي عناصر
شتى من أرمنية وسريانية وكردية وبوسنية وبلقانية وغيرها لا تمت
للعنصر الحاكم ولا تجمع معه بعض الجامعة وثيقة قومية كانت
أو لغوية أو دينية أو ثقافية. فكان من الصعب حفظ هذه العناصر جميعاً
برابط القوة المسيطرة من غير. ومن هنا نشأت كارثة تعدد
مجتمعه في احتقار النظام ودفع الضرائب والخضوع لنظام قاسٍ من
المراقبة وعسف دواوين الجاسوسية. فلا غرو اذا لم نجد في القرون
الأربعة التي امتدت عام ١٥١٧ أثراً عربياً ما يتصف بالابداع
والابتكار سواء في العلم والأدب أم في الفن.

ولقد قام من السلاطين من حاول اجراء اصلاحات في الادارة
والحكومة كسليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) ومحمود الثاني
(١٨٠٨ - ١٨٣٩). ولكن الصعوبات التي صادفتهم كانت
ومثل ذلك كان نصيب الخط الشريف الذي نشره عبد المجيد الأول
عام ١٨٣٩ والخط الهمايوني الذي نشره عام ١٨٥٦ ويرميان الى
إقامة العدل ورفع الحيف والمساواة بين جميع أفراد الرعية بقطع
النظر عن الدين والمذهب. وما أن جاء دور عبد الحميد الثاني
(١٨٧٦ - ١٩٠٩) حتى قضى على كل نزعة حرة في المملكة
وخنق كل نفس من نور.

ولكن بعض الولايات العربية قد نجت بعض الافلات من هذا النير المخوف وتمتعت بشيء من الحكم الذاتي . فالسيادة التركية في مصر بقيت الى عهد اوائل القرن التاسع عشر اسمية فقط . وهي كانت ايضاً كذلك في الجزيرة العربية حيث بقيت بعض المراكز النجدية وأغوارها بمعزل عن الحجاز واليمن . أما الهلال العربي : فيه العراق وسورية الكبرى ، فهي محروقة صفة هذه الحقبة في منعة من جور الحكام الاتراك . فعمّ الفقر وعمّ الجهل ومن عهد تمكن في هذه المدة جبل لبنان الذي احتفظ بامتيازه المحروز في الحروب والموازنة في شيء مقدار من الحرية الفردية والقومية ، والذي نتج عنه تمتعه باستقلال أو شبه استقلال ولا سيما في عهد ولاية الامير فخر الدين المعني الثاني (١٥٨٥ - ١٦٣٥) وولاية الامير بشير الشهابي الكبير (١٧٨٨ - ١٨٤٠) وبعد حوادث سنة الستين اعترف رسمياً باستقلال لبنان الداخلي تحت حماية الدول الاوربية الخمس الكبرى .

وكانت مصر اول بلاد عربية انتفضت من سباتها واحتكت العلاقات الحربية مع بلدان اوربا الغربية ، وذلك ابتداء من غزوة نابليون عام ١٧٩٨ . فقد دخل نابليون الى هذا القطر مطبعة عربية كان جلبها من رومة وانشأ أول هيئة علمية يمكن اعتبارها مجمعاً وبذلك اوقد ، من حيث لم يحتسب ، شرارة فكرية ما لبث ان اضرمت نار امة بأسرها . وكان في الجيش العثماني الذي ساهم في اجلاء نابليون عن وادي النيل ضابط البانيّ الجنس تركيّ الثقافة اسمه محمد علي وهو الذي تمكن

فيما بعد من توطيد سلطته على البلاد المصرية وتأسيس دولة الخديوية في ضمن الخلافة العثمانية . ومن اجل ذلك فقد يعد محمد علي من المحدثين للشرق ولمصر خاصة لانه عرض البلاد لاستقبال المؤثرات الخارجية من ثقافية وعلمية وأرسل بعثات من الطلبة المصريين الى فرنسا وكان محمد علي يحلم بتأسيس امبراطورية عربية يكون مركزها في عاصمته القاهرة دون ان كان ثمة تعرف على شيء من الوعي القومي او الاستعداد للانسجام في جامعة شاملة . وما ان سحقت جيوشه القوات الوهابية في الجزيرة العربية عام ١٨٣١ حتى وجه ابنه ابراهيم باشا الى سورية فاستخلصها من ايدي بني عثمان وكادت تقضي على تلك الخلافة بسرعة لولا تدخل انكلترا وغيرها من الدول الاوربية ودعم العرش العثماني المتداعي .

وجاء حكم ابراهيم باشا للبلاد الشامية (١٨٣١ - ١٨٤٠) فاتحة عهد جديد فتحت فيه البلاد ابوابها للبعثات والارساليات الاجنبية ، فكثر فيها عدد المعلمين والاطباء والرواد والسياح من بروتستانت وكاثوليك ومن افرنسيين وبريطانيين واميركان . ونشأت في البلاد على اثر ذلك مدارس ومكتبات ومطابع اجنبية ووطنية ، وتشكلت جمعيات علمية وادبية ، وترجمت كتب دينية وفلسفية وعلمية ، وكان من نتيجة ذلك كله ان تفتحت العقلية العربية بمقدم الفكر الاوربي الحديث وان تتسرب الى البلاد افكار جديدة في الاقتصاد والسياسة والاجتماع وغيرها من الاراء الحديثة ذات العلاقة بالديمقراطية العصرية والقومية الوطنية . والواقع ان هذه اليقظة التي تمت للشرق العربي من عصوره المظلمة بفضل المكاتب الاوربية العربية

والاميركية فان نفعه في تقريب نسج عقد كانت الذهنيات
الاكثر يونانية وتعويض نهضة العرب في القرن الثاني عشر التي سرت
عبر اسبانيا من الشرق الى اوربا .

على ان الجزيرة العربية لم تتعرض لهذه العوامل كما تعرضت لها
اجزاؤها في الشمال ، وذلك بسبب دواعي اعتزال الجزيرة الجغرافي
وتحفظها الدينية وتعصب اهلها القبلية فبقيت حضارتها من طراز
العصور الوسطى ولم تتعرض لمؤثرات حديثة . وليست الاصلاحات
التي حدثت مؤخراً ان تسود على قشر العصر كثيراً من جوهر
الحب . وقد كانت الجزيرة في مطلع الحرب الاوربية الاولى مركزاً
لحركة قام بها الشريف حسين ترمي الى الوحدة العربية السياسية
وهذه هي المحاولة الثانية لتحقيق هذه الوحدة بعد محاولة محمد علي ،
وقد فشلت مثلها لخطر من اوربا .

وكان من نتيجة الاحتكاك بين الثقافة السورية والمزج الفكري
العربي ان نبتت مبادىء القومية العربية الشامية واستمدت وحيها
الاكثر من مخلفات الثقافة الاميركية بخلاف القومية
التركية التي جاءت متأخرة عن العربية والتي استمدت الهامها من مبادىء
الثورة الافرنسية . واذا كان ظهور مبادىء القومية العربية في العقد
السابع من القرن الماضي على يد رجال الفكر السوريين ، وغالبهم
من اللبنانيين المسيحيين الذين ثقفوا في المدارس الاميركية في بلادهم
ووجدوا في مصر الخديوية جواً اكثر ملاءمة لجهودهم العلمية والسياسية

على ان النهضة العربية كانت في مبادىء امرها حركة فكرية مجردة
قوامها احياء اللغة العربية ودرس آثارها والاشادة بماضي العروبة

المجيد . ولا شك ان استوحت من الماضي ، وتطلع عن المطـلع
الى المستقبل فحركت ورائها نهضة قومية سياسية تستهدف الاستقلال
الشامل والوحدة العربية . غير ان هذه النهضة القومية السياسية
تطورت فيما بعد وتنوعت بتنوع الوحدات المجزأة والمشاكل
الموضعية التي اصطدمت بها ، فحدث في مصر بعد عام ١٨٨٢ شكل
المقاومة للاحتلال البريطاني وفي سورية شكل المقاومة للسياسة
التركية وسياسة التتريك التي اعقبت حرب تركيا الفتاة . وكذلك
كان شأن فلسطين التي تحملت فيما بعد الحرب العالمية الاولى مقاومة
منظمة ضد الاصطدام بالانتداب البريطاني والحركة الصهيونية ،
وشأن العراق لدى تحقيق روح عراقية نبتت من مقاومة الانتداب
البريطاني . وفي البلاد العربية اليوم حركة ترمي الى جمع شملها في
اتحاد عربي من دعائمه الاولى الثقافة والاقتصاد .

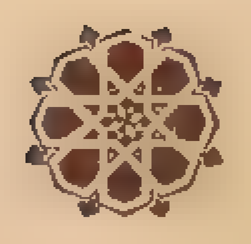
ومما لا ريب فيه ان القومية الحديثة انما هي صناعة عربية
استوردها العالم الذي فيه الشرق العربي من اوربا الغربية . ولقد نقلت
مبادئها الى الشرق عن قصد او عن غير قصد في سبيل التجدد واصطراع
القديم والاخذ بالعلمانية والاتجاه نحو اهداف الحضارة الغربية .

والواقع ان تعرض العرب للعوامل الاوربية الغربية وما نتج
عن ذلك من الوعي القومي هو اكبر حدث في تاريخ الشرق العربي
في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين . واذا صح الاستنتاج
بالقياس على الاحداث التي بدت في القرن التاسع عشر فسيكون هذا الدور
الذي يجتازه الشرق العربي اليوم دور ابداع وابتكار يقوم فيه ابناء
العربية بقسطهم من خدمة المدنية والانسانية .

فهرست الأعلام

فهرست





ثمن النسخة









Library of



Princeton University.
Presented by
Philip K. Hitti


32101 085174173